الوسطية في الإسلام

ودلالاتها في ضوء السنة النبوية

أ.د/ أحمد بن صالح الزهراني

مؤسسة الأوراق الثقافيّة للنّشر الإلكتروني

١٤٤٤ هـ
٢٠٢٣م

حقوق النسخ والانتفاع بالكتاب بأي صورة إلكترونية أو ورقية أو أي وسيلة أخرى
محفوظة لمنصة أوراق عربية ويُحظر تداول المادة بأي شكل دون إذن من الناشر أو المؤلف

أوراق عربية

جميع الحقوق محفوظة

منصّة أوراق عربية - www.aawraq.com

أحد مشاريع مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني.

ترخيص وزارة الإعلام رقم (١٤٩٨٣٧)

موقعها الجغرافي: جدة – المملكة العربية السعودية

هاتف: (٠٥٤٤٥٠٢٤٨٣)

البريد الإلكتروني للمؤسسة والمنصة: info@aawraq.com

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمنصة (أوراق عربية)

حقوق النشر الخاصة بالكتاب محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع: ١٤٤٥/١٩٢٩ ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٧٢٨٩-٥

تنبيه:

الآراء المنشورة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ومنصة (أوراق عربية) لا تتحمل أي مسؤولية أدبية أو قانونية مترتبة عليها.

الوسطية
في الإسلام

مستخلص البحث

تدور فصول ومسائل هذا البحث حول مصطلح الوسطية ، وما حصل فيه من تجاذب بين تيارات شتى من داخل البيئة الإسلامية ومن خارجها .

وقد ظهر جلياً من خلال الدراسة أنّ المصطلح أصبح وسيلة فاعلة في الغزو الفكري والمعرفي الّذي يُدار من خارج الديار الإسلامية ومن داخلها أيضاً .

وبيّنا أنّ الوسطية من حيث اللغة مأخوذة من الوسَط بتحريك السين ، وأنّ الدلالة البلاغية للوسط على العدالة والخيرية هي الّتي جعلته وصف ثناء على الأمّة في الكتاب العزيز .

وبيّن البحث أنّ مصطلح الوسطيّة ليس قانوناً للصواب والخطأ أمرنا الله به ، وإنّما هو وصف وثناء وبيان لجعل الله تعالى هذه الأمّة وسطاً ، في دينها وشريعتها ، في أخلاقها وسلوكها واعتقادها ، في معاملاتها وعلاقاتها مع الآخرين ، في سياستها واقتصادها بل وحتى في موقعها الجغرافي — عند البعض – وإن كان ذلك مما أهملته في البحث لعدم قناعتي به .

وبيّن البحث أيضاً أنّ الواجب على المسلم أن يبحث عن الحقيقة الشرعية المعرفية والعملية من خلال النصوص من الكتاب والسنة وفعل السلف لصالح دون تأثر بالتوسط بين أقوال مختلفة لأنّ البينية المطلقة ليست مقياساً للصواب والخطأ ، ولأنّ الوسطية نسبية في كثير من الأحوال .

ولهذا فإنّ أهمّ وسيلة وطريق للوصول لحالة الوسطية المثلى هي العلم والبصيرة والفقه في دين الله تعالى .

وبيّن البحث أيضاً خطأ من جعل الوسطية البينية دليله العقلي لاتخاذ المواقف العلمية أو العملية الصحيحة ، وأن هذا هو سبب التضارب والخلاف الشديد في تنازع الوسطية وتجاذبها بين تيارات كثيرة متناقضة أحياناً ، ممّا حدا ببعض المفكرين إلى التّنكّر لها بالكلية واعتبارها تنظيراً لا واقع له .

وبيّن البحث أنّ الوسطية الإسلامية تتغلغل وتسري في تفاصيل الشريعة الإسلامية ، إذ لا يكاد الباحث يتأمل في حكم شرعي منصوص عليه إلاّ وتلوح منه الوسطية والاعتدال .

وبيّن البحث أنّ الوسطية كما هي منهج ربانيّ أمرنا باتباعه واقتفائه من خلال اتّباع الشريعة نفسها وامتثال النصوص فإنّها سببٌ لمجموعة من الآثار الطيبة الّتي تظهر على الفرد والمجتمع الّذي يكون الكتاب والسنة وفعل السلف الصالح وطريقتهم مرجعاً لهم ونبراساً يستضيئون به ومن أهمها التوازن والاستقرار والطمأنينة والثبات ووضوح الرؤية ورفع الحرج ودرء المفاسد .

Research Summery

The contents of this research circulate around the word Alwasatiya (perfect balance, justice, and goodness), and the magnetism that has happened among many people inside and outside the Muslim World.

It has appeared through many studies of Alwasatiya that it has been an affective way used from inside and outside the Muslim World to corrupt people's thoughts and knowledge.

In the paper, we illustrated that Alwasatiya is not the law of right and wrong that Allah has ordered us to follow, but rather, it is a description and complement from Allah to the Muslims for being a balanced nation neither extremist nor ignorant in their religion, legislation, behavior, attitudes, beliefs, dealing with others, politics, and economy.

We have also illustrated that Muslims' duties are to search for the true knowledge and wisdom from the Quran and Sunna (The way of life prescribed as normative in Islam, based on the teachings and practices of Muhammad and on exegesis of the Quran.) and is not be affected by those who interprets the word Alwasatiya as being in the middle or median, because being in the middle is not the perfect scale for right and wrong. Therefore, the best way to reach the perfect balance and goodness is through the knowledge and wisdom of Allah's religion.

We have also pointed out the mistake of those who consider Alwasatiya as being the middle and took it as a guide to their knowledge and action, which led to Alwasatiya's conflict and the magnetism among many, and the cause of some scholars to completely ignore Alwasatiya and consider it invalid or mere hypotheses.

We have also illustrated that how Alwasatiya is being used as a perfect balance in the details of almost every Islamic law.

And we have illustrated Alwasatiya is Allah's law which he has ordered us to follow through the practice of Quran and Sunna. Alwasatiya is the cause of good things among individual and community if it is practiced according to the Quran and the Sunna, and it is the lamp where people get their light of balance, security, and a clear picture of good and bad, and to follow the good and avoid bad.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله، نحمده – تعالى – ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء:١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن الله – تعالى – أرسل نبيه محمدا ﷺ بالدين الكامل، وأنزل عليه الكتاب الخالد، وشرع له من الدين أحسنه، ومن الشريعة أسمحها، وأيسرها، كما قال النبي ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[(١)]، فكان دينه وشريعته وسيرته أنموذجا يتمثل هذه الحقيقة.

السماحة واليسر صفتان وصفت بهما شريعة الإسلام، وأمر بهما الصحابة من لدن نبيهم ﷺ حين قال لهم: «**إنما بعثتم ميسرين**»[(٢)].

وقد جاء القرآن والسنة بكثير من الأوصاف الحميدة، والخصال الشريفة، للدين الذي ختمت به الرسالات الإلهية، دين الإسلام، وللأمة التي ختم بها اصطفاء الأمم، أمة الإسلام، وأنزل عليها آخر الكتب، وأفضلها، وأحسنها.

ومن تلكم الصفات والخصال التي جاءت في وصف هذه الأمة المحمدية: أنها الأمة الوسط،

---

(١) جاءت هذه العبارة في أكثر من حديث، منها ما أخرجه أحمد (ح٢١٧٨٨) والطبراني في الكبير (ح٧٨٦٨) عن أبي أمامة، وما رواه أحمد (ح٢٤٣٣٤) عن عائشة، وما رواه الطبراني في الأوسط (ح٧٩٤)، وللشيخ الألباني –رحمه الله– بحث وصل فيه إلى أن الحديث حسن، انظر السلسلة الصحيحة (ح٢٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء، (ح٢٢٠).

بجعل الله – تعالى – لها – كذلك –، حيث قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣].

وقد اختلف المفسرون لكتاب الله – تعالى – اختلافا لفظيا، مآله: أن الآية تفيد أفضلية هذه الأمة على سائر الأمم.

٥ وعلى هذا سار الأمر من قديم، فلم يك وصف الأمة بالوسطية منطلقا للخلاف المعنوي بين العلماء في السابق.

حتى تأخر الزمان، ودخل مصطلح (الوسطية)-كغيره من المصطلحات – في أتون سجال فكري عنيف، بين تيارات شتى، يدعي كل منها أنه يمتلك الحقيقة المطلقة في معنى الدين، والتدين، وعلاقة الدين بالحياة.

١٠ وسبب ذلك أن (المصطلح)- بشكل عام – أصبح واحدا من أخطر وأمضى أدوات السجال الفكري المعاصر، فكان من وسائل الغزاة في تغيير الصورة النمطية في أذهان المسلمين عن الإسلام وحقيقته، وعن التدين وجوهره: إسقاط المعاني المراد إحلالها في ذهنية المسلم المعاصر تحت مسميات مألوفة لديه، ومصطلحات مقبولة ممدوحة عنده، وبتقدم الزمان تتم عملية الإحلال شيئا فشيئا.

١٥ وهذه الوسيلة – أعني استعمال المصطلحات – ليست وليدة اللحظة، بل هي قديمة، لكنها الآن أصبحت أكثر عمقا وتركيزا وقوة، بعد أن انخدع بها كثير من المفكرين الإسلاميين، وبعض المنتسبين للعلم أو الدعوة، وأصبحوا يتلقون هذا التغيير والخداع المصطلحي بالقبول، بل يتولون هم القيام بجزء من المهمة، من خلال نشرهم وتعميمهم لما تلقوه فيمن يثق بهم من العامة وأنصاف المتعلمين، فيصبح الباطل حقا عند كثير من الناس.

٢٠ قال الإمام العلامة شمس الدين ابن القيم[١]– رحمه الله – ذاكرا بعض الأسباب التي تؤدي

---

(١) شمس الدّين أبو بكر محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدّمشقي الفقيه إمام الجوزية وابن قيمها، ولذلك سمي: ابن قيم الجوزية، إمام وفقيه واسع العلم والتصنيف أخذ العلم عن شيخ الإسلام ابن تيمية =

إلى رواج الباطل وطمس الحق: « **السبب الأول**: أن يأتي به صاحبه مموها مزخرف الألفاظ، ملفق المعاني، مكسوا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها، فيحسنها في عينه، ويحببها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمده كل من أراد ترويج باطل، فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته.

قال الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢]فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصوغها وميلها إليه ورضاها به لما كسي من الزخرفة، والذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولا وعملا، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل وتنبيهه على مواقع الحذر منها وعدم الاغترار بها.

وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك، حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون أم الخبائث: أم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة[1]: لقيمة الذكر والفكر، التي تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمون مجالس الفجور والفسوق: مجالس الطيبة، حتى إن بعضهم لما عذل عن شيء من ذلك قال لعاذله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله، وجرأة على سعة عفوه ومغفرته، فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات، ضعيف العلم والبصيرة.

السبب الثاني: أن يخرج المعنى الذي يريد إبطاله بالتأويل في صورة مستهجنة، تنفر عنها القلوب، وتنبو عنها الأسماع، فيتخير له من الألفاظ أكرهها وأبعدها وصولا إلى القلوب،

= وسجن معه حتى مات شيخه – رحمه الله –، وأفرج عنه، من أهم مصنفاته (زاد المعاد) و (الصواعق المرسلة) وغيرها، توفي سنة (٧٥١هـ)، الدرر الكامنة لابن حجر (١/ ٢٤٣).

(١) المقصود به: الحشيش المسكر، انظر فتاوى شيخ الإسلام (٣٤/ ٢١٠).

وأشدها نفرة عنها، فيتوهم السامع أن معناها هو الذي دلت عليه تلك الألفاظ.

فيسمي التدين: ثقالة، وعدم الانبساط إلى السفهاء والفساق والبطالين: سوء خلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغضب لله والحمية لدينه:فتنة وشرا وفضولا،فكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف هذا معظم ما ينفرون به عن الحق ويدعون به إلى الباطل، فيسمون إثبات صفات الكمال لله: تجسيما وتشبيها وتمثيلا، ويسمون إثبات الوجه واليدين له: تركيبا، ويسمون إثبات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته تحيزا وتجسيما، ويسمون العرش: حيزا وجهة، ويسمون الصفات: أعراضا، والأفعال: حوادث، والوجه واليدين: أبعاضا، والحكم والغايات التي يفعل لأجلها: أغراضا، فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستنكرة الشنيعة تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه.. واستقر ذلك في قلوب المتلقين عنهم، فلما صرحوا لهم بنفي ذلك بقي السامع متحيرا أعظم حيرة، بين نفي هذه الحقائق التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له جميع رسله وسلف الأمة بعدهم، وبين إثباتها.

وقد قام معه شاهد نفيها بما تلقاه عنهم، فمن الناس من فر إلى التخييل، ومنهم من فر إلى التعطيل، ومنهم من فر إلى التجهيل، ومنهم من فر إلى التمثيل، ومنهم من فر إلى الله ورسوله، وكشف زيف هذه الألفاظ، وبين زخرفها وزغلها، وأنها ألفاظ مموهة، بمنزلة طعام طيب الرائحة، في إناء حسن اللون والشكل، ولكن الطعام مسموم، فقالوا ما قاله إمام أهل السنة باتفاق أهل السنة أحمد بن حنبل [١]: «لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين»[٢].

ولما أراد المتأولون المعطلون تمام هذا الغرض اخترعوا لأهل السنة الألقاب القبيحة، فسموهم حشوية، ونوابت، ونواصب، ومجبرة، ومجسمة، ومشبهة، ونحو ذلك، فتولد من تسميتهم لصفات الرب – تعالى – وأفعاله ووجهه ويديه وحكمته بتلك الأسماء، وتلقيب من أثبتها له بهذه

---

(١) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي، أبو عبدالله، الثقة الحافظ الفقيه، الصابر على المحنة، حتى قيل: فتنة ولا أحمد لها، له كتاب (المسند)، و (فضائل الصحابة) وغيرها، مات سنة (٢٤١هـ)، سير أعلام النبلاء، (١١/ ١٧٧).

(٢) ذكره القاضي أبو يعلى في (إبطال التأويلات) (١/ ٤٤).

الألقاب لعنة أهل الإثبات والسنة، وتبديعهم، وتضليلهم، وتكفيرهم، وعقوبتهم، ولقوا منهم ما لقي الأنبياء وأتباعهم من أعدائهم، وهذا الأمر لا يزال في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها»[(١)].

وإذا نظر المتأمل إلى من يتكلم عن الوسطية، داعيا إليها، أو مدعيا لها، أو ناعيا إياها، أو متهما غيره بافتقاره إليها، يجد أنهم لا يخرجون عن شرائح ثلاث:

الأولى: أهل العلم المتحققون به، العارفون بالله، وبرسوله ﷺ، وبدينه، الذين لا تهمهم الألفاظ والمصطلحات، بقدر ما يهمهم تحقيق ومعرفة مراد الله ومراد رسوله ﷺ، وبيان معاني النصوص الشرعية، والأحكام التي جاءت بها، بغض النظر عن أهواء الناس، ونظرتهم لهذه الأحكام، سواء عدوها إفراطا أو تفريطا، غلوا أو جفاء.

الثانية: شريحة أنصاف المتعلمين، وفيهم بعض من يوصف بـ (المفكر)، وفيهم من هو من الدعاة إلى الإسلام، ممن يدعو إلى وسطية تبناها هو، أي أنه وضع لنفسه منهجا، واختار رأيا عقليا تخيره من بعض النصوص، وفهمه بحسب نظره العقلي المجرد، ثم عده هو الوسط، وما سواه إما إفراط وإما تفريط، وهؤلاء غالبهم حسن النية والقصد، ودافعه الخير لهذه الأمة، لكنه سلك طريقا معكوسا،حيث اعتقد ثم استدل.

الثالثة: شريحة من يريد بهذه الأمة سوءا، من الكفار والمنافقين، ممن لا يهدأ لهم بال مادامت أعلام القرآن والسنة ترفرف على ربوع الأرض، وقد علموا أن المسلمين لا سبيل لزحزحتهم عن دينهم ولو خرجت أرواحهم من أبدانهم، فلا سبيل لهم إذن إلا بأن يقدموا للمسلمين دينا جديدا، يتفق مع الإسلام في المسميات، ويختلف معه في المضامين، خصوصا في الأبواب والمسائل التي تعتبر في نظر الغرب مصدر قلق، سببه عدم فهمهم لحقيقة الإسلام وأحكامه وسماحته، ويدخل في هذه الشريحة مجموعة من الكتاب، ممن ارتمى في أحضان الغرب وحضارته، واختار أن يكون مبشرا بدين جديد، تصنعه وتروج له مؤسسات معادية للإسلام كحضارة وتاريخ ودين من عند الله، وفي هذا يقول سارتر[(٢)]:«كنا نحضر رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء

---

(١) الصواعق المرسلة، (٢ / ٤٣٥ – ٤٥١) بتصرف يسير.

(٢) جان بول سارتر، فيلسوف فرنسي، مولود عام ١٩٠٥، وهو ملحد مناصر للصهيونية، يعتبر من رواد ومؤسسي الوجودية، له عدة كتب منها: (الوجودية مذهب إنساني) و (الوجود والعدم). مات =

والسادة، من أفريقيا، وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيام في أمستردام، ولندن، والنرويج، وبلجيكا، وباريس، فتتغير ملابسهم، ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة، ويتعلمون منا طريقة جديدة، في الرواح، والغدو، والاستقبال، والاستدبار، ويتعلمون لغاتنا، وأساليب رقصنا، وركوب عرباتنا، وكنا ندبر لبعضهم -أحيانا - زيجات أوروبية، ثم نلقنهم أسلوب الحياة، على أثاث جديد، وطرز جديدة من الزينة، واستهلاك أوروبي جديد، وغذاء أوروبي، كنا نضع في أعماقهم الرغبة في (أوربة) بلادهم، ثم نرسلهم إلى بلادهم، وأي بلاد ؟

بلاد كانت أبوابها مغلقة دائما في وجوهنا،لم نكن نجد منفذا إليها، كنا بالنسبة لها رجسا ونجسا وخنا، كنا أعداء يخافون منا، لكنا بمجرد أن أرسلنا (المفكرين) الذين صنعناهم إلى بلادهم، كنا بمجرد أن نصيح في أمستردام، أو برلين، أو بلجيكا، أو باريس، قائلين: (الإخاء البشري)، نرى رجع أصواتنا يرتد من أقاصي أفريقيا، والشرق الأوسط، أو الأدنى، أو الأقصى.

ثم إننا كنا واثقين أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها، غير ما وضعناه في أفواههم، ليس هذا فحسب، بل إنهم سلبوا حق الكلام من مواطنيهم، هذا هو دور المفكر الذي يتشكل بالشكل الأوروبي ويلعبه في الدول الإسلامية، دور (دليل الطريق) للاستعمار في البلاد التي لم يكن يعرفها أو يعرف لغاتها، وهو السوس الذي عمل في الشرق من أجل تثبيت هذه المادة الثقافية، والاقتصادية، والأخلاقية، والفلسفية والفكرية المسممة للاستعمار الغربي، داخل هذه الأشجار الوراقة الأصيلة.

هذا هو السوس الذي كنا صنعناه وسميناه بـ (المفكرين)،كانوا عالمين بلغاتنا، وكان قصارى همهم ومنتهى أملهم أن يصبحوا مثلنا، في حين أنهم أشباهنا وليسوا مثلنا، إنهم نخروا من الداخل ثقافة أهليهم، وأديانهم القومية، التي تصنع الحضارات، ومثلهم، وأحاسيسهم، وأفكارهم الجميلة، وأصالتهم الأخلاقية، والإنسانية، وتحت أي شعار، وبأي اسم ؟

= سنة (١٩٧٩م)، انظر: الموسوعة الميسرة، (٢ / ٨١٨و٨٨٨).

باسم: مقاومة الخرافات، أو مكافحة الرجعية، أو الوقوف ضد السلفية»[١].

وبهذا يكون مصطلح الوسطية قد أصبح محل تنازع، بل أصبح من الألفاظ المشتركة المجملة، التي يفهمها ويوجهها كل حسب ثقافته، ومنطلقاته العلمية، والفكرية، والأدبية، وإذا أصبح المصطلح بهذه المثابة كان من الواجب على أهل العلم أن يفصلوا المجمل، ويبينوا المبهم، ويقيدوا المطلق، ويخصصوا العام، حتى لا يكون المصطلح وسيلة لهدم الدين، إما غلوا، وإما جفاء، خاصة مع لفظ كلفظ (الوسطية)، الذي اكتسب أهميته من كونه مدحا وثناء من الله – تعالى – على هذه الأمة، فأصبح عند الكثيرين مقياسا وميزانا توزن به أقوال الناس وأفعالهم، وقد عنّ لي أن أسهم في بيان الوسطية وما يحوم حولها من مفاهيم، منطلقا من النص الشرعي وأقوال أئمّة السلف وسمّيته: «**الوسطية في الإسلام ودلالتها من السنة النبوية**».

وقد رأيت أن يكون البحث في مقدمة وبابين وخاتمة، كما يلي:

المقدمة: وأذكر فيها أهمية الموضوع، وسبب البحث فيه، وخطته، والدراسات السابقة، والمصاعب التي واجهتني.

الباب الأول: الوسطية في اللغة والشرع.

ويشتمل على تمهيد، وعدة فصول:

التمهيد: الوسطية في اللغة، المبنى والمعنى.

الفصل الأول: الوسطية في النصوص الشرعية وكلام أئمة السلف.

الفصل الثاني: المعاني الشرعية التي يتضمنها الوصف بالوسطية.

الفصل الثالث: نواقض الوسطية، وأضدادها.

الباب الثاني: مجالات الوسطية ومظاهرها وآثارها على المجتمع.

وتحته فصلان:

---

(١) نقله جمال سلطان في كتابه دفاع عن ثقافتنا ص (٤٣) و (٤٤) عن مقدّمة سارتر لكتاب (المنبوذون في الأرض) وهذا النص ليس موجودا في الترجمة العربية للكتاب .

الفصل الأول: مجالات الوسطية ومظاهرها.

الفصل الثاني: آثار الوسطية على الفرد والمجتمع.

الخاتمة: وأذكر فيها أهم النتائج التي توصلت إليها والتوصيات التي أخرج بها.

منهج البحث:

سلكت في البحث منهج العرض والاسترسال المتوسط بين الإطالة المملة، وبين التقصير المخل، دون الدخول في تفاصيل تبتعد عن أصل البحث، إلا فيما أجده مفيدا.

حاولت كذلك قدر الإمكان أن لا أثقل الحواشي بالتعليقات التي تقطع على القارئ استرساله في القراءة.

وبدأت العرض تسلسليا حسب التلقي الذهني، حيث بدأت بالتعريف اللغوي ومن ثم تصور الوسطية من خلال التعريف، ومن ثم الانتقال للوسطية في الشريعة ثم مجالاتها وآثارها.

العزو والتوثيق:

١ – بالنسبة للآيات جعلت العزو بعد الآية مباشرة.

٢ – الأحاديث والآثار ما كان منها في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به رعاية للاختصار، ولإجماع الأئمة على تلقي ما فيهما بالقبول إلا مواضع يسيرة حصل فيها كلام.

وما كان خارجهما خرجته من أشهر المصادر المتداولة، وأوردت أحكام الأئمة عليها مع مراعاة للاختصار، وأحيل كثيرا إلى كتب الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله لانتشارها في أيدي الناس.

٣- ترجمت لكل من ورد اسمه من الأعلام حتى المشاهير منهم، خصوصا صحابة رسول الله ﷺ، الذين ظل غالب الباحثين يهملون ترجمتهم تحت ذريعة شهرتهم حتى آل الأمر بكثير منا أن أصبح يجهل معلومات مهمة عن كبار الصحابة وأعلامهم فضلا عن غيرهم، فاحتسبت ترجمة كل من يمر علي تقربا إلى الله تعالى بحبهم، وإشهارا لذكرهم، ولو خالف هذا نظرة بعض

الأساتذة الفضلاء للمنهج العلمي.

٤- وثقت النقول التي أوردتها من مصادرها الأصلية، أو عمن نقله عنها إن تعذر علي الأصل، وحرصت على أن أعزو إلى كتب متداولة وقريبة من أيدي القراء ولو كانت أقل أصالة من غيرها، فعزوت – مثلا – إلى (سير أعلام النبلاء) للذهبي في الأعلام غير الصحابة، وعزوت إلى (الإصابة) لابن حجر بالنسبة للصحابة الكرام.

دراسات سابقة:

كتب العديد من الباحثين في الوسطية بين متوسع ومختصر، كما تكلم عنها الكثيرون في مقالاتهم ومحاضراتهم، ومما وقفت عليه ما يلي:

١ – وسطية أهل السنة، الدكتور محمد با كريم با عبدالله، (رسالة ماجستير).

٢ – (الوسطية في الإسلام)، فريد عبدالقادر (رسالة ماجستير).

٣ – (الوسطية في القرآن الكريم)، للدكتور ناصر العمر.

٤ – (الوسطية في القرآن الكريم)، للدكتور علي الصلابي (رسالة دكتوراة).

٥ – (الوسطية والاعتدال)، للأستاذ محمد يتيم اللجنة العلمية لحركة التوحيد والإصلاح بالجزائر.

٦ – (الإسلام دين الوسطية)، للأستاذ عبدالعزيز عودة، بحث مقدم لمؤتمر الوعظ والإرشاد الديني بفلسطين.

٧ – (الوسط ومظاهر الوسطية في القرآن الكريم)، الحسن بن خلوي بن حسن موكلي، جامعة الملك خالد.

٨ – (الوسطية في الإسلام)، للدكتور عبدالرحمن الهرفي.

٩ – (الوسطية مرتكز راشد لحوار الحضارات)، الدكتور حامد بن أحمد الرفاعي.

١٠ – (الوسطية في الإسلام)، للدكتور زيد الزيد.

صعوبات واجهتني أثناء البحث:

لعل كثرة من كتب عن الوسطية بتوسع أو باختصار هو العقبة الوحيدة التي واجهتني، إذ أصبح من الواجب على الباحث أن يأتي بجديد يكون حجة له في كتابة بحث كتب فيه قبله كثيرون، وبعض هذه الكتابات رسائل جامعية، لا أن يكون بحثه مجرد تكرار لما قبله، كما قال التاج السبكي[١]: « وأنا دائما أستهجن ممن يدعي التحقيق من العلماء إعادة ما ذكره الماضون، إذا لم يضم إلى الإعادة تنكيتا عليهم، أو زيادة قيد أهملوه، أو تحقيق تركوه، أو نحو ذلك مما هو مرام المحققين.. إنما الحبر من يملي عليه قلبه ودماغه »[٢].

إلا أني بعد أن اطلعت على كثير منها اخترت أن يكون العرض والتنكيت مجالا للتجديد في هذا البحث، مع الإقرار بالقصور دونهم، سائلا ربي – تعالى – أن يهبني الإخلاص في قولي وعملي، وأن يسدد قلمي، وأن يشرح صدري، وييسر أمري، وأن يفقهني في دينه، إنه سميع مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) تاج الدّين أبو نصر عبدالوهاب بن تقي الدّين علي بن زيد الدّين أبي محمد عبدالكافي بن ضياء السبكي صاحب طبقات الشافعية، كان أبوه تقي الدّين من أئمة وقته علما وديانة، وأما هو فنبغ وفاق أقرانه، وله دراية عظيمة بالحديث والفقه والرجال، توفي سنة(٧٧١)هـ وله أربع وأربعون سنة، الدرر الكامنة لابن حجر (٢ / ٤٢٥).

(٢) طبقات الشافعية (١ / ٩٩ ـ ١٠٠) بتصرف.

الباب الأوّل

الوسطيّة في اللّغة والشّرع

تمهيد:

الوسطيّة في اللغة: المبنى والمعنى

٥

- الوسطية في اللغة:

لفظ الوسطية منسوب إلى: (الوسط)، قال ابن فارس[١]: « الوسط من كل شيء: أعدله، قال الله - جل ثناؤه -:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣]، وضربت وسط رأسه، بفتح السين، وجلست وسط القوم، بالسكون، وهذا أوسطهم حسبا، إذا كان في واسطة قومه وأرفعهم محلا »[٢].

١٠

وفي (لسان العرب): « وسط الشيء: ما بين طرفيه، قال:

إذا رحلت فاجعلوني وسطا إني كبير، لا أطيق العندا

أي: اجعلوني وسطا لكم، ترفقون بي، وتحفظونني، فإني أخاف إذا كنت وحدي متقدما لكم أو متأخرا عنكم أن تفرط دابتي أو ناقتي فتصرعني.

١٥

فإذا سكنت السين من (وسط)صار ظرفا؛..وحكي عن ثعلب[٣]: وسط الشيء، بالفتح، إذا كان مصمتا، فإذا كان أجزاء مخلخلة فهو: وسط، بالإسكان »[٤].

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، من أئمة اللغة والادب، أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها سنة (٣٩٥ هـ)، وإليها نسبته، من تصانيفه (مقاييس اللغة)، و(المجمل)، سير أعلام النبلاء، (١٧/ ١٠٣).

(٢) مجمل اللغة، ص (٩٢٤).

(٣) أحمد بن يحيى بن يزيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان راوية للشعر، محدثا، مشهورا بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة، مات في بغداد سنة (٢٩١هـ)، من كتبه (الفصيح) و (شرح ديوان الاعشى)، سير أعلام النبلاء، (١٤/ ٥).

(٤) لسان العرب، (٦/ ٤٨٣١).

وقال الجوهري [١]: «يقال: جلست وسط القوم،بالتسكين، لأنه ظرف، و: جلست وسط الدار، بالتحريك،لأنه اسم.

وكل موضع صلح فيه (بين)، فهو: وسط، وإن لم يصلح فيه (بين) فهو وسط، بالتحريك»[٢].

وقال الشيخ أبو محمد بن بري [٣] -رحمه الله -: «اعلم أن الوسط - بالتحريك - اسم لما بين طرفي الشيء وهو منه، كقولك: قبضت وسط الحبل، وكسرت وسط الرمح، وجلست وسط الدار، ومنه المثل: (يرتعي وسطا، ويربض حجرة)، أي: يرتعي أوسط المرعى وخياره، ما دام القوم في خير، فإذا أصابهم شر اعتزلهم، وربض حجرة، أي: ناحية منعزلا عنهم.

قال: واعلم أن الوسط قد يأتي صفة، وإن أصله أن يكون اسما، من جهة أن أوسط الشيء أفضله وخياره، كوسط المرعى، خير من طرفيه، وكوسط الدابة للركوب، خير من طرفيها، لتمكن الراكب.. فلما كان وسط الشيء أفضله وأعدله، جاز أن يقع صفة، وذلك في مثل قوله - تعالى وتقدس -: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: عدلا، فهذا تفسير الوسط، وحقيقة معناه، وأنه اسم لما بين طرفي الشيء وهو منه.

قال: وأما الوسط، بسكون السين، فهو ظرف، لا اسم، جاء على وزان نظيره في المعنى وهو: (بين)، تقول: جلست وسط القوم أي بينهم.. ولما كانت (بين) ظرفا،كانت (وسط) ظرفا، ولهذا جاءت ساكنة الأوسط لتكون على وزانها»[٤].

وفي الصحاح: «واسطة القلادة: الجوهر الذي هو في وسطها، وهو أجودها»[٥].

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر، لغوي، من الائمة، أشهر كتبه (الصحاح)، أصله من فاراب، ودخل العراق صغيرا، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية، وعاد إلى خراسان، ثم أقام في نيسابور، مات سنة (٣٩٣هـ)، سير أعلام النبلاء، (١٧/ ٨٠).

(٢) الصحاح (٣/ ١١٦٨).

(٣) عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي الاصل المصري، أبو محمد، أبن أبي الوحش: من علماء العربية النابهين، ولد ونشأ وتوفي بمصر سنة (٥٨٢ هـ)، وولي رياسة الديوان المصري، سير أعلام النبلاء، (٢١/ ١٣٦).

(٤) لسان العرب لابن منظور، (٦/ ٤٨٣١-٤٨٣٢) بتصرف.

(٥) الصحاح للجوهري (٣/ ١١٦٧).

وفي لسان العرب: «فأما قول الأعرابي للحسن[١]: علمني ديناً وسوطا، لا ذاهبا فروطا، ولا ساقطا سقوطا، فإن الوسوط ههنا المتوسط بين الغالي والتالي،ألا تراه قال: لا ذاهبا فروطا؟ أي: ليس ينال، وهو أحسن الأديان؛ ألا ترى إلى قول علي [٢] رضوان الله عليه: «خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي »[٣]،قال الحسن للأعرابي: «خير الأمور أوساطها »، قال ابن الأثير[٤]في هذا الحديث:« كل خصلة محمودة فلها طرفان مذمومان، فإن السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم، وتجنبه بالتعري منه والبعد منه، فكلما ازداد منه بعدا ازداد منه تقربا، وأبعد الجهات والمقادير والمعاني من كل طرفين وسطهما، وهو غاية البعد منهما، فإذا كان في الوسط فقد بعد عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان»[٥].

ووسط الشيء وأوسطه: أعدله، ورجل وسط ووسيط: حسن من ذلك.

ويقال أيضا: شيء وسط، أي: بين الجيد والرديء.

وقيل في صفة النبي ﷺ: إنه كان من أوسط قومه، أي: خيارهم، تصف الفاضل النسب بأنه من أوسط قومه، وهذا يعرف حقيقته أهل اللغة، لأن العرب تستعمل التمثيل كثيرا، فتمثل القبيلة بالوادي والقاع وما أشبهه، فخير الوادي وسطه، فيقال: هذا من وسط قومه، ومن وسط الوادي،

---

(١) الحسن بن أبي الحسن البصري، واسم أبيه يسار، الأنصاري مولاهم، ثقة فقيه فاضل مشهور، من خيار التابعين توفي سنة (١١٠) هـ سير أعلام النبلاء، (٤/ ٥٦٣).

(٢) أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين ابن عم النبي × وزوج ابنته فاطمة الزهراء: علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، أول من أسلم من الصبيان، كان فقيها شجاعا عابدا كريما، تولى الخلافة سنة (٣٤هـ)، قتل رحمه الله شهيدا سنة (٤٠هـ)، الإصابة لان حجر، (٤/ ٥٦٤).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، (١٢/ ٢٠٠).

(٤) مجد الدين أبو السعادات: المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري ثم الموصلي الشافعي، صنف (النهاية في غريب الحديث والأثر) و(جامع الأصول)، وغيرهما،توفي سنة (٦٠٦هـ)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٨٨).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، (٥/ ١٨٤)، والحديث لا يصح مرفوعا، وسيأتي ص (٤٣).

وسرر الوادي وسرارته وسره، ومعناه كله من خير مكان فيه،وكذلك النبي ﷺ من خير مكان في نسب العرب»[١].

ومن الأخطاء في الباب، قال أبو منصور الأزهري [٢] في تفسير واسط الرحل:«وإنما يعرف هذا من شاهد العرب ومارس شد الرحال على الإبل، فأما من يفسر كلام العرب على قياسات الأوهام فإن خطأه يكثر، وللرحل شرخان وهما طرفاه مثل قربوسي السرج، فالطرف الذي يلي ذنب البعير آخرة الرحل ومؤخرته، والطرف الذي يلي رأس البعير واسط الرحل، بلا هاء، ولم يسم واسطا لأنه وسط بين الآخرة والقادمة كما قال الليث [٣]، ولا قادمة للرحل بتة، إنما القادمة الواحدة من قوادم الريش، ولضرع الناقة قادمان وآخران، بغير هاء، وكلام العرب يدون في الصحف من حيث يصح، إما أن يؤخذ عن إمام ثقة عرف كلام العرب وشاهدهم، أو يقبل من مؤد ثقة يروي عن الثقات المقبولين، فأما عبارات من لا معرفة له ولا أمانة فإنه يفسد الكلام ويزيله عن صيغته»[٤].

وقد تأتي بمعنى (أثناء) دون أن يكون المراد مركزية المتوسط، كقولك: ذكر في وسط كلامه كذا وكذا، أي: في أثنائه.

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نستخلص الفوائد اللغوية المتعلقة بلفظ الوسط وهي كما يأتي:

١ – أن هناك خلافا في التفريق بين معنى (الوسَط) بتحريك السين، وبين (الوسْط) بسكون السين، إذ فرّق بينهما بعض أهل اللغة، وسوّى بينهما البعض، قال ابن الأثير:«وهو الأشبه»[٥]، وإن كان التفريق بينهما أوْجَه من حيث الشواهد ومن حيث اتفاق ذلك مع غزارة اللغة وثرائها.

٢ – أنّ كلاهما فيه معنى البينية، لكن (الوسْط) بتسكين السين هو الذي يمكن استبداله بلفظ: (بين)، فهو دائماً ظرف، أما (الوسَط) بالتحريك فإنه لا يمكن استبداله بلفظ: (بين) لما يأتي،

---

(١) لسان العرب، (٦/ ٤٨٣٣).
(٢) محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي الشافعي، متوفى سنة ٣٧٠هـ سير أعلام النبلاء، (١٦/ ٣١٥).
(٣) المقصود به الليث بن المظفر، صاحب الخليل بن أحمد، ترجمته في معجم الأدباء لياقوت، (٥/ ٢٢٥٣).
(٤) لسان العرب، (٦/ ٤٨٣٤).
(٥) النهاية في غريب الحديث، (٥/ ١٨٣).

قال الزبيدي [١]: «وقديما كنت أسمع شيوخنا يقولون في الفرق بينهما كلاما شاملاً، وهو:«الساكن متحرك، والمتحرك ساكن»[٢].

٣ – قال من فرّق بينهما: الوسَط – بالتحريك – اسمٌ لما بين طرفي الشيء، وهو منه، مثل: وسَط الرأس، و: وسط الحبل، أما الوسْط بالتسكين، فهو ظرف، بمعنى: (بين)، أي هو توسط شيء بين أشياء مختلفة في نوعها أو جنسها، كقولك: جلست وسْط الرجلين، أي: بينهما، ومشيت وسْط الجبلين.

٤ – وبناء عليه، فإن الوسَط – بالتحريك – هو المناسب لمعاني الأفضلية والثناء، لأنها كما تقدم اسم لما بين طرفي الشيء وهو منه، وكل ما كان كذلك فهو أحسنه وأعدله، ولهذا جاز أن تأتي وصفا، أي: وصف ثناء، كما تقول: هذا من أوسطنا نسبا، أي:أعدلنا.

٥ – وإذا استعمل الوسط للثناء، انتقل من كونه اسماً إلى كونه لفظ ثناء، أي وصفا، بمعنى: العدل الخيار من الشيء، وانفصل معنى الثناء عن معنى الاسم أو ضعف، كما أنك إذا قلت: رجل بحر، فإن البحر هنا أصبح وصفا للثناء، وانفصل عن معناه كاسم للماء الكثير، ولم يبق فيه إلا العلاقة البلاغية فقط.

وهذا يهمنا كثيرا،لأننا سنرى – فيما يأتي – أن من أسباب الغلط في الوسطية هو استصحاب أصل الدلالة للفظ الوسط.

ولهذا نبه بعض العلماء على أن الوسط أوالبينية ليس هو الأفضل دائما، بل يأتي أحيانا للذم، قال العلامة الآلوسي[٣]: «وليس هذا الإطلاق مطّرداً كما يظن من قولهم: « خير الأمور الوسط »،

---

(١) محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني الزبيدي، الملقب بمرتضى، لغوي نحوي محدّث مؤرخ مشارك في عدّة علوم، من اشهر كتبه: (تاج العروس في شرح القاموس)، توفي سنة (١٢٠٥هـ)، معجم المؤلفين لكحالة، (١١ / ٢٨٢).

(٢) تاج العروس مادة (وسط) (٥/ ٣٤٠).

(٣) محمود بن عبد الله الحسيني الالوسى، شهاب الدين، أبو الثناء، مفسر، أديب، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها، من كتبه (روح المعاني) في التفسير، مات سنة (١٢٧٠هـ)، الأعلام للزركلي (٧/ ١٧٦).

إذ يعارضه قولهم – على الذم –: « أثقلُ من مغنٍّ وسط »، لأنه كما قال الجاحظ[١]: يختم على القلب، ويأخذ بالأنفاس[٢]، وليس بجيد فيطرب، ولا برديء فيضحك، وقولهم: « أخو الدون الوسط ».

بل هو وصف مدح في مقامين: في النسب،لأن أوسط القبيلة أعرقها وصميمها، وفي الشهادة،كما هنا،لأنه العدالة التي هي كمال القوة العقلية والشهوية والغضبية، أعني استعمالها فيما ينبغي على ما ينبغي»[٣]، ويؤيده ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**لعن الله من جلس وسط الحلقة**»[٤]، وهو الذي يجلس في وسط الحلقة، ولو لم يكن في منتصفها تماما، وإنما من جلس في داخلها بعيدا عن أطرافها فهو في وسطها.

٦ – الوسط له دلالتان:

الأصل في دلالة الوسط هي التوسط بين شيئين، أو بين طرفي الشيء، وهذه دلالة وصفية للواقع بغض النظر عن كونه لذاته مثاليا أم لا.

ودلالة مثالية يشار بها إلى خيرية ما هو موصوف بالوسط وأفضليته.

والذي يحدد هذا وذاك: السياق اللغوي، والاستعمال العربي.

فقوله ﷺ: «**ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، ولا يعطي الهرمة ولا الدرنة، ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره**»[٥]، يريد به هنا حقيقة الوسط، فالله لم يسألنا خير مالنا، ولم يأمرنا بشره، ولكن بالوسط منه، أي: ما كان متوسطافي

---

(١) أبو عثمان: عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي صاحب التصانيف، قال الذهبي: كان ماجناً قليل الدّين، له نوادر، كان من بحور العلم وتصانيفه كثيرة جدا، توفي سنة (٢٥٠هـ)، السّير (١١ / ٥٢٦).

(٢) العبارة في البيان والتبيين (١/ ٨١) لكن في السياق اختلاف.

(٣) روح المعاني (٢ / ٦).

(٤) أخرجه أحمد (ح٢٢٧٥٢و٢٢٨٩٧و٢٢٨٦٧)، والترمذي في الأدب، (ح٢٧٥٣) وقال: «حديث حسن صحيح»،وأبو داود في الأدب، (ح٤٨٢٦)، وصححه الحاكم (٤/ ٢٨١)، ووافقه الذهبي، وخالفهما الشيخ الألباني رحمه الله حيث حكم بضعفه لانقطاع في سنده، انظر السلسلة الضعيفة، ح (٦٣٨).

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة (ح١٥٨٢)، وحسنه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (ح١٠٤٦).

حقيقته في صفات الجودة.

وأما قول أبي بكر[١]- رضي الله عنه - في حادثة السقيفة: «ولكنا الأمراء، وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب دارا، وأعربهم أحسابا»[٢]فمراده بالوسط هنا الخيرية، والذي دل على ذلك سياق الكلام، فإن العرب لم تكن ترضخ إلا لأفضل الناس نسبا وحسبا.

وما قاله الدكتور ناصر العمر من أن الوسط هنا فيه معنى البينية واستدل له بقوله: « إن التأمل والتمعن في هذه الوسطية يوصل الباحث إلى حقيقة مهمة، وهي أن قريشا امتازت بصفات أهلتها لأن تكون خير العرب، وهذه الصفات من الشجاعة والكرم وسائر الصفات الحميدة، هي في حقيقتها صفات وسطية بينية بين مجموعة من الصفات المتضادة، وهم اتصفوا بأفضل هذه الصفات، دون إفراط أو تفريط، أو غلو أو جفاء، ولذلك فقد نالوا هذه المن-زلة الرفيعة من كون العرب لا تدين إلا لهم، وما ذلك إلا لثقتهم في عدلهم وتميزهم عن غيرهم، واجتماع العرب عليهم دليل على قبولهم من قبائل وأطراف متنافرة في أخلاقها، متباينة في طباعها، وذلك لخصيصة الوسطية فيهم، »[٣]، فهذا الكلام للباحث معه وقفتان:

الأولى: أن نص الحديث أنهم أوسط العرب نسبا، والنسب علاقته بالآباء والأجداد من حيث المكانة الاجتماعية، بغض النظر عن الصفات والبطولات التي تندرج في الحسب.

الثانية: أن واقع قريشا لا يساعد على اعتماد كلامه - وفقه الله -، لأن قريشا لم تكن وسطية في صفاتها كلها، بل بعضها، فقد كان فيهم الإسراف مع الكرم، وكان فيهم العدوان مع الشجاعة، وكان فيهم إعانة الظالم مع صلة الرحم، وكان فيهم وأد البنات مع الشرف، وكانوا مع العقل

---

(١) الصدّيق: عبدالله بن عثمان بن عامر، قيل اسمه عبدالله وقيل عتيقا، التيمي، صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفته من بعده وأول الرجال إسلاما، مناقبه لا تعد، والتعريف به غض من قدره رضي الله عنه لولا التزامنا بمنهج البحث، مات في العام الثالث عشر من الهجرة، ومدة خلافته سنتان ونيف، انظر الإصابة لابن حجر (٤ / ١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (ح ٣٦٦٨).

(٣) الوسطية في القرآن الكريم ص (٣٣).

مضيعين له بالخمر، وكانوا مع برهم آباءهم يخلفونهم على زوجاتهم، وغير ذلك من ذميم الصفات التي تتنافى مع وصف الدكتور لهم بأخذهم بجميل الصفات التي هي وسط بين الإفراط والتفريط.

ومثله ما جاء عن البراء بن عازب [١] – رضي الله عنه – قال: «**كنا جلوسا عند النبي ﷺ، فقال: أي عرى الإسلام أوسط ؟ قالوا: الصلاة، قال: حسنة،وما هي بها، قالوا: الزكاة، قال: حسنة، وما هي بها، قالوا:صيام رمضان، قال:حسن، وما هو به، قالوا: الحج، قال: حسن، وما هو به، قالوا: الجهاد، قال: حسن، وما هو به، قال: إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله**» [٢].

فالعروة الوسطى هي أشد وأوثق العرى، أما العروة المتطرفة فكسرها أسهل، فاجتمع في وصفها بالوسط كونها أوثق، وأوكد.

وأما وصف الفردوس بأنه أعلى الجنة وأوسطها، فجاء عنه ﷺ أنه قال: «**إذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة** » [٣]، قال ابن حجر[٤]: «المراد بالأوسط هنا: الأعدل، والأفضل، كقوله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ فعلى هذا فعطف الأعلى عليه للتأكيد، وقال الطيبي[٥]: المراد بأحدهما العلو الحسي، وبالآخر العلو المعنوي، وقال ابن

---

(١) البراء بن عازب بن الحارث بن عدي الأوسي، الأنصاري، صحابي بن صحابي، كان هو وابن عمر لدة، مات سنة (٧٢هـ)، الإصابة (١/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه أحمد، (ح١٨٠٥٣)، والمنذري في الترغيب والترهيب، وقال الهيثمي: « رواه أحمد وفيه ليث بن أبي سليم وضعفه الأكثر » (١/ ٩٤)، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (ح٣٠٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، (ح٦٩٨٧).

(٤) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني خاتمة الحفاظ وشيخ الإسلام، من أغزر المصنفين وأجودهم وأكثرهم تحقيقا، أشهر مصنفاته فتح الباري شرح صحيح البخاري، توفي سنة (٨٥٢)، البدر الطالع للشوكاني (١/ ٨٧)، ومعجم المؤلفين (٢/ ٢٠).

(٥) الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي: من علماء الحديث والتفسير والبيان، آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، متواضعا، من كتبه (شرح مشكاة المصابيح) مات سنة (٧٤٣هـ)، الأعلام للزركلي.

حبان[١]: المراد بالأوسط السعة، وبالأعلى الفوقية»[٢].

وإنما خرج الفردوس هنا عن كونه وسطا من حيث العلو،لأن العلو هو جهة الرحمن -تبارك وتعالى -، فالقرب منه – عزوجل - هو الأفضل والأحسن.

ومما يؤكد انفصال البينية هنا عن الأفضلية، قوله ﷺ: «**أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»[٣]، فالجائزة الفضلى كانت أعلى الجنة وليس أوسطها، وذلك للسبب الذي ذكرته أعلاه.

ومن مواضع حسن التوسط الصفات الخلقية، ومنه كمالات النبي ﷺ الخلقية، ومع أن الخلقة ليس مما يحاسب العبد عليه فيذم أو يمدح، إلا أننا نأخذ من هذا عبرة بأن الله - تعالى - حين أراد أن يكمل نبيه ﷺ بأحسن الصفات كانت هي الوسط من كل شيء، فعن أنس بن مالك[٤]- رضي الله عنه - أنه قال: «**كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط، ولا بالسبط، بعثه الله على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء**»[٥].

---

(١) الإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي البستي، قال الحاكم: «كان من أوعية العلم»، من أشهر كتبه (الصحيح) و (المجروحين) و (الثقات)، توفي سنة (٣٥٤) هـ السير (١٦/ ٩٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٣).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، (ح٤٨٠٠) عن أبي أمامة - رضي الله عنه -، وله شاهد عن أنس- رضي الله عنه -، رواه الترمذي في البر والصلة (ح١٩٩٣) وقال: (حديث حسن)، وابن ماجة في المقدمة (ح٥١)، ورواه النسائي في الجهاد (ح٣١٣٣) بلفظ مختلف، وانظر كلام الشيخ ناصر الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (ح٢٧٣) وفي الضعيفة (ح١٠٥٦).

(٤) أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ×، خدمه عشر سنين، دعا له رسول الله × بالبركة، فكان كثير المال والولد، روى كثيرا من الأحاديث، توفي سنة (٩٣هـ)، وقد جاوز المئة، الإصابة (١/ ١٢٦).

(٥) أخرجه البخاري في المناقب (ح٣٣٥٥)، ومسلم في الفضائل، (ح٢٣٤٧).

*** الدلالة البلاغية للوسطية:**

ذكرنا سابقا أن الوسط اسم للبينية حسا ومعنى، وأن والوصف به هو مجرد وصف لا ينم عن مدح ولا ذم.

لكن في أوساط الأشياء ما أوجد بين لفظ الوسط وبين الثناء والمدح علاقة سوغت استعماله للثناء به.

فالوسط هو الأشد من الأشياء، وهو الأوثق، وهو الأصون والأبعد عن التناول، وأشد الطعام حرا أوسطه، وأقوى ما في العصا أوسطها، وأمكن مكان على الدابة أوسطها، وأكثر أجزاء الوادي جمعا للماء أوسطه.

هذه المعاني هي التي جعلت لفظ الوسط من ألفاظ المدح والثناء، خصوصا إذا إذا حركنا السين على ما قاله بعض أهل اللغة من التفريق بين ساكن السين ومحركها، إذ على قولهم يكون الوسط أصدق في الثناء وألزم للخيرية إذا وصف به، فيصبح عندها مرادفا للفظ: العدل والخيار، ويتلاشى منه ويقل معنى التوسط المجرد.

*** الدلالة النفسية للوسطية:**

منطقة الوسط منطقة جاذبة حسا ومعنى، ولهذا تجد الأشياء دائما تنجذب إلى المركز، وهو الوسط.

المنطقة الوسط هي أكثر المناطق جذبا حتى على المستوى الحسي، في الطائرة، على ظهر السفينة، في صفوف الصلاة، دائما تجد انجذابا لهذه المنطقة.

ويسري هذا الطبع حتى على الأمور النفسية المعنوية، فالنفس مرتبطة بالجسد، وتتفاعل معه، ويتفاعل معها، ولهذا فالذهن غالبا يطاوع النفس في قبول كل ما هو وسط، بغض النظر عن كونه الأصوب أم لا.

وهذا أحد أسباب الغلط الكثير في هذا الباب، أعني الوصول إلى الحقيقة الشرعية التي دل عليها الكتاب والسنة، إذ كثيرا ما يقع الباحثون تحت تأثير منطقة الجذب، أي المنطقة المتوسطة،

مع أنه لا يلزم من اعتقاد الباحث تحقيق التوسط أنه اصابه فعلا، خصوصا البحث في المسائل الشرعية، وسيأتي بيان أكثر أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى.

****

٥

الفصل الأوّل :
الوسطيّة في النّصوص الشّرعيّة وكلام أئمّة السّلف

٥

جاءت الوسطية والوصف بها في الكتاب والسنة على ضربين:

الأول: مجرد الوصف وحكاية الواقع، أي وصف شيء ما بأنه وسط، وهذا الضرب لا يراد به مدح ولا ثناء، ويأتي في وصف الحي وغير الحي، وهو الأكثر، وهذا في الحقيقة يعزز المعنى ١٠ اللغوي ويندرج فيه ولهذا ذكرناه في التمهيد.

الثاني: الثناء والمدح عليه، والوصاية والأمر به، وهذا الضرب نوعان:

- نوع يصرح بلفظ الوسط والبينية.

- ونوع لا يصرح بلفظه، وإنما يحكيه ويصفه.

وهذا الضرب هو الذي سنتكلم عنه في هذا البحث ونحاول إثراءه وتجلية حقائقه، وبالله ١٥ التوفيق:

أولا: النصوص التي جاءت بالتصريح بلفظ الوسط والثناء عليه وبه:

١ - قال الله - تعالى -: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣].

عن أبي سعيد الخدري[(١)]- رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء نوح وأمته، ٢٠ فيقول الله - تعالى -: هل بلغت ؟ فيقول: نعم، أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم ؟ فيقولون: لا، ما**

(١) سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري، له ولأبيه صحبة، شهد ما بعد غزوة أحد، وروى كثيرا من الأحاديث، مات سنة بضع وستين، الإصابة (٣/ ٧٨).

جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك ؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ والوسط: العدل»[١].

قال الحافظ ابن حجر: « قوله: «**والوسط:العدل**» هو مرفوع من نفس الخبر، وليس بمدرج من قول بعض الرواة»[٢].

قال الإمام الطبري [٣]: «الوسط في كلام العرب: الخيار، يقولون: فلان وسط في قومه وواسط، إذا أرادوا الرفع في حسبه.. والذي أرى أن معنى الوسط في الآية الجزء الذي بين الطرفين، والمعنى أنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلم يغلوا كغلو النصارى، ولم يقصروا كتقصير اليهود، ولكنهم أهل وسط واعتدال»[٤].

قال ابن حجر: «لا يلزم من كون الوسط في الآية صالحا لمعنى التوسط، أن لا يكون أريد به معناه الآخر، كما نص عليه الحديث، فلا مغايرة بين الحديث وبين ما دل عليه معنى الآية»[٥].

قال الباحث: أكثر المفسرين على أن المراد هنا بالوسط: الخيار العدول[٦]، ويدل على صواب هذا القول أمور:

منها: أن أجود وأفضل ما فسر به القرآن هو القرآن، وقد جاء في القرآن ما يبين معنى الوسطية

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، (ح٣٣٣٩)، وفي تفسير القرآن (ح٤٤٨٧)، وفي الاعتصام (ح٧٣٤٩).

(٢) فتح الباري (٨ / ١٧٢).

(٣) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، الإمام العلم المجتهد، عالم العصر أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، طلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علما وذكاء وكثرة تصانيف، مات سنة (٣١٠هـ)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧).

(٤) جامع البيان (٢/ ٨-٩).

(٥) فتح الباري (٨/ ١٧٢-١٧٣).

(٦) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٤).

هنا، قال العلامة الشنقيطي[١]: «ويدل لأن الوسط: الخيار العدول، قوله – تعالى –: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾» [٢]. ويعزز هذا ويقويه تفسير النّبيّ ﷺ للوسط بأنه: العدل، فوجب الرجوع إليه،كما قال الشوكاني[٣]– رحمه الله –[٤].

ومنها: أن تفسير الوسط هنا بالجزء بين الطرفين لا علاقة له بكون الأمة شهيدة على الأمم في الدنيا والآخرة، فمجرد كونها وسطا بين الغلو والإجحاف، لا يصلح لوحده علة لمنصب الشهادة، أما الشهادة فلا يصلح لها إلا من كان عدلا خيارا في نفسه.

ومنها: أن لفظ(الوسط) – كما مر – إذا أصبح صفة ضعف فيه معنى الأصل، كقولك: فلان أسد في الحروب، فلفظ (الأسد) وإن كان في أصله للحيوان المفترس، إلا أنك حين وصفت به شخصا ضعف فيه هذا المعنى، وأصبحت حقيقته في هذا السياق: الشجاعة والإقدام.

وكذلك لفظ الوسط، مع أن أصل دلالته في اللغة هو الجزء بين اثنين، إلا أن مجيئه وصفا أضعف هذا المعنى فيه، وقوى المعنى المستعار له، وهو: الخيرية والفضل.

وما قاله ابن جرير ووجهه ابن حجر لا يترجح في معنى الآية، وإن كان صحيحا في نفسه، والله – تعالى – أعلم.

٢ – ومثل هذا قوله – تعالى –: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨]، قال الطبري: «قوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني: أعدلهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، قال ابن

---

(١) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الشنقيطي، العلامة الحافظ المحدث المفسر الأصولي الفقيه اللغوي، من أشهر كتبه (اضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن)، توفي سنة (١٣٩٣هـ)، انظر: (علماء ومفكرون عرفتهم) للمجذوب، (١/ ١٧١).

(٢) أضواء البيان، (١/ ١٠٣-١٠٤).

(٣) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. نشأ بصنعاء، وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ ومات حاكما بها، وكان يرى تحريم التقليد، له ١١٤ مؤلفا، من أشهرها (نيل الاوطار من أسرار منتقى الاخبار)، توفي سنة(١٢٥٠هـ)، الأعلام للزركلي (٦/ ٢٩٨).

(٤) فتح القدير، (١/ ٢٨٥-٢٨٦).

عباس[١]: أوسطهم: أعدلهم، وبمثل ذلك قال مجاهد [٢]، وسعيد[٣]، والضحاك[٤]،وقال قتادة[٥]: أي أعدلهم قولا، وكان أسرع القوم فزعا، وأحسنهم رجعة»[٦].

وقال القرطبي[٧]: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم»[٨].

٣. قال الله – تعالى –: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩]»

جاء في تفسير المراد بالوسط في هذه الآية قولان:

---

(١) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، ابن عم النبي ﷺ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ودعا له النبي × بالفهم في القرآن فكان يسمى البحر والحبر لسعة علمه، أحد المكثرين من رواية الحديث، مات سنة (٦٨هـ) بالطائف، الإصابة (٤ / ١٤١).

(٢) مجاهد بن جبر – بفتح الجيم وسكون الموحدة – أبو الحجاج المخزومي مولاهم، المكي، ثقة إمام في التفسير وفي العلم، مات سنة (١٠١هـ) وقيل غير ذلك، وله ثلاث وثمانون، سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٩).

(٣) سعيد بن جبير الأسدي مولاهم الكوفي، ثقة ثبت فقيه، قتله الحجاج سنة (٩٥هـ)، سير أعلام النبلاء، (٤/ ٣٢١).

(٤) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم الخراساني، المفسر، قال الذهبي: كان من أوعية العلم ولم يكن مجودا للحديث، توفي بعد المئة، سير أعلام النبلاء، (٤/ ٥٩٨).

(٥) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري ثقة ثبت يقال ولد أكمه، مات سنة بضع عشرة ومئة، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩).

(٦) تفسير الطبري (٢٩/ ٣٤).

(٧) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، إمام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله من أشهرها: (الجامع لأحكام القرآن) و (التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة) وغيرهما، توفي سنة (٦٧١) هـ، الأعلام للزركلي (٥/ ٣٢٢).

(٨) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤٤).

أحدهما: أن المراد بالوسط هنا: الأفضل والأعدل، والآخر: أن المراد به حال الوسط، أي منزلة بين المنزلتين ونصفا بين طرفين.

قال العلامة ابن كثير[١] – رحمه الله –: « قال ابن عباس وسعيد بن جبيروعكرمة [٢]: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم، وقال عطاء الخراساني [٣]: من أمثل ما تطعمون أهليكم، قال ابن أبي حاتم[٤]:..عن ابن عباس: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: من عسرهم ويسرهم، و عن ابن عمر في قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: الخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم.. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: في القلة والكثرة»[٥].

وعلى كلا القولين فإن المأمور به حال وسطي محمود، أما على القول الأول فلأن الأعدل بمعنى الأفضل، وأما على القول الثاني فلأن المتوسط من الطعام هو أفضل ما يحقق الحكمة الشرعية فهو لا يكلف الحانث أفضل الطعام فيرهقه، ولا يهضم حق الفقير بإطعامه أدنى الطعام.

وقد يقال إنه ليس بين القولين منافاة، فإن الأوسط هنا هو حال الوسط في القلة والكثرة والنوع من الطعام، وفي هذه الحال – أيضا – فالحانث مأمور أن يطعمهم أفضل وأعدل الطعام مما اختاره للكفارة، والله – تعالى – أعلم بالصواب.

٤ – عن سالم[٦]بن عبدالله بن عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما –:عن أبيه قال: «كتب

---

(١) الإمام المفسر الفقيه المجتهد المحدّث المؤرخ عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي الشافعي، صاحب التفسير المشهور، وكتاب (البداية والنهاية)، برع في التفسير والفقه والنحو وأمعن النظر في العلل والرجال، وكان من الحفاظ ـ رحمه الله ـ توفي سنة (٧٧٤) هـ، شذرات الذهب (٦ / ٢٣٢).

(٢) العلامة المفسر أبو عبدالله مولى ابن عباس، ثقة ثبت، توفي سنة (١٠٤ هـ)، سير أعلام النبلاء، (٥/ ١٢).

(٣) المحدّث الواعظ: عطاء بن أبي مسلم الخراساني، أبو عثمان، واسم أبيه ميسرة، صدوق، مات سنة (١٣٥ هـ)، سير أعلام النبلاء، (٦/ ١٤٠).

(٤) العلامة الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم صاحب التفسير الكبير وكتاب الجرح والتعديل قيل عنه: كان بحرا لا تكدّره الدّلاء، توفي – رحمه الله – سنة (٣٢٧هـ) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٦٣) .

(٥) تفسير القرآن العظيم، (٣/ ١٧٣)، وانظر – أيضا – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ١٧٩).

(٦) سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي، أبو عبدالله، المدني، أحد الفقهاء السبعة، كان ثبتا عابدا

رسول الله ﷺ كتاب الصدقة، فلم يخرجه إلى عماله حتى قبض، فقرنه بسيفه، فعمل به أبو بكر حتى قبض، ثم عمل به عمر حتى قبض، فكان فيه:.. **ولا يفرق بين مجتمع، ولا يجمع بين متفرق مخافة الصدقة، وما كان من خليطين**[(١)] **فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية، ولا يؤخذ في الصدقة هرمة، ولا ذات عيب**، قال: و قال الزهري[(٢)]: إذا جاء المصدق قسمت الشاء أثلاثا، ثلثا شرارا، وثلثا خيارا، وثلثا وسطا، فأخذ المصدق من الوسط»[(٣)].

جاء لفظ الوسط هنا بمعنى التوسط بين الأفضل وبين السيئ، فخرجت عن أصل الثناء والمدح إلى التوسط الحقيقي الوصفي.

وقد يقال: بل هي أفضل شيء في هذه الحال، لأنها تحقق الغرض الشرعي مع الغرض الدنيوي، فالهزيلة تحقق غرض الغني ولا تحقق غرض الفقير، والفاضلة تحقق غرض الفقير وتضر بمصلحة رب المال، فكانت الوسطى منها هي خير ما يؤدى بها هذه الشعيرة.

ومن هنا نراها وإن جاءت بمعنى التوسط بين حالين فإنها حققت الوسطية الشرعية فعلا، وبهذا يصح كونها الأفضل والأعدل كذلك.

ثانيا: النصوص التي جاءت بالثناء على حال التوسط والأمر به دون ذكر لفظ (الوسط):

١- قال الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠].

قال ابن عباس: «نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا

فاضلا يشبه بأبيه في الهدي والسمت، توفي سنة (١٠٦ هـ)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٧).

(١) أي: شريكين.

(٢) محمد بن مسلم بن شهاب أبو بكر القرشي الزهري المدني، الإمام العلم، أول من دون العلم وكتبه، واسع الرواية، كثير الفقه، حافظ لا يبارى، كان يقول: والله ما نشر أحد العلم نشري ولا صبر عليه صبري، توفي سنة (١٢٤) هـ على الأرجح، السير (٥/ ٣٢٦).

(٣) أخرجه أبوداود في الزكاة، (ح ١٥٦٨)، والترمذي في الزكاة، (ح٦٢١) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجة في الزكاة (ح١٧٩٨)، وانظر صحيح أبي داود للشيخ الألباني رحمه الله (٥/ ٢٨٥) والإرواء (ح٧٩٢).

تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال: فقال الله – تعالى – لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ »[١].

٥ وروى ابن جرير عن محمد بن سيرين[٢]قال: «نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر[٣]كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا ؟ قال: أناجي ربي – عز وجل، وقد علم حاجتي، فقيل: أحسنت، وقيل لعمر: لم تصنع هذا ؟ قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئا، وقيل لعمر: اخفض شيئا»[٤].

١٠ وفي الآية أقوال أخرى، وبغض النظر عن الصواب في سبب نزول الاية، ففيها أمر واضح بسلوك السبيل الوسط في القراءة، من حيث رفع الصوت وخفضه، وهذا أحد المواضع التي نبه الشارع الحكيم فيها إلى فضيلة التوسط في الأمور، حيث يتحقق به هنا مصالح الرفع والخض، وتندفع به مفاسد الرفع والخفض – كذلك –، وهو أمر واضح من خلال الروايات التي جاءت في تفسير الآية.

١٥ والحديث الذي رواه ابن جرير جاء بلفظ أصرح في سنن أبي داود عن أبي قتادة [٥] – رضي الله عنه –: أن النبي ﷺ خرج ليلة، فإذا هو بأبي بكر – رضي الله عنه – يصلي يخفض من صوته، قال: ومر بعمر بن الخطاب وهو يصلي رافعا صوته، قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ، قال النبي

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في التفسير (ح٤٧٢٢)، ومسلم في الصلاة (ح٤٤٦).

(٢) محمد بن سيرين الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري، عابد ثقة كبير القدر، من خيار التابعين، توفي سنة (١١٠هـ)، سير أعلام النبلاء، (٤/ ٦٠٦).

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي، الفاروق، أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين، فضائله وشمائله لا تعد، توفي شهيدا في محرابه سنة (٢٣هـ)، وكانت مدة خلافته عشر سنين، الإصابة (٤/ ٥٨٨).

(٤) تفسير ابن جرير، (٨/ ١٦٩).

(٥) أبو قتادة الأنصاري، الحارث بن ربعي، وقيل: اسمه عمرو وقيل النعمان، السلمي المدني، صحابي مشهور، شهد أحدا وما بعدها، ومات سنة (٥٤هـ) على الأشهر، الإصابة (٧/ ٣٢٧).

ﷺ: يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلي تخفض صوتك، قال: قد أسمعت من ناجيت يا رسول الله، قال: وقال لعمر: مررت بك وأنت تصلي رافعا صوتك، قال: فقال: يا رسول الله أوقظ الوسنان، وأطرد الشيطان »، زاد الحسن في حديثه: فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئا، وقال لعمر: اخفض من صوتك شيئا»(١).

٢ - قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[الإسراء:٢٩].

وهذا - أيضا - أمر من الله - تعالى - لنبيه ﷺ ولأمته من بعده في قضية الإنفاق والبذل، بسلوك السبيل الوسط الذي يحقق غاية المؤمن بالفوز في الآخرة، بالإنفاق في وجوه الخير، ويحقق - أيضا - مصلحة النفس، والأهل، بالإبقاء على ما يقيم أودهم.

قال العلامة ابن كثير: « يقول - تعالى - آمرا بالاقتصاد في العيش، ذاما للبخل، ناهيا عن السرف: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تكن بخيلا منوعا، لا تعطي أحدا شيئا.. وقوله:﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوما محسورا، وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت ملوما يلومك الناس، ويذمونك، ويستغنون عنك.

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا، فإنها تسمى الحسير»(٢).

ويعزز هذا المعنى، قصة سعد بن أبي وقاص(٣)- رضي الله عنه - أن النبي ﷺ دخل عليه يعوده وهو مريض بمكة، قال: قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله ؟ قال: لا، قلت: فبالشطر ؟

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (ح١٣٢٩)، والترمذي في الصلاة (ح٤٤٧)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (ح١٢٠٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٥/ ٧٠).

(٣) سعد بن أبي وقاص مالك بن وهيب الزهري، أبو إسحاق، أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم وفاة، مناقبه كثيرة، توفي بالعقيق سنة (٥٥هـ)، الإصابة (٣/ ٨٨).

قال:لا، قلت: فبالثلث، قال: **الثلث، والثلث كبير، أو كثير، إنك أن تدع وارثك غنيا، خير من أن تدعه فقيرا يتكفف الناس، وإنك مهما أنفقت على أهلك من نفقة فإنك تؤجر فيها، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك**»[١].

وعن جابر بن عبد الله[٢]- رضي الله عنهما - قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ،إذ جاء رجل بمثل البيضة من ذهب، أصابها في بعض المغازي، فقال: يا رسول الله، خذها مني صدقة، فوالله ما لي مال غيرها، فأعرض عنه، ثم جاءه عن ركنه الأيسر، فقال مثل ذلك، ثم جاءه من بين يديه فقال مثل ذلك، ثم قال: **هاتها - مغضبا-، فحذفه بها حذفة لو أصابه لأوجعه، أو عقره،ثم قال: يعمد أحدكم إلى ماله لا يملك غيره فيتصدق به، ثم يقعد يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى، خذ الذي لك، لا حاجة لنا به، فأخذ الرجل ماله**»[٣].

وقد قال ﷺ: « **ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا**»[٤]،فالقصد هو الاعتدال وهو عين ما أمر به في الآية.

وهذه الحال هي الأصل، وقد جاء في السنة حالات استثنائية، كما حدث من أبي بكر - رضي الله عنه - حين تصدق بكل ماله، فعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه – قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوما أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال لي رسول الله ﷺ: **ما أبقيت لأهلك** ؟ فقلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر - رضي الله عنه - بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: **ما أبقيت لأهلك** ؟قال: أبقيت لهم الله

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الوصايا (ح٢٧٤٢)، ومسلم في الوصية (ح١٦٢٨).

(٢) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي، صحابي بن صحابي، غزا تسع عشرة غزوة، ومات بالمدينة بعد السبعين وهو ابن أربع وتسعين سنة، الإصابة (١/ ٤٣٤).

(٣) أخرجه أبوداود في الزكاة (ح١٦٧٣) وسكت عنه، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (ح٣٣٧٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤١٣) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٤١٥)، وأشار إلى ضعفه الشيخ الألباني في الإرواء (٣/ ٤١٦)، وسبب الاختلاف فيه أنه من رواية محمد بن إسحاق وهو مختلف فيه، كما أنه عنعنه، وهو مدلس، والمدلس إذا عنعن لم يقبل منه كما قال النووي في كلامه عن الحديث في المجموع: (٦/ ٢٣٦).

(٤) حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٨٠٢).

ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا»[١].

وقد اشترط له العلماء شروطا كما قال الإمام الطبري وغيره: «من تصدق بماله كله في صحة بدنه وعقله، حيث لا دين عليه، وكان صبورا على الإضاقة، ولا عيال له، أو له عيال يصبرون فهو جائز، فإن فقد شيء من هذه الشروط كره»[٢].

٣ - عن أنس بن مالك- رضي الله عنه -، أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال:كيف تجدك ؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف**»[٣].

الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والشوق والمحبة، والذكر والغفلة ونحو ذلك من أعمال القلوب، كلها أدوية تحتاج إلى طبيب يحسن وصف الداء للعلة الحادثة.

فبعض الناس يعتقد أن الإيمان والسلامة تكون في جانب الخوف، حتى يقطعه الخوف عن كثير من المباحات، بل وقد يخرجه إلى السقم والوسوسة، وقد يصل به إلى القنوط، فهذا الخوف في الحقيقة مرض وليس بعافية، فإذا كان المرء فقيها في نفسه عرف أن الخوف بهذه الطريقة قد يودي به إلى عاقبة سوء، فعالج نفسه بشيء من الرجاء والتسلية والتوسع في المباحات حتى يعادل ميزان السلوك في نفسه.

وإن العبد العاقل يعرف الأحوال والمواطن التي يصلح لها كل عمل من هذه الأعمال، ففي ساعات الغفلة يحتاج إلى الذكر، وفي ساعات الرجاء يحتاج إلى الخوف، وفي ساعات الخوف يحتاج إلى الرجاء، ولا يجعل أيامه كلها على وتيرة واحدة لأن النفس لا تسير عليها دائما.

---

(١) أخرجه أبوداود في الزكاة (ح١٦٧٨)، والترمذي في الزكاة (ح٣٦٧٦)، وحسنة الألباني – رحمه الله – كما في صحيح أبي داود (ح١٤٧٣).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٩٥).

(٣) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٨٣).

وقد قال ﷺ: «**لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»(١).

قال الإمام أحمد – رحمه الله –: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحدا»(٢).

وقد يحسن في بعض المواطن تغليب أحد الجانبين، كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما– قوله: «إذا رأيتم الرجل بالموت فبشروه ليلقى ربه وهو حسن الظن به، وإذا كان حيا فخوفوه بربه – عز وجل –»(٣).

قال الكرماني(٤): «إن المكلف ينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء، حتى لايكون مفرطا في الرجاء ولافي الخوف، بل يكون وسطا بينهما كما قال – تعالى –: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء:٥٧]»(٥).

والخوف هو: هرب القلب واضطرابه من حلول المكروه عند استشعاره (٦). والمراد بالخوف هنا هو الخوف المحمود وهو ماحال بين صاحبه وبين محارم الله فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط(٧).

وأما الرجاء فهو الطمع في رحمة الله – تعالى – مع الاجتهاد في العمل، كما قال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨]،وهو خلاف التمني، إذ التمني: الطمع في رحمة الله مع الكسل والتواني وهو مذموم، ولذلك فقد أجمع العلماء أن الرجاء لايصح إلا مع العمل (٨).

---

(١) أخرجه مسلم في صفة الجنة ونعيمها، (ح٢٨٧٧) .
(٢) مسائل ابن هانئ، (٢ / ١٧٨) .
(٣) شرح السنة للبغوي، (٥ / ٢٧٥) .
(٤) محمد بن يوسف بن على بن سعيد، شمس الدين الكرماني: عالم بالحديث، أصله من كرمان، اشتهر في بغداد، قال ابن حجي: تصدى لنشر العلم ببغداد ثلاثين سنة. وأقام مدة بمكة، وفيها فرغ من تأليف كتابه (الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري) الأعلام للزركلي (٧/ ١٥٣).
(٥) فتح الباري، (١١ / ٣٠٢) بتصرف .
(٦) انظر تعريفات العلماء للخوف في مدارج السالكين لابن القيم، (١ / ٥٤٩) .
(٧) مدارج السالكين، (١ / ٥٥١).
(٨) مدارج السالكين، (٢ / ٣٧) .

والرجاء ثلاثة أنواع، فنوعان محمودان ونوع مذموم، فأما المحمودان: فرجل عمل بطاعة الله يرجو ثواب الله، ورجل أذنب ذنوبا فتاب منها واستغفر فهو يرجو مغفرة الله، وأما المذموم، فرجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب(١).

قال العلامة ابن القيم: «القلب في سيره إلى الله – عز وجل – بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران»(٢).

والوسط خير، فالواجب على الكيس أن يكون عنده تنوع في ثقافته، فإذا رأى من نفسه غفلة، سمع القرآن بكثرة وذكر نفسه بمواعظ الموت والزهد والنار.

وإذا رأى من نفسه قنوطا أو خوفا ينفر النفس روح عنها بالتنزه، وبسماع القصائد الجميلة والقصص ونحو ذلك مما تميل إليه النفس.

وهكذا تمضي حياة المؤمن لا على وتيرة واحدة، فالغفلة مكروهة والإفراط في الحزن وتكلفه منهي عنه كما ذكر ذلك شيخ الإسلام وغيره.

ومما يعزز معنى هذا الحديث قوله ﷺ: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع في الجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من الجنة**»(٣).

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: « قال الكرماني: والمقصود من الحديث أن المكلف ينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء حتى لا يكون مفرطا في الرجاء، بحيث يصير من المرجئة(٤)القائلين لا يضر مع الإيمان شيء، ولا في الخوف، بحيث لا يكون من الخوارج والمعتزلة

---

(١) مدارج السالكين، (٢ / ٣٧).

(٢) مدارج السالكين، (١ / ٥٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (ح٦٤٦٩)، ومسلم في التوبة (ح٢٧٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الإرجاء في اللغة التأخير، وقد أطلق على أكثر من معنى، من ذلك إطلاقه على من أعطى الرجاء لمرتكب الكبيرة أي رجا له العفو، وكذلك على من أخر العمل عن التصديق والقول في الإيمان، والمرجئة أصناف، يجمعهم إخراج العمل من حقيقة الإيمان الشرعي، والمشهور منهم: مرجئة الفقهاء الذين يقولون: الإيمان قول وتصديق،

القائلين بتخليد صاحب الكبيرة إذا مات عن غير توبة في النار.

بل يكون وسطا بينهما كما قال الله – تعالى –: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ ومن تتبع دين الإسلام وجد قواعده – أصولا وفروعا – كلها في جانب الوسط»[(١)].

٤ – عن حنظلة الكاتب التميمي الأسيدي [(٢)] قال:كنا عند رسول الله ﷺ، فذكرنا الجنة والنار، حتى كأنا رأي العين، فقمت إلى أهلي وولدي، فضحكت ولعبت، قال: فذكرت الذي كنا فيه، فخرجت فلقيت أبا بكر، فقلت: نافقت نافقت، فقال أبوبكر: إنا لنفعله، فذهب حنظلة فذكره للنبي ﷺ، فقال: **يا حنظلة، لو كنتم كما تكونون عندي، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، أو على طرقكم، يا حنظلة ساعة، وساعة**»[(٣)].

في هذا النص توجيه كريم لحقيقة ما يجب أن يكون عليه العبد المؤمن، فإن الإنسان روح وجسد، فللروح حاجتها وغذاؤها الروحي، وللجسد حاجته وغذاؤه الحسي.

والمعلوم أن الاستغراق في حاجة الروح – وإن كان له لذة يعرفها المؤمنون والصالحون – إلا أنه يضعف الرغبة في أداء حاجة الجسد، مما قد يؤثر عليه.

وكذلك الاستغراق في حاجة الجسد – وإن كان له إيجابياته ولذته – إلا أنها تؤثر على الروح وتضعف قيامها بواجبها.

والتدين في حقيقته الشرعية يأخذ الجانبين مأخذ الجد والاهتمام، ولهذا لما وجد حنظلة وأبوبكر أن حالتهم الروحية تتغير بعد خروجهم من عنده ﷺ ظنوا في ذلك نقصا ونفاقا، فأخبرهم النبي ﷺ أن هذه الحالة الإيمانية محبوبة مرغوبة، حتى إنها لو استمرت لكانت الملائكة مخالطة لهم مصافحة إياهم، لكن نقصها لصالح القيام بحاجات الجسد ليس نفاقا، بل هو أمر

ومرجئة المتكلمين الذين يقولون: الإيمان هو التصديق فقط، والكرامية الذين يقولون: الإيمان قول، والجهمية الذين يقصرون الإيمان في المعرفة، انظر مقالات الإسلاميين (١ / ٢١٣)، والملل والنحل ص (١٣٧).

(١) فتح الباري، (١١/ ٣٠٢).

(٢) حنظلة بن الربيع بن صيفي، ابو ربعي، وهو ابن أخي أكثم بن صيفي، وكان من كتاب النبي ﷺ مات في خلافة معاوية، الإصابة، (٢ / ١٣٤-١٣٥).

(٣) أخرجه مسلم في التوبة، (ح٢٧٥٠) بلفظ مقارب.

سائغ.

وفي رأيي أن في الحديث إشارة أخرى تعزز هذا المعنى، وهي أنه ﷺ يشير إلى أنهم ليسوا ملائكة وإنما هم بشر، لهم روح وجسد، وليسوا كالملائكة في خلقتهم.

فقوله:«**ساعة وساعة**» لا تعني ما يفهمه البعض من أنه ساعة للتدين والعبادة، وساعة للترفيه والنسيان، فهذا خطأ، لأن العبادة في حقيقتها لا تتنافى مع الترفيه، ولا مع القيام بحاجات الزوجة والعيال، بل العبد في عبادة حتى في خارج سياق العبادات المحضة، حتى في جماعه، وأكله، وشربه، ونومه، هو في عبادة، كما قال ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»(١).

ولهذا كان الفهم السليم للحديث: ساعة في حاجة الروح، وساعة في حاجة الجسد، وكلاهما لا يخرجان العبد من حالة العبودية التي هي أصل الغاية من خلقه، غير أن العبد وهو في ساعة العبادة الروحية المحضة يكون أقرب إلى الله وأكثر إيمانا وصفاء لأنه لا يتصل بشيء من ماديات الحياة.

والوسطية تظهر هنا في عدم الاستغراق في حالة واحدة من جانبي الإنسان: الروح والجسد، الآخرة والدنيا، ولعله يأتي مزيد بيان في فصل لاحق إن شاء الله.

٥ - عن جابر بن سمرة(٢)- رضي الله عنه - قال:«كان رسول الله ﷺ يصلي بنا الصلاة المكتوبة،ولا يطيل فيها، ولا يخف، وسطا من ذلك، وكان يؤخر العتمة»(٣).

وهذا الفعل - أيضا - يمثل الأنموذج الصحيح في صفة الصلاة.

وهذا يختص بالصلاة بجماعة المسلمين، فقد جاء الأمر من النبي ﷺ للأئمة أن لا يطيلوا بالناس فيثقلوا عليهم، وجاء الأمر - أيضا - للمصلين جميعا أن يتموا الركوع والسجود،

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، (ح١٠٠٦) عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) جابر بن سمرة بن جنادة السوائي، صحابي بن صحابي، مات بعد سنة سبعين للهجرة، الإصابة، (١/ ٤٣١).

(٣) مسند أحمد (ح٢٠٣١٥).

وبالجمع بين الأمرين يتجلى لنا أن النبي ﷺ حققهما في صلاته، فليست طويلة تمل المصلين خلفه أو تثقل عليهم وتقطعهم عن حاجاتهم وما لابد لهم منه، وليست قصيرة تختصر شيئا من واجبات الصلاة، بل هي في حال الوسط من ذلك.

فهي تحقق الغرض الشرعي من الصلاة، دون أن تؤدي إلى الإضرار بالناس.

وعن أنس بن مالك – – رضي الله عنه – قال: «كانت صلاة رسول الله ﷺ متقاربة، وصلاة أبي بكر وسط، وبسط عمر في قراءة صلاة الغداة»[١].

وهذا كما قلنا في شأن الصلاة بالجماعة، أما إذا صلى الشخص وحده فللوسط في حقه تباين، فقد يكون حال الوسط التخفيف، وقد يكون التطويل، ولكن لا يجوز للمرء أن يقوم الليل كله، بل يصلي ما كتب له، حتى لا يلحق بنفسه، أو بزوجه أو بغيره ضررا، كما جاء في حديث عبدالله بن عمرو[٢]– رضي الله عنهما–، عن النبي ﷺ قال: «**صم من الشهر ثلاثة أيام، قال: أطيق أكثر من ذلك، فما زال حتى قال: صم يوما، وأفطر يوما، فقال: اقرأ القرآن في كل شهر، قال: إني أطيق أكثر، فما زال حتى قال: في ثلاث**»[٣].

وكما جاء في حديث عائشة [٤]– رضي الله عنها وعن أبيها –: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: من هذه ؟ قالت: «فلانة تذكر من صلاتها، **قال: مه ! عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه**»[٥].

وكما جاء عن أبي جحيفة [٦] قال: آخى رسول الله ﷺ بين سلمان[١]وبين أبي الدرداء[٢]، فزار

---

(١) مسند أحمد (ح١٣٠٥٤)، والغداة هي صلاة الصبح.

(٢) عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي، أبو محمد، أحد السابقين وأحد العبادلة الفقهاء، مات بالطائف على ما صححه الحافظ سنة (٦٥هـ)، الإصابة (٤/ ١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري، (ح١٩٧٨).

(٤) أم المؤمنين، الصدّيقة بنت الصدّيق، عائشة بنت أبي بكر، أم عبدالله، زوج النبي × وأحب الناس إليه، تزوجها وهي بنت سبع وبنى بها وهي بنت تسع سنين بالمدينة، كانت عالمة فاضلة فقيهة راوية للشعر ولأيام العرب، مناقبها كثيرة، توفيت سنة (٥٧هـ)، الإصابة (٨/ ١٦).

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان، (ح٤٣)، ومسلم في صلاة المسافرين، (ح٧٥٨).

(٦) وهب بن عبدالله السوائي، مشهور بكنيته، صحابي معروف، صحب عليا، مات سنة (٧٤هـ) وقيل

سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال: ما شأنك متبذلة ؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، قال فلما جاء أبو الدرداء قرب إليه طعاما، فقال:كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، فقال له سلمان: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نم، فنام، فلما كان عند الصبح، قال له سلمان: قم الآن، فقاما فصليا، فقال: إن لنفسك عليك حقا، ولربك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتيا النبي ﷺ، فذكرا ذلك فقال له: **صدق سلمان**»[٣].

٦ – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**»[٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا**»[٥].

وقال كذلك: « **لا تشددوا على أنفسكم، فإنما هلك من قبلكم بتشديدهم على أنفسهم، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات**» [٦].

في هذه النصوص أمر عام بحال الوسط، فالنبي ﷺ وهو الذي جاء بالرسالة وأمر الناس بما

(٦٤هـ)، الإصابة، (٦/ ٦٢٦).

(١) سلمان الفارسي، أبو عبدالله، ويقال: سلمان الخير، أصله من أصبهان، سابق الفرس، أول مشاهده الخندق، وكان عالما زاهدا فقيها، مات سنة (٣٤هـ)، الإصابة (٣/ ١٤١).

(٢) عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، مختلف في اسم أبيه، مشهور بكنيته، صحابي جليل، كان من العباد، مات في أواخر خلافة عثمان، الإصابة (٤/ ٧٤٧).

(٣) أخرجه البخاري في الصوم، (ح١٩٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (ح٣٢٣٨)، وابن ماجة في المناسك (ح٣٠٢٩)، والنسائي في المناسك (ح٣٠٥٧)، وصححه الألباني رحمه الله كما في السلسلة الصحيحة (ح١٢٨٣).

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان (ح٣٩).

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (ح٥٥٥١)، وفي الأوسط (ح ٣٠٧٨)، وقواه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة في بحث قيم، (ح ٣١٢٤).

أمرهم الله تعالى ونهاهم عما نهاهم عنه، هو نفسه يأمر هنا بترك الغلو وعدم التشديد على النفس أو على الآخرين في الدين.

وليس المقصود هنا التساهل في الأمر والنهي، وترك الاحتساب على الناس تحت ذريعة عدم التشدد في الدين، فهذا خطأ، بل هو مخالف لأصل الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٦٤].

والغلو في حقيقته هو الزيادة والمبالغة فيما أصله مشروع، فالصلاة مأمور بها، لكن المبالغة بالصلاة في كل الليل والنهار مثلا يعتبر من الغلو، والصوم مأمور به، لكن صوم الدهر من الغلو، والعفة مأمور بها لكن ترك النكاح لأجلها من الغلو، وهكذا.

فالمراد إذن أن لا يحمل العبد على نفسه أوعلى غيره ما لم يحمله الله، رغبة في الازدياد في الدين، لأن هذا غالبا لا يكون مما تحتمله الطاقة، فيكون سببا للنفرة من الدين كله، أو أن يكون هذا داخلا في الإحداث في دين الله تعالى وهو منهي عنه، كما في حديث عائشة – رضي الله عنها – مرفوعا: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١)، وهو كذلك طريقة من نهانا الله عن التشبه بهم من أهل الكتاب، كما قال – عزوجل –: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد:٢٧].

وللغلو مظاهر وصور كثيرة، فهل عبدت القبور إلا بسبب الغلو، وهل طيف بها إلا بالغلو في أصحابها،بل هل دعيت من دون الله وقربت لها القرابين والنذور إلا بسبب الغلو، وهل عطلت صفات الله إلا بالغلو في جانب التنزيه، وهل وقعت الممثلة في التمثيل إلا بالغلو في جانب الإثبات، وهل نفي القدر إلا بالغلو، وهل وقع الخروج والقتل والفتنة إلا بالغلو.

٧ – عن جابر – رضي الله عنه –: أن النبي ﷺ قال: «**إذا سجد أحدكم فليعتدل، ولا**

(١) أخرجه البخاري في الصلح، (ح٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية، (ح١٧١٨) وهذا لفظه.

يفترش ذراعيه افتراش الكلب» [١].

هنا أيضا يأمر النبي ﷺ المصلي إذا سجد أن يعتدل في هيئة السجود، فلا ينقبض على نفسه انقباضا يدل على تكاسل وعدم اهتمام، ولا ينفرج انفراجا يخرجه عن هيئة الوقار والخضوع بين يدي الله تعالى.

والخروج عن حد الاعتدال قد يجعل من هيئة الساجد محل سخرية، كما أنه قد يفضي إلى أن يشبه في هيئته هيئة بعض الحيوانات، كما ذكر النبي ﷺ في هذا النص، أن الانقباض ومقاربة أعضاء السجود والكسل وعدم الاهتمام يشبه حال الكلب أو السبع حين يضع جسده على الأرض مفترشا ذراعيه، والواجب على المصلي أن يجافي ذراعيه عن جنبيه وينصبهما حتى يخرج عن هذا الوصف.

****

(١) أخرجه أحمد (١٣٩٧٥)، والترمذي في الصلاة (ح٢٧٥) وقال:حديث جابر حديث حسن صحيح، والعمل عليه عند أهل العلم يختارون الاعتدال في السجود ويكرهون الافتراش كافتراش السبع »، وابن ماجة في الصلاة (ح٨٩١).

الوسطيّة في كلام السّلف وأفعالهم

أقوال السلف الصالح وأفعالهم هي الآلة الصحيحة التي يفهم بها كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وهذا هو معنى ما جاء عنه ﷺ في حديث الافتراق حين قال لما سئل عن الفرقة الناجية: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**»(١).

وقد قال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»(٢).

وهذه بعض أقوالهم وأفعالهم في الوسطية والاعتدال.

١ - في الصحيحين عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- قال:قيل لعمر: ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله ﷺ، فأثنوا عليه، فقال: راغب وراهب، وددت أني نجوت منها كفافا، لا لي ولا علي،

(١) حديث الافتراق صح من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، رواه أبوداود كتاب السنة (ح٤٥٩٦)، والترمذي كتاب الإيمان (ح٢٦٤٠)، وابن ماجه كتاب الفتن (ح٣٩٩٢)، وأحمد (٢ / ٣٣٢)،وجاء بيان المراد بالفرقة الناجية بقوله ×: «**هي الجماعة**» في حديث معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - رواه أبوداود كتاب السنة (ح٤٥٩٧)، وأحمد (٤ / ١٠٢)، وكذلك في حديث عوف بن مالك - رضي الله عنه - رواه ابن أبي عاصم في السنة (ح٦٣)، وابن ماجه، كتاب الفتن (ح٣٩٩٣) وصححه الألباني، وجاءت رواية « **السواد الأعظم**» في حديث أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - إلا أن إسنادها فيه ضعف وجهالة، لكنه جاء بإسناد آخر يتقوى به عند الطبراني في الأوسط (ح٧٢٠٢) وفي سند ابن أبي عاصم قطن بن عبدالله أبومري وهو مجهول الحال، قال الألباني: «فإن كان الحديث عندهما - أي معجمي الطبراني الكبير والأوسط - عن غير القطن هذا فهو حسن» ظلال الجنة (١ / ٣٤)، وهو كما قال، فإنه عندهما عن سلم بن زرير عن أبي غالب به، ويشهد له رواية هي الجماعة فإنها بمعناها وهي ثابتة ، وكذلك جاء الحديث برواية «**ما أنا عليه وأصحابي**» عند الطبراني في الأوسط (ح٤٨٨٦)، وقال: لم يروه عن يحيى إلا عبدالله بن سفيان، والعقيلي في ترجمة عبدالله بن سفيان وقال: لايتابع على حديثه؛ لكن معناها صحيح إذ يستحيل أن يخالف عامة العلماء ماعليه الرسول × وأصحابه - رضي الله عنهم -، والله أعلم بالصواب.

(٢) أخرجه أحمد، (ح١٦٦٩٢) و (١٦٦٩٥)، والترمذي في العلم، (ح٢٦٧٦)، وأبوداود في السنة، (ح٤٦٠٧)، وابن ماجه في المقدّمة، (ح٤٤).

لا أتحملها حيا وميتا»[١].

قال القسطلاني[٢]: « فأخذ عمر وسطا من الأمرين فلم يترك التعيين بمرة ولا فعله منصوصا فيه على الشخص المستخلف، وجعل الأمر في ذلك شورى بين من قطع لهم بالجنة، وأبقى النظر للمسلمين في تعيين من اتفق عليه رأي الجماعة الذين جعلت الشورى فيهم»[٣].

٢- قال عبدالله بن مسعود[٤]-رضي الله عنه -: « الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة»[٥].

٣- وقال أبي بن كعب[٦]- رضي الله عنه -: «إن اقتصادا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادا أو اقتصادا أن يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم»[٧].

٤- وقد بوب النووي[٨]،بقوله: «باب الاقتصاد في الموعظة» لحديث شقيق بن سلمة [٩] قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام، (ح٧٢١٨)، ومسلم في الإمارة، (ح١٨٢٣).

(٢) أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: من علماء الحديث، مولده ووفاته في القاهرة سنة (٩٢٣هـ)، البدر الطالع للشوكاني (ص١١٦).

(٣) إرشاد الساري، (١٠/ ٢٧١).

(٤) عبدالله بن مسعود بن غافل ابن حبيب الهذلي، من السابقين الأولين، ومن كبار العلماء من الصحابة، مناقبه جمة، توفي سنة (٣٢هـ)، الإصابة (٤/ ٢٣٣).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة رقم (١١٤).

(٦) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد ابن النجار الأنصاري الخزرجي، أبو المنذر، سيد القراء، من فضلاء الصحابة، مختلف في تاريخ موته اختلافا كثيرا، قيل (١٩هـ) وقيل (٣٢هـ)، الإصابة (١/ ٢٧).

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة رقم (١٠).

(٨) الشيخ الإمام العلامة محيي الدّين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى النووي من المبرزين الفقهاء المعدودين، وقد صنف المصنفات الضخمة ومن أجلها المجموع ولم يكمله، وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة (٦٧٦هـ)، وله خمس وأربعون سنة، طبقات الشافعية (٨ / ٣٩٥).

(٩) شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل الكوفي، ثقة مخضرم، مات في خلافة عمر بن عبدالعزيز وله مئة سنة، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٦١).

كنا جلوسا عند باب عبدالله ننتظره.. فلم يلبث أن خرج علينا عبدالله، فقال: إني أخبر بمكانكم، فما يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن أملكم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام، مخافة السآمة علينا»[١].

٥- كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز [٢] يسأله عن القدر فكتب: «أما بعد، أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره (أراد التوسط بين الأفراط والتفريط)، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة.

ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها؛ فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشف الأمور كانوا أقوى؛ وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم: إنما حدث بعدهم، ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر وما فوقهم من محسر (حسر الشيء يحسره أي كشفه)، وقد قصر قوم دونهم فجفوا وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[٣].

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، (جزء١٧/ ١٦٣)، والحديث أخرجه مسلم في صفات المنافقين، (٢٨٢١).

(٢) عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي، أمير المؤمنين، وخامس الخلفاء الراشدين، توفي سنة (١٠١هـ)، السير (٥/ ١١٤).

(٣) سنن أبي داود أول كتاب السنة.

٦ - «خير الأمور أوسطها».

لم يصح هذا القول عن رسول الله ﷺ، لكنه جاء عن الحسن البصري، وأبي قلابة [١]، ومطرف[٢].

٧- قال العلامة ابن القيم: «وأما الفرق بين الاقتصاد والشح، أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين: عدل وحكمه، فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد، وهو وسط بين طرفين مذمومين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[الإسراء:٢٩]»[٣].

وقال أيضا: «والفرق بين الاقتصاد والتقصير، أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة، فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩].. والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، فإما إلى غلو ومجاوزة وإما إلى تفريط وتقصير، وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله ﷺ وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به،لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم، وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير وخوفوا من بلي بأحدهما

---

(١) عبدالله بن زيد بن عمرو الجرمي البصري، أحد أعلام التابعين، توفي سنة (١٠٤ هـ)، وأثره في مصنف ابن أبي شيبة (٣٦١٩٢)

(٢) مطرف بن عبدالله الشخير العامري الحشري، أبو عبدالله البصري ثقة عابد، توفي سنة (٩٥هـ)، وأثره في مصنف ابن أبي شيبة (٣٦١٣٧).

(٣) الروح (ص٣٥٣).

بالهلاك، وقد يجتمعان في الشخص الواحد، كما هو حال أكثر الخلق يكون مقصرا مفرطا في بعض دينه غاليا متجاوزا في بعضه، والمهدي من هداه الله»[١].

٨- قال العلامة الشاطبي[٢]: «الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال، كتكاليف الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والزكاة، وغير ذلك مما شرع ابتداء على غير سبب ظاهر اقتضى ذلك، أو لسبب يرجع إلى عدم العلم بطريق العمل،.. فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع رادا إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه، فعل الطبيب الرفيق يحمل المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله وعادته، وقوة مرضه وضعفه، حتى إذا استقلت صحته هيأ له طريقا في التدبير وسطا لائقا به في جميع أحواله، وعلى نحو من هذا الترتيب يجري الطبيب الماهر، يعطي الغذاء ابتداء على ما يقتضيه الاعتدال في توافق مزاج المغتذي مع مزاج الغذاء ويخبر من سأله عن بعض المأكولات التي يجهلها المغتذي أهو غذاء أم سم أم غير ذلك فإذا أصابته علة بانحراف بعض الأخلاط قابله في معالجته على مقتضى انحرافه في الجانب الآخر ليرجع إلى الاعتدال وهو المزاج الأصلي والصحة المطلوبة وهذا غاية الرفق وغاية الإحسان والإنعام من الله سبحانه»[٣].

وقال: «فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد -وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر - يؤتي به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين، وطرف التخفيف - وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص - يؤتي به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحا ومسلك الاعتدال

---

(١) الروح (ص٣٨١).

(٢) العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، المتوفى سنة (٧٩٠هـ)، صاحب (الاعتصام) و(الموافقات في أصول الفقه)، الأعلام للزركلي (١/ ٧٥).

(٣) الموافقات، (٢/ ٤٦٦).

واضحا، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه، وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المعتبرين في الدين من مال عن التوسط فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقع في الجهة الأخرى، وعليه يجري النظر في الورع والزهد وأشباههما وما قابلها، والتوسط يعرف بالشرع، وقد يعرف بالعوائد وما يشهد به معظم العقلاء كما في الإسراف والإقتار في النفقات»[١].

٩- قال الراغب الأصفهاني[٢]: « القصد: استقامة الطريق، يقال: قصدت قصده، أي: نحوت نحوه، ومنه: الاقتصاد، والاقتصاد على ضربين: أحدهما محمود على الإطلاق، وذلك فيما له طرفان: إفراط وتفريط كالجود، فإنه بين الإسراف والبخل، وكالشجاعة فإنها بين التهور والجبن، ونحو ذلك، وعلى هذا قوله: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾[لقمان:١٩].

وإلى هذا النحو من الاقتصاد أشار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[الفرقان:٦٧].

والثاني: يكنى به عما يتردد بين المحمود والمذموم، وهو فيما يقع بين محمود ومذموم، كالواقع بين العدل والجور، والقريب والبعيد، وعلى ذلك قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾[فاطر:٣٢]،وقوله: ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾[التوبة:٤٢]، أي: سفرا متوسط غير متناهي البعد، وربما فسر بقريب، والحقيقة ما ذكرت»[٣].

✸✸✸

(١) الموافقات، (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

(٢) الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب، أديب من العلماء الحكماء، من أشهر كتبه: (المفردات في غريب القرآن)، توفي سنة (٥٠٢هـ) قال عنه الذهبي: «العلامة الماهر المحقق الباهر» سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٢٠)

(٣) المفردات في غريب القرآن، ص (٦٧٢).

الوسطيّة: المصطلح

تعددت أقوال الباحثين في تحديد المعنى الاصطلاحي للوسطية، وقد حان الآن بيان أن هذا هو الخطأ الذي وقع فيه من كتب وأجهد نفسه، في محاولة وضع ضوابط للمصطلح، بحيث لا يؤدي اعتماده إلى الغلط في بناء الأحكام والمواقف الشرعية، فبعضهم جعل الوسطية مرادفا للخيرية، وبعضهم اشترط لإطلاق الوسطية تحقق ضابطين، هما: الخيرية، والبينية.

ومكمن الخطأ أن الوسطية كمصطلح – كما سبق –لم يأت نص بالأمر بها، إذ الوسط –كلفظ مطلق – لا يدل على الخيرية مطلقا، بل يحتمل ذلك، ويحتمل غيره.

ومن هنا نجد أن النصوص إنما نصت نصا على المعاني الفاضلة التي يصح وصفها بالوسطية، وليس العكس.

ولا يهمنا في هذا السياق إثبات العلاقة بين الخيرية والوسطية، لأننا في بحثنا نتكلم عن الوسطية في الإسلام، أي أننا أمام بحث شرعي، والبحث الشرعي هدفه الأول والأساس إثبات دلالة النصوص والأصول والقواعد على الحكم الشرعي، فما ثبت به النص فهو الخير والعدل، أما وصفه بالوسطية من عدمه فهذا ليس مما أمرنا به ابتداء.

وليس معنى هذا أن اعتبار حال التوسط مهمل أو غير ضروري، بل هو مما أمرنا بملاحظته والاهتمام به كوصف نفسي إيماني، لا كأصل عقلي لبناء الأحكام والمواقف الشرعية.

ومن هنا كان الكلام في الوسطية –كمصطلح – غير مجد، لأنه نظري لا عملي، ولهذا السبب – أيضا – لا نجد للسلف كلاما في تحديد معنى الوسطية كمصطلح.

قال الدكتور ناصر العمر: « وقد تأملت ما ورد في القرآن والسنة والمأثور من كلام العرب فيما أطلق وأريد به مصطلح (الوسطية)، فتوصلت إلى أن هذا المصطلح لا يصح إطلاقه إلا إذا توافرت فيه صفتان:

١ – الخيرية، أو ما يدل عليها كالأفضل والأعدل أو العدل.

٢- البينية، سواء أكانت حسية أو معنوية.

فإذا جاء أحد الوصفين دون الآخر فلا يكون داخلا في مصطلح الوسطية.

والقول بأن الوسطية ملازمة للخيرية - أي أن كل أمر يوصف بالخيرية فهو (وسط) - فيه نظر، والعكس هو الصحيح، فكل وسطية تلازمها الخيرية، فلا وسطية بدون خيرية، ولا عكس.

٥ فلا بد مع الخيرية من البينية حتى تكون وسطا.

وكذلك البينية - أيضا - فليس كل شيء بين شيئين أو أشياء يعتبر وسطيا وإن كان وسطا. فقد يكون التوسط حسيا أو معنويا، ولا يلزم أن يوصف بالوسطية كوسط الزمان أو المكان أو الهيئة ونحو ذلك.

ولكن كل أمر يوصف بالوسطية فلا بد أن يكون بينيا حسا أو معنى.

١٠ ومن هنا نخلص إلى أن أي أمر اتصف بالخيرية والبينية جميعا فهو الذي يصح أن نطلق عليه وصف: الوسطية، وما عدا ذلك فلا »[١].

ولنا مع هذا القول وقفات:

أولها: قوله إن الوسطية لا يصح إطلاقها.. الخ، من أين للدكتور - وفقه الله - هذا، فالوسطية ليس لفظا شرعيا تعبديا حتى يقال: إنه لا يصح إطلاقه إلا على كذا.

١٥ والسلف لم يصطلحوا فيه على معنى معين، وإنما جاءت كلماتهم غالبا تفسيرا للنصوص فقط.

نعم يجوز له أن يصطلح على شيء لنفسه، أما لغيره فلا مشاحة في الاصطلاح -كما يقال - هذا إن قلنا بجوازه هنا.

ثانيا: نفيه ملازمة الخيرية للوسطية، وإثباته العكس ليس له عليه دليل إلا بتكلف معنى للوسطية غير الوسط، وهذا لم أجده في كلام من تقدم، فالوسطية حال من الوسط، بمعنى البينية

٢٠ إذا كانت ممدوحة.

---

(١) الوسطية في ضوء القرآن الكريم ناصر العمر، ص (٢٩).

فهو جعل الوسطية بمعنى الخيرية ثم ربط بينهما.

وسبب الإشكال في هذا كله أن الدكتور وغيره ممن يوافقه خفي عليهم ما ذكرته سابقا أن الوسطية بعد أن تطلق بالمجاز على العدل والخيار، يتلاشى منها معنى البينية أو يضعف، ويظهر معنى الخيرية.

والخيرية هنا تعني شيئا واحدا فقط هو موافقة الكتاب والسنة، والنظر بعد ذلك يقبل التأمل في وسطية القول المختار أو الحكم الذي ينشأ من النظر الأصولي الفقهي في النصوص الشرعية، دون تأثير لفظ الوسط في التحقيق.

مع أن الذي تقبله النصوص والواقع أن كل حق وحكم شرعي جاء به الشرع فلابد أن يكون وسطا بين طرفين، لأنه ما من أمر إلا ويقبل الغلو والإفراط من جهة، والتساهل والتفريط من جهة.

- نسبية الوسطية:

ومما يؤكد ما مر أن الوسطية كحال محمود يختلف من شخص لآخر، ومن موقف لآخر، فبينما يعتبر مشي الرجل في وسط الطريق جائزا وخيرا، إذا هو بالنسبة للمرأة محل ذم.

وبينما الجهاد في حال من الأحوال هو الواجب المتحتم كما في مرحلة المدينة، إذا هو في حال أخرى ممنوع محظور كما هو الحال في المرحلة المكية.

وكما أن المتوسط من المال هو الواجب في الزكاة، فإن الوسط - أي الأفضل - لمن يريد البر أن ينفق أحب ماله،كما قال - تعالى -: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[آل عمران:٩٢].

- ليست الوسطية ممكنة دائما:

ومما يؤكد ذلك - أيضا - أنه ليس في كل حال يمكن النظر للأمر من زاوية الطرفين والوسط، بل هناك أحوال لا تحتمل هذا أصلا.

من ذلك ما جاء عنه ﷺ: «**أنه ما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما**»(١) والمقصود في الحديث بين أمرين كلاهما جائز مباح، فالأيسر هو اختيار النبي ﷺ، فليس هنا بينية مفروضة.

ومنه قوله - تعالى -: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة:٢٢٩]، فالنص خير الزوج بين حالين: إما الطلاق أو الإمساك، فليس هنا بينية، كما أنه ليس أحد الطرفين أولى من الآخر، بل هذا بحسب حاجة الزوج ونظرته للمصلحة.

- الوسطية ليست دائما واجبة:

ومما يزيد ما مر تأكيدا أن الوسطية ليست واجبة دائما، بل الأمر يختلف بحسب النظرة لمعناها.

فبالنظر إلى كون الوسطية هي الخيرية والفضل فهي بين أن تكون واجبة ومستحبة، فالاعتقاد والتوحيد والإيمان وسطية واجبة، وأداء نوافل العبادات وسطية مستحبة.

وبالنظر لكون الوسطية هي البينية فقد تكون واجبة وقد تكون مستحبة وقد تكون مباحة وقد تكون مكروهة وقد تكون محرمة، وقد سبق أن الشرع والنصوص الشرعية لا تتحدث عن الوسطية بمعنى البينية فقط.

****

(١) أخرجه البخاري في الحدود، (ح٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل، (ح٢٣٢٦) عن عائشة رضي الله عنها.

الفصل الثّاني:
استخلاص المعاني الشرعية الّتي يتضمّنها مصطلح الوسطيّة

٥

- **تمهيد: طريق الوسطية:**

مما تقدم تبينت لنا حقيقة مهمة، ألا وهي أنه لا يمكن أن تصل الأمة –جماعات وأفرادا– إلى حال الوسطية والاعتدال إلا بالعلم الشرعي المؤصل بالكتاب والسنة وتحكيمهما، وبالفقه فيهما ١٠ والبصيرة بمقاصد الشريعة.

فبالعلم والهدى والبصيرة تتبين معالم الوسطية ومناراتها، فليست الوسطية مجرد دعوى ونظر عقلي، بقدر ما هي تلمس وبحث مستقص للغاية عن الأحكام الشرعية ومواطن الرأي الصحيح الموافق للشريعة.

ولهذا نرى أن أي انحراف إلى الغلو والإفراط أو التفريط والإجحاف لا يخرج سببه عن ١٥ الخبث وسوء القصد، أو الجهل وسوء الفهم.

ومن هذا المنطلق كان السلف الصالح يحثون على العلم والتعلم والتفقه لا مجرد الحفظ والجمع الخالي عن ذلك، ورحم الله الإمام أحمد حين قال ناعيا على بعض طلاب الحديث مبالغتهم في الجمع على حساب التصحيح والتقويم والتفقه: « تركوا الحديث وأقبلوا على الغرائب، ما أقل الفقه فيهم »[(١)].

٢٠ وعليه فإن أي مشروع أو بناء مؤسسي حضاري أو شرعي يفتقد العلم والبصيرة فعاقبته إلى الانحراف إما يمينا أو شمالا، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾[محمد:١٤]، وقال: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ

---

(١) الكفاية للخطيب البغدادي، ص (١٤٢).

وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[يوسف:١٠٨]، وقال: ﴿ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة:١٠٩].

و لقد صدق إياس بن معاوية[١]-رحمه الله - حين قال: « إن الشيء إذا بني على عوج لم يكد يعتدل»[٢].

وقال بعض السلف: «من أعلام البصر بالدين: معرفة الأصول، لتسلم من البدع والخطأ»[٣].

ومن هنا أيضا نؤكد على أن فلاح الأمة وخروجها من ضيق الغلو والتفريط إلى سعة الوسطية والاعتدال لا يكون إلا على أيدي العلماء والفقهاء البصراء بالدين العالمين بسنة النبي ﷺ ثبوتا وفقها سلوكا واتباعا، وما تأثرت الدعوة بشيء تأثرها بفقدان ريادة الفقهاء لها، قال أيوب السختياني[٤]:«ما أمات العلم إلا القصاص، إن الرجل ليجلس إلى القاص برهة من دهره فلا يتعلق منه بشيء، وإنه ليجلس إلى الرجل العالم ساعة فما يقوم حتى يفيد منه شيئا »[٥].

وقال الدكتور ناصر العقل: « ولا ينبغي أن يتصدر الدعوة إلى الله، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا العلماء الأجلاء، الذين يفقهون الدين، ويأخذون عن أصوله، على منهج سليم صحيح، وإلا فليس كل من حشي ذهنه بالمعلومات الثقافية والأفكار يكون إماما في الدين، لأنه قد يوجد من الفسقة - بل من الكفرة - من يعلم من فرعيات الدين الشيء الكثير، وقد وجد

(١) إياس بن معاوية بن قرة بن إياس المزني، أبو واثلة البصري، القاضي المشهور بالذكاء، مات سنة (١٢٢هـ)، السير (٥/ ١٥٥).
(٢) جامع بيان العلم، ص (٥٣٦).
(٣) جامع بيان العلم، ص (٣٢٩).
(٤) الإمام الحافظ سيد العلماء أبو بكر بن أبي تميمة كيسان العنزي مولاهم البصري الأدمي، العابد الزاهد الأثري، كان شديدا على أهل البدع متبعا للسنة منافحا عنها وهو من سادات عصره ـ رحمه الله ـ وفضائله أكثر من تذكر، توفي سنة (١٣١) هـ، السير (٦ / ١٥).
(٥) الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع، للخطيب، (٢ / ٢٣٥)، والمقصود بالقصاص الوعاظ الجهلة، وما أكثرهم اليوم.

من المستشرقين من يحفظ بعض الكتب الكبيرة في الفقه الإسلامي، بل حتى منهم من يحفظ القرآن، ويحفظ صحيح البخاري، ويحفظ بعض السنن ونحو ذلك، فهذا الصنف يحفظ العلم لكن لا يفقه من الدين شيئا، وكذا بعض من يدعي الإسلام، قد يكون عنده من المعلومات الشيء الكثير، لكن لا يفقه منهج التلقي والعمل والتعامل والتزام السنة، ولم يأخذ الدين على منهجه الصحيح، وعلى العلماء الربانيين، فصار يفتي بغير علم، ويوجه بلا فقه، ويجمع بلا عقيدة سليمة»[١].

وقال الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني[٢]- رحمه الله -: « ومما لا شك فيه أن تحقيق الاعتدال والتوسط بين الإفراط والتفريط، وتمييز الصحيح من الضعيف، لا يكون بالجهل أو بالهوى، وإنما بالعلم والاتباع، وأن ذلك لا يكون إلا بالفقه الصحيح عن رسول الله ﷺ، وهذا الفقه لن يكون إلا بمعرفة ما كان عليه الرسول ﷺ من قول، وفعل، وتقرير.

وإذ الأمر – كذلك –، فإنه لا يمكن أن ينهض به إلا من كان من الفقهاء عالما – أيضا –بعلم الحديث وأصوله، أو على الأقل يكون من أتباعهم وعلى منهجهم، ولقد أبدع من قال:

أهل الحديث هم أهل النبي وإن لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

وهم المقصودون بالحديث المشهور – على الاختلاف في ثبوته –:« **يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**» [٣]، بل وبالحديث الصحيح: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم**

---

(١) الافتراق، أسبابه وسبل الوقاية منه، نسخة إلكترونية، وانظر رسائل ودراسات في الأهواء والافتراق والبدع، (١ / ٣٠٨).

(٢) محدّث العصر، العالم الفقيه محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي الأرناؤوط الألباني، صاحب المصنفات الحديثية الكثيرة ومن أشهرها سلسلتي الأحاديث الصحيحة والضعيفة، توفي سنة (١٤٢١هـ) ودفن بالأردن، انظر ترجمته الحافلة في كتاب (الألباني حياته وآثاره) للشيباني.

(٣) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ح١) والآجري في الشريعة (ح١) وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٥٧)، وفي ثبوته خلاف بين الأئمة، صححه الإمام أحمد كما في تاريخ دمشق (٧/ ٣٩)، وضعفه غيره، انظر الكامل لابن عدي (٣/ ٤٥٧)، مشكاة المصابيح (١/ ٨٢)، التقييد والإيضاح للعراقي (ص١٣٨).

بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا، وأضلوا»[(١)]»[(٢)].

مما تقدم من النصوص وكلام أئمة العلم والسنة، يتبين لنا أن المعنى الصحيح للوسطية المحمودة شرعا هو: **موافقة الحق**، فالشريعة محفوظة منصوص عليها، لا تحتاج في مسائلها وأحكامها إلى معرفة طريقة الوسط أو الوسطية، بل الأصل أن ما وافق الشرع، فهو الوسطية، عينها، وحقيقتها، ونفسها، وما خالف الشرع فهومائل عن الوسطية،إما إلى إفراط، أو إلى تفريط.

أما مالم يكن منصوصا، بل هو محل اجتهاد، سواء كان مسألة شرعية أم كان أمرا دنيويا، فالأصل أن يبحث فيه بتجرد دون تأثر بالتوسط، بل البرهان، والدليل، وفعل السلف، والمصلحة، والمفسدة، هي الضوابط التي تحدد وجه الصواب في موارد الاجتهاد، وما الوسطية إلا أحد الضوابط والمرجحات التي تعين على معرفة الأصوب والأفضل، واستيقانه بعد ترجيحه.

فإذا اختلف العلماء في حكم شيء ما بين موجب ومبيح، فلا يجوز أن يتجه الباحث مباشرة إلى التوسط فيقول بالاستحباب، لأن كل حكم شرعي له دليله الذي يستند عليه، سواء كان إباحة، أم وجوبا، أم تحريما.

وإذا اختلف الوزراء في اعتماد قانون ما، بين من يرى فرضه، ومن يرى عدم جواز فرضه، لا يجوز أن يتجه نظرهم إلى الوسط، فيكون حكمهم هو تشريعه دون إيجاب، لأن هذا يكون عبثا.

وإذا اختلف أشخاص بين من يرى الانصياع للحاكم والسمع والطاعة له، وبين من لا يرى سمعا ولا طاعة، فلا يجوز أن يقول أحد: إن الوسطية هنا جواز السمع والطاعة، وعدم وجوبها، لأن هذا كما ترى عبث ولا مصلحة فيه.

فهذا الذي ذكرناه من الصور-كما هو واضح - نظر لا يصلح، بل الوسطية في المسائل والوقائع تكون مرجحة مقوية لما يظهر صوابه من الاختيارات.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (ح ١٠٠)، ومسلم في العلم أيضا (ح ١٠٠).
(٢) تحريم آلات الطرب، ص (٦٩).

ومنشأ ذلك هو قصور الإنسان في رؤية الوسطية الحقيقية، واختلاف النظر في تعيينها، ولهذا أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي.

فمثلا: بينما يرى أهل السنة أنهم وسط بين المعطلة وبين المشبهة، يرى الأشاعرة أنهم وسط بين الجهمية، وبين المشبهة، الذين هم عندهم أهل السنة مثبتة الصفات.

وبسبب هذا الاضطراب والخطأ في معرفة حقيقة الوسطية ومعاييرها، تنكر لها بعض الكتاب المعاصرين، وعدوا الكلام فيها نظريا لا حقيقة له، يقول أحدهم: «فعندما نتحدث مثلا عن الوسطية وننظر لها، فإننا نتفق حين نكون في دائرة التجريد والعموم، ولكننا نختلف حين ننتقل إلى دائرة المحسوس والخصوص، تماما مثلما نتفق على جمال الغابة حين نراها من بعيد، ولكننا نختلف على جمال الأشجار حين نكون في قلب الغابة، أسئلة كثيرة تثار حين الانتقال من التجريد إلى التجسيد، فحين الحديث عن الوسط والوسطية تثار أسئلة مثل: من يحدد ما هو الوسط الذهبي المبتغى؟ وبأي معيار يكون التحديد؟ وهل أن هذا الوسط كمي أو كيفي؟ وما هو الفيصل بين الكمي والكيفي، وغير ذلك من أسئلة لا بد أن تثار حين نحاول تجسيد ما هو مجرد وعام، وفي الختام، ليس هناك إلا من يدعي بأن الوسطية ملك يمينه وحده، وكل وسطية تعارض أو تتعارض مع وسطيته هي وسطية مدعاة، تطرف في ثوب وسطية، إفراط أو تفريط، وبذلك نصل إلى ما يمكن تسميته صراع «الوسطيات».

ويقول – أيضا –: « ففي نهاية المطاف، فإن الوسطية مفهوم غامض، حين نهبط من سماء التجريد، ونسبي حين الحديث عن الدنيا المحسوسة لا المثال المتوخى »، ويقول أخيرا: « لقد آن أوان التخلي عن مثل هذه المفاهيم التي لا تعني شيئا في النهاية، وتأسيس خطاب جديد لا يكون همه مجرد المفاهيم بقدر ما يهمه تحديد معيار ملموس للحكم بصلاح الدول والمجتمعات أو فسادها، بعيدا عن غموض تلك المفاهيم التي شتت وفرقت أكثر مما قربت أو قدمت حلا عمليا لمشكلات عملية، وليس مشكلات لا تقبع إلا في أذهان أصحابها».

وهذا الكلام فيه مغالطة كبيرة، وقد يكون له عذر في ذلك، بسبب أن أكثر الطرح الذي ينادي للوسطية في الوقت الراهن إنما ينطلق من قناعته بمسلمات ثابتة لديه، راسخة في عقله، أنه هو ومن يمثلهم أهل التوسط والاعتدال، وهذا يتكرر بعدد التيارات التي تنادي بالوسطية، حتى

تكون لدينا بحق ما سماه (صراع الوسطيات).

لكن هذا الكلام بالطبع لا يلزمنا هنا، بعد أن عرفنا أن الوسطية ليست ضابطا عقليا ومعيارا فكريا لمعرفة الصواب والخطأ.

الوسطية فضيلة وصف الله به هذه الأمة وكتابها وشريعتها، وبهذا تيقنا أن الشريعة ونصوصها القطعية وثوابتها ومعالمها الشامخة هي المعيار للصواب والخطأ في حياة البشرية، بغض النظر عن وصف الآخرين لذلك بالوسط أم لا، فالشريعة هي الحاكمة.

وإذا تبينا وعلمنا حكم الشريعة ونصوص الدين فتلك هي الوسطية التي ننشدها، وبهذا يتبين خطأ ما نحا الدكتور تركي الحمد.

وما دام الكلام هنا عن وسطية الإسلام، فإن الذي يجب تأكيده أن وسطية الإسلام ثبتت بوصف الله – تعالى – له بذلك، لا بنظر بشري.

وعليه فوسطية الإسلام مقطوع بها في أحكامه العلمية والعملية والتربوية.

وبهذا يصبح من الواجب أن يتوجه من ينشد الوسطية والاعتدال في الدين إلى النص الشرعي مباشرة، فإذا تحقق من ثبوته أولا، ومن فهمه بفهم العلماء والأئمة الذين بينوه وعملهم به ثانيا، فإنه حينئذ قد عرف الوسطية والاعتدال حقا من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فالوسطية ليست علة تشرع من أجلها الأحكام، وإنما هي وصف يشير إلى الحكم الشرعي، مثلها مثل الحكم والغايات التي يذكرها العلماء للحكم الشرعي.

وبهذا نعرف الخطأ الذي وقع فيه من استحسن بعض الأحكام والأقوال لمجرد أنه رآها وسطا بين أقوال عدة.

– الوسطية بين الأمر الشرعي والوصف والثناء:

من الأمور التي يجب أن يتنبه لها من يكتب في الوسطية: أنها جاءت في النصوص الشرعية كوصف، ولم يأت الأمر بها صريحا بلفظ التوسط.

وهذا يجعلنا نتوقف أمام محاولة البعض وضع ضوابط للوسطية باعتبارها منهجا وضابطا مستقلا توزن به تصرفات المؤمن.

صحيح أن المدح والثناء بشيء يدل على الأمر، لكن حين يكون الأمر ليس منصوصا على ضوابطه يكون للعقل مجال كبير فيه، وما كان للعقل مجال كبير فيه أصبح مظنة الاجتهاد والتحسين، الذي لا يخلو بحال من الأحوال من تأثير الهوى، أو المذهب، أو الأغراض الشخصية.

ولهذا يرى الباحث من خلال تتبعه للنصوص الشرعية أنها أمرت بأحوال نصت عليها هي بلا شك ظاهرة الاعتدال والوسطية.

لكن لم تأمر بشيء تحت مسمى الوسط، وهذا يشير إشارة واضحة إلى أن اعتماد الوسطية كحال يستنبط منه الحكم الشرعي أمر غير صحيح، **والدليل على هذا هو غياب هذا الضابط في كلام السلف في نصوص وقواعد الاستدلال.**

يقول البروفسور أبو يعرب المرزوقي: «أظن والله أعلم أن مفهوم الوسطية القرآني قد أسيء فهمه، فمادة (و س ط) لم ترد في القرآن إلا في خمس آيات لا غير، وكلها تتعلق بالتوسط الوجودي، أعني بالتوسط الذي يصف حالة موجودة خبريا ولا يتكلم في التوسط القيمي الذي يكلف بتحقيق الوسط، فهو فيها جميعا خبري ووجودي، وليس إنشائيا وقيميا، العاديات (٥) والبقرة (٢٣٨) و(١٤٣) والمائدة (٨٩)والقلم(٢٨)، والآيتان (٢٨) من القلم والبقرة(٢٣٨) هما الوحيدتان اللتان تبدوان تقويميتين، لورودهما في صيغة افعل التفضيل، لكنهما تتعلقان هما بدورهما بخبر عن منزلة في سلم وليس عن تكليف، حال التوسط في الثروة وحال التوسط في الغذاء وبالتالي في الثروة.

وحتى نفهم المقصود بالبعد الوجودي الخبري في الوسطية القرآنية كما حددتها الآية(١٤٣) من البقرة سنقيس الأمر على: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[الحجرات:١٣]، فالجعل يتعلق بأمر حاصل وليس بفرض مكلف به، لذلك فهو يشير إلى الوسطية الوجودية لا إلى الوسطية القيمية.

إن الآية (١٤٣) تتكلم على "الجعل وسطا"، ومن ثم فهي تفيد أن الوسط حال وجودية يتصف بها المسلمون كالحال الوجودية التي يتصف بها البشر في مثال "الجعل شعوبا وقبائل"، وكلتاهما حاصلة ويترتب عليها تكليف، وليست هي المكلف بها، التكليف بالتعارف في الآية التي نقيس عليها، والتكليف بالشهادة في هذه الآية لتوفر شرطها، أعني الوساطة، تماما كما أن التكليف بالتعارف شرطه التعدد الشعبي والقبلي والاختلاف الجنسي.

عندئذ تكون الوسطية القرآنية كما تحددها الآيات الخمس ليست قيمة مكلفا بها، بل هي حال وجودية حاصلة ترتب عليها تكليف المسلمين بالشهادة، إنها حال وجودية يترتب عليها تكليف بالوسطية القيمية أعني السعي الدائم للمثل التي تحددها قيم الاسلام بطريقة الاجتهاد أو التواصي بالحق والجهاد أو التواصي بالصبر.

والوسطية الوجودية الحاصلة والوسطية القيمية التي تترتب عليها هما بعدا الفطرة التي تنتج عن اجتماع أثر المشيئتين الكونية والأمرية بمصطلح شيخ الاسلام ابن تيمية[١]، تلك هي الوسطية التي بموجبها كلف المسلمون برسالة ينبغي أن تكون مؤلفة مما يساعد على أداء هذه الرسالة.

فالشاهد لا يكون أمينا ما لم يكن قد شهد ما يشهد له أو عليه بما يشهد به بعد أن اطلع عليه في كل وجوهه، لذلك فهو لا بد أن يكون في مكان وزمان ومنزلة وبدور وجودي يحقق له ذلك»[٢].

- الوسطية في الإسلام صفة لثلاثة أشياء:

١ - للمنهج الواجب اتباعه في التعبد والتلقي والاعتقاد، كما قال - تعالى -: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣]

---

(١) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني الدمشقي الإمام، شهرته تغني عن الإطناب في ذكره والإسهاب في أمره ترجم له بعض تلامذته ومن أشهرها: (العقود الدرية) لتلميذه الحافظ ابن عبدالهادي رحمه الله، وانظر الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب، (٢ / ٣٨٧) وما بعد.

(٢) أبو يعرب المرزوقي،، منشور على: **www.almultaka.net**.

٢ - للشريعة الذي أرسل به النبي ﷺ، كما قال - تعالى -: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧].

٣ - للأمة التي كلفت بحمل الدين الخاتم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [البقرة:١٤٣].

٥ وفي ذلك يقول شيخ الإسلام - رحمه الله -: « وهذا الصراط المستقيم هو دين الإسلام المحض، وهو ما في كتاب الله - تعالى -، وهو السنة والجماعة، فإن السنة المحضة هي دين الإسلام المحض؛ فإن النبي ﷺ روي عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن والمسانيد..أنه قال: «**ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**» وفي رواية: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[1].

١٠ وهذه الفرقة الناجية: أهل السنة، وهم وسط في النحل، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل، فالمسلمون وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين،لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله..ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود، فكانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا فريقا.

بل المؤمنون آمنوا برسل الله، وعزروهم، ونصروهم، ووقروهم، وأحبوهم، وأطاعوهم، ولم ١٥ يعبدوهم، ولم يتخذوهم أربابا،.. ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح فلم يقولوا:هو الله، ولا: ابن الله، ولا: ثالث ثلاثة، كما تقوله النصارى، ولا كفروا به، وقالوا على مريم بهتانا عظيما، حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود، بل قالوا: هذا عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه.

و كذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله، فلم يحرموا على الله أن ينسخ ما شاء، ويمحو ما ٢٠ شاء، ويثبت، كما قالته اليهود، كما حكى الله - تعالى - ذلك عنهم بقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البقرة:١٤٢].

---

(١) سبق الكلام عليه.

ولا جوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين الله، فيأمروا بما شاؤوا وينهوا عما شاؤوا،كما يفعله النصارى، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١]، قال عدي بن حاتم [(١)]- رضي الله عنه -: قلت: يا رسول الله، ما عبدوهم؟ قال: «**ما عبدوهم، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم**»[(٢)].

والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره، وقالوا: سمعنا وأطعنا، فأطاعوا كل ما أمر الله به، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[المائدة:١].، وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق – تعالى – ولو كان عظيما.

وكذلك في صفات الله – تعالى –، فإن اليهود وصفوا الله – تعالى – بصفات المخلوق الناقصة، فقالوا: هو فقير ونحن أغنياء، وقالوا: يد الله مغلولة، وقالوا: إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت، إلى غير ذلك .

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: إنه يخلق ويرزق، ويغفر ويرحم، ويتوب على الخلق ويثيب ويعاقب.

والمؤمنون آمنوا بالله – سبحانه وتعالى – ليس له سمي ولا ند، و لم يكن له كفوا أحد، وليس كمثله شيء، فإنه رب العالمين وخالق كل شيء، وكل ما سواه عباد له فقراء إليه:﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾[مريم:٩٣-٩٥].

---

(١) عدي بن حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج، الطائي، أبو طريف، صحابي شهير، حضر حروب العراق وحروب علي، مات سنة (٦٨هـ)، الإصابة (٤/ ٤٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، (ح٣٠٩٥)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢)، والطبري في تفسير الآية، وقد حسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه، السلسلة الصحيحة (ح٣٢٩٣).

ومن ذلك : أمر الحلال والحرام، فإن اليهود كما قال الله – تعالى –: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ [النساء:١٦٠]، فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط، ولا شحم الثرب والكليتين ولا الجدي في لبن أمه، إلى غير ذلك مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرهما، حتى قيل: إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا، والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمرا، و– كذلك – شدد عليهم في النجاسات حتى لا يؤاكلوا الحائض ولا يجامعوها في البيوت. وأما النصارى، فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات، وباشروا جميع النجاسات، ولهذا قال – تعالى –: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة:٢٩].

وأما المؤمنون، فكما نعتهم الله به في قوله:﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧]»[1].

وإذا كان كذلك فإن الأمة لا تستحق هذا الوصف حقيقة إلا بامتثاله شريعة ومنهجا، وهذا الوصف يتضمن كثيرا من معاني الثناء والفضل التي ذكرت في الكتاب والسنة، منسوبة لهذه الأمة ودينها، من أهمها ما يلي:

١ – العدل:

في (المعجم الوسيط): «عدل الشيء عدلا: أقامه وسواه، وعدل في حكمه: حكم بالعدل، و اعتدل: توسط بين حالين في كم، أو كيف، أو تناسب، يقال: ماء معتدل بين الحار والبارد،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، (٣/ ٣٦٩-٣٧٣) بتصرف يسير.

والعدل: الإنصاف، وهو إعطاء المرء ماله، وأخذ ما عليه»[١].

ويقال: اعتدلت الثمرة، إذا توسطت في حالها بين الحموضة والفساد، و: اعتدل الجو، إذا توسط في صفاته بين الحر والبرد.

وسمي العدل عدلا، لاستقامته وعدوله عن الخطأ إلى الصواب، أو لاعتدال صفاته واستوائها.

وقد جاء في القرآن والسنة الثناء على العدل، والأمر به، والنهي عن ضده، قال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠].

وقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[الشورى:١٥].

وقال أيضا: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾[الأعراف:١٨١].

يقول الدكتور محمد عمارة: « إن العدل –والوسطية هي العدل بين ظلمين– لا يعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما، كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين.

وإنما يعتدل بالوسطية الجامعة، التي تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبينات الفريقين المختصمين –كفتي الميزان–.

ولهذا كان قول رسول الله ﷺ : « **الوسط: العدل** »[٢]كان التعبير عن حقيقة مفهوم الوسطية في الإسلام»[٣].

---

(١) المعجم الوسيط، (ص٥٨٨).

(٢) تقدّم.

(٣) مجلة حراء الإلكترونية العدد: ٢ (يناير–مارس) ٢٠٠٦.

والعدل معنى عام، يشتمل على عدة مقاصد، كلها مطلوب شرعا، فمنها:

- **العدل مع الناس:**

من ذلك قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾[النساء:٥٨].

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨].

وعن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومه لائم»[1].

قال ابن القيم رحمه الله:« قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[النساء:١٣٥].

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد عدوا كان أو وليا، وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب، إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره.

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله، مناف لما بعث به رسوله، والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه، ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولعباده، وأولئك هم الوارثون حقا، لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معيارا على الحق وميزانا له، يعادي من خالفه ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته، فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد ؟ وهو في هذا الباب أعظم

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (ح٧٢٠٠)، ومسلم في الحدود (ح١٧٠٩).

فرضا وأكبر وجوبا ؟» [١].

والعدل قيمة مقدسة لا يتخلى عنها المسلم ولو مع رسول الله ﷺ [٢]، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل ما بدا لرسول الله ﷺ، وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم فيخرصها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه فقال: يا أعداء الله، تطعموني السحت! [٣]، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، **ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل بينكم**، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض» [٤].

– العدل مع النفس:

قرر النبي ﷺ ذلك في أكثر من موقف، ففي حديث أبي الدرداء مع سلمان قال ﷺ فاصلا بينهما: « **صدق سلمان** »، وقال لأبي الدرداء: «**إن لنفسك عليك حقا**» [٥]، والأصل في الحقوق: الوجوب، وهذا يدل على أن من العدل مع النفس أن تعطى حقها.

وعن عائشة أن النبي ﷺ بعث إلى عثمان بن مظعون[٦]، فجاءه فقال: «**ياعثمان، أرغبت عن سنتي**» ؟ قال: لا والله يارسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «**فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر،**

---

(١) الرسالة التبوكية، ص (٢١-٢٢).

(٢) وهذا مجرد افتراض، وإلا فلا يتصور أن يكون العدل في جانب غير جانب رسول الله ×.

(٣) السحت: الحرام الذي لا يحل كسبه؛ لأنه يسحت البركة: أي يذهبها، والسحت من الإهلاك والاستئصال.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، (ح١١٦٢٦)، وأصله في الصحيحين مختصرا، انظر صحيح البخاري (ح٢٣٢٨)، ومسلم (ح١٥٥١).

(٥) تقدّم، ص (٣٨).

(٦) عثمان بن مظعون بالظاء المعجمة بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح الجمحي أسلم بعد ثلاثة =

وأنكح النساء فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر، وصل ونم»[(١)].

وقد قال الله تعالى:﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء:٢٩].

وقال: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

وإذا تأمل الإنسان في العدل وحقيقته وجده حالا وسطا بين نزعتين:

نزعة النفس، والحرص، والشح وحب الذات، التي تدفع الإنسان إلى الظلم، وغصب الحقوق.

ونزعة محبة الآخرين، والتنازل عن الحق، والخوف، وهضم النفس، التي تحد من الرغبة في أخذ الحقوق للنفس، وبالتالي ظلمها.

فالعدل الذي هو بذل الحقوق والقيام بالواجبات، هو حال وسط بين من يقدس حق الغير ويهمل حق النفس، وبين من يقدس حق النفس ويهمل حقوق الآخرين.

- العدل مع الحقائق والقيم:

إعطاء كل شيء حقه وقيمته هو نوع من العدل المأمور به شرعا، سواء كان ذلك مع البشر، أم مع الجماد، وسواء كان ذلك في الماديات أم في المعنويات.

وهذا العنصر دليل قوي على مدى اعتدال الفكر وسلامة التصور وبالتالي سلامة الأحكام الصادرة عنه.

فإنزال الناس منازلهم - مثلا - دليل على سلامة الفكر، فتعظيم العظيم وتحقير الحقير مقياس

= عشر رجلا وهاجر إلى الحبشة هو وابنه السائب الهجرة الأولى توفي بعد شهوده بدرا في السنة الثانية من الهجرة وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين وأول من دفن بالبقيع منهم، الإصابة (٤/ ٤٦١).

(١) أخرجه أحمد (ح٢٤٢٣٢) و (ح٢٥٣٦٥) و (ح٢٥٧٧٦) وأبو داود في النكاح (ح١٣٦٩)، وابن حبان في الصحيح (ح٩)، وله شاهد عن سعد بن أبي وقاص،وصححه الشيخ الألباني رحمه الله، انظر إرواء الغليل (٧/ ٧٨) والسلسلة الصحيحة، (ح٣٩٤).

على مدى إدراك الشخص للحقائق والقيم الذاتية.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[الأعراف:٨٥].

٥ فقد نهاهم عن إنقاص القيم الحقيقية للأشياء وذلك بالتطفيف وإنقاص الميزان.

وأشد منه إذا كان ذلك التعامل مع البشر، فكثيرا ما يجنح الإنسان عن تقدير القيمة الحقيقية التي يستحقها شخص ما، فينحرف إلى التعظيم المبالغ فيه وهو الغلو، وهذا سبب تأليه البشر وعبادتهم أو طاعتهم في معصية الله، أو اتباعهم وامتثال طرائقهم دون نظر وتفكر في سلامتها من عدمها.

١٠ وقد ينحرف إلى الجفاء والبخس وإنكار محاسن الآخرين أو بخسها والتقليل من شأنها، وهذا أيضا مناف للعدل الذي أمرنا به في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام:١٥٢].

وكلا الحالين – الغلو والجفاء – دليل على خلل في التصور والإدراك.

فالعدل بهذا من صميم الوسطية المأمور بها شرعا، والتي جاءت حقيقة واقعية في التشريعات ١٥ الإسلامية في كافة جوانبها.

٢ – اليسر والسماحة:

اليسر في اللغة: اللين والانقياد، **واليسر واليسار الميسرة**: **السهولة** والغنى، **وتيسر الشيء واستيسر**: تسهل، **واليسر**: ضد العسر[١].

قال ابن عباس في قوله– تعالى –: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: «توسعة الإسلام، ما ٢٠ جعل الله من التوبة والكفارات»[١].

---

(١) لسان العرب مادة (يسر) (٦/ ٤٩٥٧).

وقال الضحاك في تفسير الآية: «جعل الدين واسعا ولم يجعله ضيقا» [٢].

اليسر والسماحة من أبرز سمات الوسطية، وقد تقرر فيما مضى أن هذا الدين هو دين (الوسط)، فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، إذ بين تساهل البعض في الأخذ بأحكام الدين تحت دعوى اليسر والسماحة، وبين إفراط البعض في تطبيق مظاهر التدين تحت دعوى التدين والتنسك، بين هذا وذاك تظهر فضيلة اليسر والسماحة الحقيقية.

فاليسر والسماحة مثل بقية الفضائل تنازعها المتنازعون وادعاها المدعون، وأنزلها كل على منهجه وطريقته.

قال الدكتور صالح بن حميد:«رفع الحرج والسماحة والسهولة راجع إلى الاعتدال والوسط، فلا إفراط ولا تفريط، فالتنطع والتشديد حرج من جانب عسر التكليف، والتفريط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح وعدم تحقيق مقاصد الشرع.. فالتوسط هو منبع الكمالات، والتخفيف والسماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل» [٣].

إذا فالدين في أصل تشريعه يسر وسماحة، وإذا حصل أن وقع العبد فيما يضيق عليه جاء المزيد من التيسير، بل ورفع القيود كعلاج مؤقت لمشكلة طارئة، ولهذا قعد الفقهاء قواعد مثل: (إذا ضاق الأمر اتسع)، ومثل: (الضروروات تبيح المحظورات)، وهذا أخذا من نصوص متعددة من الكتاب والسنة.

فمن الأدلة على أن الدين بتشريعاته وأحكامه سهل يسير الأخذ، قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥].

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ١٩٢).
(٢) تفسير الطبري (٩/ ١٩٣).
(٣) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ص (١٣).

قال الشعبي:[١] «إذا اختلف عليك أمران، فإن أيسرهما أقربهما إلى الحق لهذه الآية»[٢].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء:٢٨].

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة:٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٢٨٦]، قال الله- تعالى - كما في الحديث الصحيح:«قد فعلتُ»[٣].

قال الشيخ الدكتور صالح بن حميد: «والوسع ما يسع الإنسان فلا يعجز عنه ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، فقوله- تعالى -: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه أو يحرجها دون مدى غاية الطاقة، فلا يكلفها بما يتوقف حصوله على تمام صرف القدرة، فإن عامة أحكام الإسلام تقع في هذه الحدود، ففي طاقة الإنسان وقدرته الإتيان بأكثر من خمس صلوات وصيام أكثر من شهر، ولكن الله جلت قدرته ووسعت رحمته أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بها العسر»[٤].

ويقول- سبحانه- في سورة المؤمنون: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[المؤمنون:٦٢].

---

(١) الإمام الراوية المعروف عامر بن شراحيل الشعبي، أبو عمر، ثقة مشهور فقيه فاضل، قال مكحول: «ما رأيت أفقه منه»، مات بعد المئة وله نحو من ثمانين سنة، سير أعلام النبلاء، (٤/ ٢٩٤).

(٢) تفسير القاسمي (٣/ ٤٢٧).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، (ح١٢٦).

(٤) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ص (٦٩).

ولا شك أن الأحكام الشرعية إذا كانت مطلوبة في حدود الوسع والاستطاعة دون بلوغ غاية الطاقة، ففي ذلك الدلالة الظاهرة على أن الحرج مرفوع، وأن اليسر سمة هذا الدين، والتوسعة على العباد خاصية من خصائصه، فهي الحنيفية السمحة والوسطية التي لا عنت فيها ولا مشقة.

وقد جاءت السنة النبوية معززة لهذا المعنى ومؤكدة عليه قولا وعملا :

فعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله، ﷺ قال:« **إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا**»(١).

وقال لمعاذ بن جبل(٢)وأبي موسى الأشعري (٣) لما بعثهما إلى اليمن: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا**»(٤).

وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال لما قيل له: يا رسول الله! أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**» (٥).

وفي مسند الإمام أحمد، عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره**»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق، (ح١٤٧٨).

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، من أعيان الصحابة وعلمائهم، شهد بدرا وما بعدها، وكان إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن، توفي في الطاعون سنة (١٨هـ)، سير أعلام النبلاء، (١/ ٤٤٣).

(٣) عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار الأشعري، أبو موسى، صحابي مشهور، كان من محدثي الصحابة وفقهائهم، وكان حسن الصوت بالقرآن، توفي سنة (٥٠هـ) وقيل بعدها، سير أعلام النبلاء، (٢/ ٣٨٠).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، (ح٦١٢٤)، ومسلم في الجهاد والسير، (ح١٧٣٣).

(٥) تقدّم .

(٦) أخرجه أحمد، (ح١٨٤٩٧و١٩٨٣٤) والطبراني في الكبير ج٢٠ (ح٧٠٤)، قال الهيثمي في المجمع: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح» (٤/ ١٨)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٦٠/ ٣٤١).

ومن ذلك تركه العمل مخافة المشقة على أمته، كما حصل في قصة صلاة التراويح،حيث صلى ذات ليلة في رمضان فصلى بصلاته ناس، ثم صلى القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا في الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم، فلما أصبح قال: «**قد رأيت الذي صنعتم، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم**»(١).

وقال ﷺ مرة: «**إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز كراهية أن أشق على أمه**»(٢).

وقال عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – مبينا منهج الصحابة في ذلك: «من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»(٣).

وبهذا التعريف والشمول ندرك أن هذا الأمر يندرج في منهج الوسطية التي هي سمة من سمات هذه الأمة، وخاصية من خصائصها، فلن نستطيع أن ندرك حقيقة الوسطية إلا إذا فهمنا سمة اليسر والتوسعة ورفع الحرج، وإلا أضحت الوسطية معنى مفرغا من حقيقته، وقولا نظريا لا وجود له في الواقع، وبذلك يفقد هذا الدين خاصية لها أثرها في حياة الناس ومآلهم.

– التيسير بين الحقيقة والدعوى:

لا يصعب على صاحب نظر أن يميز الغلو والتشديد، ولو ادعى صاحبه التيسير والسماحة، لكننا الآن نجد صعوبة في بيان عوار منهج يدعي التيسير، وهو إلى التفريط أقرب.

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (ح١١٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (ح٧٦١) وهذا لفظه.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان، (ح٧٠٩و٧١٠).

(٣) ذم الكلام للهروي (٧٥٨)، وأورده التبريزي في المشكاة (١/ ٤٢) وابن القيم في المدارج (٣/ ٤٣٦) بألفاظ متقاربة وأصله عند الطبراني وغيره مختصرا.

ذلك أن التيسير الشرعي لا يختلف عن التيسير البدعي - غالبا - إلا في ثبوت النص، وقد تقدم بيان أن الدين في أصله يسر، فلهذا يصعب على العلماء الربانيين إيصال الفرق بين الحكم الشرعي الثابت بالنص وبين ما يسوغه لهم بعض الفقهاء من مخالفات وتساهل في الالتزام بالحكم الشرعي تحت ذريعة التيسير.

لقد اتّخذ بعض المعاصرين من التيسير حجة في القول في دين الله بالهوى، سواء كان هوى القائل أو هوى الجمهور الّذي يطلب الفتوى.

وتجرأ بعضهم بالفتوى المخالفة للنصوص، مدعين بذلك التيسير على الناس، حتى أبطلوا شرائع، وأحدثوا في دين الله أمرا جللا، استغله بعض الناس في تقنين التفلت من الدين، وتشريعه، ليكون فقها عصريا يناسب المرحلة الراهنة – زعموا –، وهي فلسفة تتلبس بلباس المصلحة، وتتخذ من المنهج التيسيري للفقهاء المشار إليهم مركبا تركبه، ووطاء تطؤه، فيفضي ذلك إلى تحريف الشريعة.

قال الإمام ابن القيم في سبب تحريف شريعة النصارى: « وانضاف إلى هذا السبب ما في كتابهم المعروف عندهم «بافر كسيس» أن قوما من النصارى خرجوا من بيت المقدس، وأتوا أنطاكية[1] وغيرها من الشام، فدعوا الناس إلى دين المسيح الصحيح، فدعوهم إلى العمل بالتوراة، وتحريم ذبائح من ليس من أهلها، وإلى الختان وإقامة السبت، وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة، فشق ذلك على الأمم، واستثقلوه، فاجتمع النصارى ببيت المقدس وتشاوروا فيما يحتالون به على الأمم ليحببوهم إلى دين المسيح ويدخلوا فيه، **فاتفق رأيهم على مداخلة الأمم والترخيص لهم والاختلاط بهم، وأكل ذبائحهم، والانحطاط في أهوائهم، والتخلق بأخلاقهم وإنشاء شريعة تكون بين شريعة الإنجيل وما عليه الأمم** »[2].

ولهؤلاء الفقهاء طرق شتى في تطبيق هذا المنهج منها:

أ – التوسع في قاعدة الضرورات:

---

(١) مدينة تاريخية تقع على الضفة اليسرى على نهر العاصي، كانت تابعة لسورية، والآن هي ضمن الرعاية التركية، قال ياقوت الحموي: بالفتح ثم بالسكون والياء المخففة، من أعيان البلاد وأمهاتها، انظر معجم البلدان، (١/ ٢٦٦).

(٢) هداية الحيارى ص (٢٦٦ – ٢٦٧).

فيسوغون مخالفة النصوص الشرعية بكل ما يعتبرونه ضرورة، وإن كان ليس كذلك، ولو لم تنطبق على الحالة شروط الضرورة المعتبرة عند الفقهاء والعلماء الذين بينوا متى يمكن اعتبار الحال ضرورة يسوغ معها الاستثناء من النص.

كمن يفتي بجواز سفر المرأة إلى ديار الكفر للدراسة للضرورة، فأين هي الضرورة المسوغة لمخالفة النهي عن سفر المرأة بلا محرم وإقامتها في بلاد الكفار؟!

ب – التوسع في القول بالمصلحة:

وهذا من محدثات العصر الحاضر، إذ غدا القول بالمصلحة والتوسع فيها مسوغا ليس فقط للقول على الله بلا علم، وتشريع ما لم يأذن به الله، بل كان بابا يلج منه كل من أراد التصدر للفتوى، ولهذا دخل في القول في مسائل الشرع بعض من ينتمي للفكر مع جهله وبعده عن التخصص العلمي الذي يمكنه من النظر في المقاصد، إذ تصور البعض أنه بمجرد علمه ونظره في المصالح يستطيع الاجتهاد في مسائل شرعية، مستدلا بأقوال بعض أهل العلم كقول الإمام ابن القيم « فإذا طهرت أمارات العدل وتبين وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه »[1]، ونسي هؤلاء – أو جهلوا – أن هذا يسوغ في حالة فقدان النص العام أو الخاص، والحاجة إلى الاجتهاد في المصلحة، والموازنة، أما الولوج إلى الكلام في المسائل الشرعية دون علم بما في النصوص والآثار – خصوصا – من الأحكام فيها وفي مثلها، فهذا في الحقيقة تقديم بين يدي الله ورسوله، والله تعالى نهى عنه.

ج– تتبع الرخص والأقوال الضعيفة والشاذة:

فإذا ضاق بهؤلاء الأمر لجؤوا إلى التفتيش عن الأقوال والمذاهب الشاذة والضعيفة، المخالفة للنصوص فأفتوا بها مع علمهم بمخالفتها للنصوص، وحجتهم في هذا أن لهم سلفا في قولهم، وهذا ليس بسائغ في الحقيقة، بل إذا جاء النص فبراءة إلى الله وإلى رسوله من كل قول يخالف الكتاب والسنة، ولو قال به من قال، فكيف إذا كان القول محكوما عليه من قبل أئمة الإسلام وعلماء الشريعة بالشذوذ والضعف.

---

(١) الطرق الحكمية ص (١٤).

د – التلاعب بالألفاظ الشرعية:

كلنا يعلم أن دلالات الألفاظ في اللغة أوسع منها في الشرع، لأن الاصطلاح الشرعي استخدم اللفظ العربي وقيده، فيأتي البعض ليأخذ دلالة اللفظ بكل سعته اللغوية، مما يعني إدخال عناصر جديدة لم يشملها الاصطلاح الشرعي.

فلفظ الحجاب – مثلا– في اللغة يمكن أن يشمل كل ما تحتجب به المرأة، مهما كان لونه أو صفته المهم أنه حجاب للجسم، فيتوسع بعض الفقهاء ليسوغوا للمرأة أي نوع من الألبسة التي تستر الجسم، وهذا خطأ بلا ريب.

بل الحجاب الشرعي هو الذي فعله وطبقه نساء المؤمنين عندما نزلت آية الحجاب، فهو الحجاب الذي فيه من الشروط ما يجعله يحقق الحكمة من مشروعية الحجاب وهو بعد المرأة عن الشبهة وإثارة الفتنة ولفت النظر.

فإذا توسعنا كما توسع فقهاء التيسير قلنا بمشروعية الحجاب الأحمر المزركش بالأصفر الملفت للنظر الذي جمل المرأة وزاد من لفت الأنظار إليها.

هذا مثال واحد فقط والأمثلة كثيرة على هذا وفيما مر كفاية للبيب.

٣ – التوازن:

تدور معاني الوزن حول الثقل، والتوازن مأخوذ منه بمعنى التساوي في الثقل، يقال: توازن الشيئان: استويا في الثقل، ووازن بينهما: ساوى وعادل بينهما[١].

ويأتي الوزن – أيضا – بمعنى التقدير والاعتدال، تقول: وزن الكلام: قدره، واتزن الشيء: اعتدل.

والموازنة تشمل كل هذا، فتتضمن التساوي والعدل والتقدير، فإذا قدرت الأمر قدره، وعدلت بين المتساويين، وأعطيت كل أمر وزنه وساويته بغيره مما هو مثله فقد وازنت ووزنت وحققت التوازن[٢].

---

(١) انظر لسان العرب ص (٤٨٢٨).

(٢) انظر المعجم الوسيط (٢ / ١٠٢٩ –١٠٣٠).

والتوازن من أهم المعاني التي ينتظمها منهج الوسطية، وعلاقته بالوسطية علاقة سبب بنتيجة، فالتوازن يحقق الوسطية.

والتوازن كما هو في معناه اللغوي يعتمد على التقدير، وأهم وجوهه ثلاثة:

أ- **الوجه الأول**: تقدير الوزن القيمي لكل شيء من حولنا، بمعنى إعطاء كل شيء وزنه الحقيقي الذي يستحقه، سواء كان أمرا ماديا أو معنويا.

وهذا له أثر كبير في إحكام تصرفاتنا وانفعالاتنا تجاه ما حولنا، فالذي يرى صخرة كبيرة يريد أ يحملها إذا لم يستطع تقدير وزنها الحقيقي فإنه سيعجز عن حملها أو يعود ذلك عليه بالضرر إن حاول ذلك.

والذي يرى المشكلة الصغيرة التي تمر به كبيرة فيعطيها أكبر من وزنها سيكون شخصا معاقا عن التصرف بسبب الخلل في تصوره وتفكيره وتقديره للأشياء، وهذا ناتج عن اختلال التوازن لديه.

ب- **الوجه الثاني**: هو التقدير النسبي، وهو راجع للأول وقائم عليه، لأن الشخص إذا كان قادرا على تقدير الوزن الحقيقي للأمور استطاع أن يقارن بين كل ما حوله فيعرف الأثقل والأخف، المهم والأهم، السيء والأسوء.

وهذه الخاصية تعينه على تحديد أولوياته، وترتيب مصالحه من حيث الأهمية، وترتيب مشاكله من حيث أهميتها، وترتيب المفاسد من حيث أثرها.

وهذا الأمر الذي يقيم عليه كثير من العلماء التربويين والإداريين قواعد تدريبهم ودوراتهم، عرفه الفقهاء المسلمون من قديم في ما يسمى المصالح والمفاسد، وذكروا من القواعد الفقهية التي تقوم على هذا الأساس: «**تدرء المفسدة العظمى بالدنيا**»، و «**يضحى بالمصلحة الأقل في سبيل تحقيق مصلحة أعظم**»،وغيرها كثير، وهذه القواعد وأمثالها لا يكون العالم عالما فقيها حذقا إلا إذا تحقق لديه منهج التوازن في تفكيره وسلوكه، وإلا وقع في تضخيم الأمور أكثر من الحقيقة، ونحا منحى الغلو والتشدد، أو في تبسيطها أكثر من الواقع فوقع في التفريط والتساهل.

ج- **والوجه الثالث**: الشمولية، فإن التوازن بوجهيه السابقين لا يتحقق - وإن تحقق لا يكمل - دون شمولية النظر والفكر.

إن الشخص الذي ينظر للأمور – مادية أو معنوية – من زاوية دون أخرى، أو يهمل عند معالجته لأمر من الأمور بعض عناصره الأساسية لن يستطيع الوصول إلى موقف أو حكم أو انفعال متوازن مع الواقع الذي يعالجه.

لهذا نجد أن الأحكام التي جاءت في الشريعة حققت هذا التوازن من خلال النظر الشمولي، فمثلا: عندما أوجب الشرع الزكاة على الأغنياء تجاه الفقراء لم ينظر للأمر من زاوية الفقير فقط، ولا من زاوية الغني فقط، ولا من الزاوية البشرية فقط، بل راعى الإسلام في تشريع الزكاة أطراف المسألة الثلاثة: الغني والفقير والمال نفسه.

فالفقير راعى حقه بإيجاب دفع الزكاة إليه، والغني راعى حقه بعدم تكليفه فوق طاقته ولا بإيجاب أفضل ماله ليخرجه زكاة، كما جاء في حديث معاذ - رضي الله عنه - لما بعثه النبي ﷺ فأوصاه بقوله: «.. **فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**»(١).

وراعى الشرع مصلحة رأس المال بأن لم يوجب فيه إلا نسبة يسيرة لا تسبب إرهاقا له ولا لصاحبه، ولا تكزن عاملا منفرا للناس عن الاستثمار وتنمية المال، بل حط عن بعض الأنواع الزكاة، خصوصا في بدايتها حيث لم تبلغ النصاب، وذلك حماية لرؤوس الأموال وإعانة لها على النمو، ثم إن في إيجاب الزكاة للفقير أيضا صيانة للاقتصاد، لأن المجتمع الفقير الذي لا يجد المال لن يستطيع الشراء والاستهلاك، وهذا يعني أن تتوقف المصانع عن التصنيع والتجار عن البيع، فإيجاب الزكاة في حقيقة الأمور تدوير للمال ينعش الاقتصاد ويزيل الفوارق الاجتماعية الكبيرة، ويقضي على أسباب الحقد والشحناء بين الناس.

هذا مثال يسير يتضح لنا به كيف كان الشمول - وهو وجه من وجه التوازن - محققا له

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في الزكاة، (ح١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (ح١٩).

ومؤثرا في تشريع الزكاة، التي هي في نهاية المطاف أحد أركان الدين والمنهج الوسطي الذي امتن الله به علينا.

٤ - الاستقامة:

ومن المعاني التي ينتظمها لفظ الوسطية: الاستقامة، في المعجم الوسيط: «استقام الشيء: اعتدل واستوى»[١]، وقال الراغب:« استقامة الإنسان لزومه للمنهج المستقيم» [٢].

وقال ابن القيم: «الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء» [٣].

وقد جاء في الاستقامة من النصوص ما يصعب استقصاؤه، و من أول ما نقرؤه في كتاب الله تعالى قوله في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦].

وإذا أردنا أن نعرف علاقة الوسطية بالاستقامة فعلينا أن نتخيل نقطتين يصل بينهما كثير من الخطوط، فأقصر خط يوصل بين النقطتين هو الخط المستقيم، ولو تأملناه قليلا لوجدناه متوسطا بين تلك الخطوط، لأنه أبعد الخطوط عن الانحراف والاعوجاج من كل الجوانب.

وبين القرآن ذلك أكثر حين وصف ذلك الخط بوصفين سلبيين إذ قال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:٧].

فطريق المغضوب عليهم في جانب، وطريق الضالين في جانب، وكلاهما طريقان معوجان منحرفان لا يوصلان إلى المطلوب، والطريق المستقيم بينهما، يمتاز بأنه موصل للمطلوب، وأنه أقصر طريق يفرضه العقل يوصل إلى هدف وغاية.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطا، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطا، ثم قال: **هذا سبيل الله وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان**

---

(١) المعجم الوسيط، ص (٧٦٨).
(٢) المفردات للراغب، ص (٦٩٢).
(٣) مدارج السالكين، (٢/ ١٠٤).

يدعو إليه»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣][(١)].

فإذا كان كذلك عرفنا صلة الاستقامة والصراط المستقيم بالوسطية، وأن الاستقامة هي عين الوسطية وجوهرها، أو هي أحد تجلياتها وانعكاساتها ومظاهرها.

وقد وردت آيات كثيرة تأمر بالاستقامة وتحث عليها، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود:١١٢]، وفي الآية نفسها لمحة عن كون الاستقامة هي الوسط والاعتدال لأنه نهاه في آخرها عن الطغيان، وهو الغلو ومجاوزة الحد، وهو أحد نقائض الوسطية.

وقال عزوجل -: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥]، وهذه كتلك، نهاه بعد الأمر بالاستقامة عن اتباع أهوائهم، والهوى هو الميل، فهو يميل بصاحبه عن الطريق المستقيم، إما إلى اليمين حيث الغلو والتشدد، وإما إلى الشمال حيث التفريط والتساهل، والحق بينهما هو الاستقامة على أمر الله تعالى، كما قال القرطبي: «الاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال» [(٢)].

وأثنى الله على أهل الاستقامة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا غيرك؟ قال: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (ح١٤٨٥٣)، والحاكم (٢/ ٣١٨)، وابن أبي عاصم في السنة (ح١٦و١٧)، وصححه الشيخ الألباني –رحمه الله – في (ظلال الجنة).

(٢) تفسير القرطبي، (٩/ ٧١).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، (ح٣٨).

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله قول صاحب المنازل[١]:«وهي - أي الاستقامة - على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد، لا عاديا رسم العلم، ولا متجاوزا حد الإخلاص، ولا مخالفا نهج السنة»، ثم علق عليه بقوله: «هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملا واجتهادا فيه، وهو بذل المجهود، واقتصادا، وهو السلوك بين طرفي الإفراط - وهو الجور على النفس - والتفريط بالإضاعة.

ووقوفا مع ما يرسمه العلم، لا وقوفا مع داعي الحال، وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص، ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السنة.

فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم، وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة، إما خروجا كليا، وإما خروجا جزئيا.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرا، وهما: الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة.

فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضا عن كمال الانقياد للسنة، أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصا على السنة، وشدة طلب لها: لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها، قائلا له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه، حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدها، كما أن الأول خارج عن هذا الحد، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

وهذا حال الخوارج[٢]الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

---

(١) أي أبو إسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين.

(٢) الخوارج فرق كثيرة يجمعهم عدة أصول أهمها تكفير صاحب الكبيرة، والخروج على أئمة الجور بالسيف، ومتقدموهم كفروا عثمان وعليا، ومن أشهر فرقهم الأزارقة والنجدات والصفرية، والإباضية وهي أقربها

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر، زيادة أو نقصان»[١].

قال الدكتور ناصر العمر: « معنى الصراط المستقيم يدل على الوسطية في مفهومها الشرعي الاصطلاحي، وبخاصة أن ما جعلته لازما لمفهوم الوسطية وإطلاقها قد تحقق في معنى الصراط المستقيم، فالخيرية والبينية ظاهرتان في هذا الأمر.

فنجد في سورة الفاتحة لما قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ عرفه فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ثم حدده فقال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾،فجعل الصراط المستقيم طريق الخيار، وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو بين طريقي المغضوب عليهم والضالين» [٢].

٥ - الحكمة:

قيل في الحكمة: إنها وضع الشيء في مكانه الصحيح، قال الإمام ابن القيم: «وأحسن ما قيل في الحكمة: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان» [٣].

وله رحمه الله فيها كلام يبين علاقة الحكمة بالوسطية، حيث قال: «قال [٤]: «وهي على ثلاث درجات، الدرجة الأولى: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه».

لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق، تقتضيها شرعا وقدرا، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر،كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاثة[٥]،

للسنة ـ على بعدها ـ انظر مقدمة عن الفرق في تاريخ المسلمين للدكتور أحمد جلي.

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٢-١١٣).

(٢) الوسطية في القرآن الكريم، ص (٥٨).

(٣) مدارج السالكين، (٢ / ٤٩٨).

(٤) أي الهروي صاحب المنازل.

(٥) كذا في المطبوع ولعل الصواب: (الثلاث).

بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها، فتكون متعديا مخالفا للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعا وقدرا، فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد.

وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله.

وكذلك ترك الغذاء والشراب واللباس: إخلال بالحكمة، وتعدي الحد المحتاج إليه، خروج عنها أيضا، وتعجيل ذلك قبل وقته: إخلال بها، وتأخيره عن وقته: إخلال بها.

فالحكمة إذا: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه، فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل -كالمرأة- له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأكملهم أولو العزم، وأكملهم محمد ﷺ.

ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه، وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة،كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء:١١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٥١].

فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود، وفي العبد فسببه: الإخلال بها، فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيبا، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثا.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة، فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، والله أعلم»[١].

وليس بعد كلامه رحمه الله كلام، إلا أن نؤكد ونقرر صدقه وملامسته للحقيقة الشرعية والواقعية، وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[البقرة:٢٦٩].

وقال تعالى بعد أن ذكر عدد من التوجيهات: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء:٣٩].

ومن المعاني التي يحسن ذكرها أن الله تعالى قرن الحكمة في القرآن بالملك، وقرنها بالعلم، وفيه إشارة إلى أن الملك بلا حكمة إما تهور وطيش وطغيان، وإما تفريط وجهل وضعف، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٥١].

وقال أيضا:﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[ص:٢٠].

وكذلك العلم، فالعلم أيضا لا يصلح إلا بالحكمة، فالعالم إذا افتقد الحكمة كان علمه وبالا عليه وعلى الأمة، وكم من عالم كانت فتواه سببا لإزهاق أنفس معصومة، وانتهاك أعراض مصونة، وغصب أموال محترمة.

وكم من عالم كان خوفه وتردده سببا لانتشار الباطل وعلوه في الأرض.

فالعالم الذي يفقه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويسخر علمه لإصلاح الواقع الذي يعيشه بحكمة وحلم ونظر ودراية، فيعرف متى يتكلم ومتى يسكت، ومتى يصدع بالحق، ومتى يداري، ويعلم أي المفسدتين أخف فيدفع بها العظمى، ويعلم أي المصلحتين أعظم فيطلبها بالصغرى، هذا هو العالم الذي آتاه الله الحكمة حقا، وهو العالم الرباني الذي مدحه القرآن والسنة،

(١)مدارج السالكين (٢ / ٤٩٩-٥٠٠).

كما قال ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله – تعالى – : ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾[آل عمران:٨٠] : أي: « حكماء علماء حلماء »[١].

وإذا جمع الله لعبد العلم والملك والحكمة فهذا غاية الإنعام والإعزاز، كما قال تعالى:﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٥٤].

****

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٦٦).

نقائض الوسطيّة

كل مخالفة لشرع الله – تعالى – هي في حقيقتها تناقض الوسطية والخيرية، وبنظرة تأملية نستطيع القول: إن المخالفة للشرع هي في حقيقتها انحراف عن الطريق، وخروج عن الصراط المستقيم، إما يمينا، حيث الغلو والإفراط، وإما شمالاً (يسارا)،حيث الجفاء والتفريط.

ونقائض الوسطية ليست معاني منقطعة الصلة عن الوسطية في وضعها الخاص المحدد، بل هي تشكلات مختلفة لحالة واحدة تمثل الوسطية شكلها الأفضل والأعدل وربما كانت وحده الصحيح دون سواه، يقول الدكتور محمد عمارة: « وهذه الوسطية الإسلامية الجامعة ليست ما يحسبه العامة انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام القضايا والمشكلات، لأنها هي الموقف الأصعب الذي لا ينحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين وفقط، فهي بريئة من المعاني السوقية التي شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام، وهي – كذلك – ليست الوسطية الأرسطية كما يحسب كثير من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها؛ لأن الوسطية الأرسطية التي رأى بها أرسطو[1]أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين هي في العرف الأرسطي أشبه ما تكون في توسطها بالنقطة الرياضية التي تفصلها عن القطبين –الرذيلتين– مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية، إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين يتوسطهما، وليست هكذا الوسطية في اصطلاح الإسلام.

إنها في التصور الإسلامي موقف ثالث حقا، وموقف جديد حقا، ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لا يعني أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما ومكوناتهما، إنه مخالف لهما، لكن ليس في كل شيء، وإنما خلافه لهما منحصر في رفض الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب

(١) أرسطو طاليس ابن نيقوماخوس، المعلم الأول والحكيم المطلق عند الفلاسفة، سموه بالمعلم الأول لأنه واضع لبتعاليم المنطقية، وهو تلميذ لأفالاطون لكنه خالفه وانتقده كثيرا، توفي سنة (٣٢٢) قبل الميلاد، انظر الملل والنحل للشهرستاني، ص (٤٤٤).

من الأقطاب وحدها دون غيرها، منحصر في رفضه الإبصار بعين واحدة، لا ترى إلا قطبا واحدا، منحصر في رفضه الانحياز المغالي، وغلو الانحياز.

ولذلك، فإنها -كموقف ثالث وجديد- إنما يتمثل تميزها، ومتمثل جدتها في أنها تجمع وتؤلف كل ما يمكن جمعه وتأليفه -كنسق غير متنافر ولا ملفق- من السمات والقسمات والمكونات الموجودة في القطبين النقيضين كليهما، وهي لذلك وسطية جامعة، تتميز عن تلك التي قال بها حكيم اليونان»[١].

وما قاله الأستاذ صحيح في غالب الصور، وإلا فهناك صور تكون فيها الوسطية الإسلامية موقفا جديدا منفصلا تماما عن القطبين، فالتوحيد الذي هو عبادة الله دونما سواه لا علاقة تربطه بالشرك ولا بالإلحاد، والصدق كفضيلة مجردة موقف منفصل تماما عن الكذب.

وما قاله الأستاذ عمارة صحيح في الوسطية التي تمثل الاعتدال في حالة شعورية أو صفة خلقية أو خلقية، كالحلم: وسط بين الجبن والانتقام، وكالكرم وسط بين السرف والمخيلة وبين البخل والشح، وعلى ذلك فقس.

أما من حيث التصور العقلي العام فيصح ما قاله الأستاذ بناء على أن مخالفة الحق إما بأن تكون تركا له وجفاء عنه، وإما بأن تكون بالمبالغة فيه أو فيما يشبهه.

ومن هنا يمكن جمع كل مخالفة للوسطية تحت عنوانين كبيرين هما: الغلو، والتفريط.

أولا: الغلو والإفراط.

أما الغلو فقد عرفه أهل اللغة بأنه: مجاوزة الحد، فقال ابن فارس: «غلا السعر يغلو غلاء، وغلا الرجل في الأمر غلوا: جاوز الحد، وغلا بسهمه غلوا إذا رمى به أقصى الغايه»[٢].

وفي المعجم الوسيط: «وغلا فلان في الأمر: تشدد فيه وجاوز الحد »[٣].

---

(١) مجلة حراء الإلكترونية العدد: ٢ (يناير-مارس) ٢٠٠٦.

(٢) مجمل اللغة لابن فارس، (٣ / ٦٨٣).

(٣) المعجم الوسيط، ص (٦٦٠).

وقد جاءت الشريعة بالنهي عن الغلو نهيا شديدا، وحذر النبيّ ﷺ في غير موقف بأن الغلو سبب هلاك الأمم من قبلنا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[النساء:١٧١].

قال العلامة ابن كثير رحمه الله: « ينهى – تعالى – أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاها الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقا أو باطلا، أو ضلالا أو رشادا، أو صحيحا أو كذبا، ولهذا قال – تعالى –: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣١]»[١].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة:٧٧].

قال ابن كثير: « أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه من حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلها من دون الله» [٢].

ولئن كانت هذه الآيات واردة بخصوص جانب واحد عند أهل الكتاب وهو تعظيم البشر ووضعهم في مقام الألوهية سواء كانوا أنبياء أو علماء، فإن السنة جاءت بتأصيل النهي عن الغلو قولا وعملا في كل جوانب الحياة، بل من أهم ما نفهمه من السنة هو ربط أوصال الغلو عند

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٩).

الإنسان، بمعنى أن الغلو السلوكي له أسباب خفية لا تبتعد كثيرا عن الغلو التصوري الاعتقادي، ومن ذلك ما يلي:

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ غداة جمع [١]: «**هلم القط لي الحصى**»، فلقطت له حصيات من حصى الحذف فلما وضعهن في يده قال:«**نعم، بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « وقوله: «**إياكم والغلو في الدين**» عام في جميع أنواع الغلو، في الاعتقادات والأعمال، والغلو: مجاوزة الحد، بأن يزاد الشيء، في حمده، أو ذمه ما يستحق، ونحو ذلك.

والنصارى أكثر غلوا في الاعتقادات والأعمال، من سائر الطوائف وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾.

وسبب هذا اللفظ العام: رمي الجمار، وهو داخل فيه، فالغلو فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار، ونحو ذلك، بناء على أنه أبلغ من الحصى الصغار، ثم علل ذلك بأن ما أهلك من قبلنا إلا الغلو في الدين، كما تراه في النصارى، وذلك يقتضي أن مجانبة هديهم مطلقا أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا، وأن المشارك لهم في بعض هديهم، يخاف أن يكون هالكا»[٣].

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**هلك المتنطعون** »، قالها ثلاثا[٤].

قال النووي: « المتنطعون: أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم»[٥].

---

(١) يقال للمزدلفة (جمع)، سميت بذلك لاجتماع الناس بها، وقيل لجمعهم بين الصلاة بها، تهذيب الأسماء واللغات للنووي، (٣/ ٥٥).

(٢) تقدم ص (٣٨).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، (١ / ٣٢٨-٣٢٩).

(٤) أخرجه مسلم في العلم، (ح٢٦٧٠).

(٥) شرح مسلم للنووي (١٦/ ٢٢٠).

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار** ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[الحديد:٢٧]»[(١)].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه –، عن النبي ﷺ قال: «**إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة**» [(٢)].

قال ابن حجر: «والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية، ويترك الرفق، إلا عجز وانقطع فيغلب »[(٣)].

قال ابن رجب: «والتسديد: العمل بالسداد، وهو القصد والتوسط في العبادة، فلا يقصر فيما أمر به، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه»[(٤)].

ومن النصوص يمكن لنا تمييز نوعين من الغلو:

الأول: الغلو فيما أصله مشروع، وهو ما يسمى عند العلماء بالبدعة الإضافية.

الثاني: الغلو بما لم يشرع أصلا، وهو ما يسمى بالبدع الحقيقية [(٥)].

فمواصلة الصوم – مثلا – أو تخصيص وقت أو مكان بصلاة لم يرد بها الشرع هو نوع من الغلو فيما أصله مشروع، وهو الصوم والصلاة.

ومما جاء في السنة منه حديث الرهط، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: أن رهطا من الصحابة ذهبوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون أزواجه عن عبادته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها – أي اعتبروها قليلة – ثم قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر فلا أفطر، وقال الثاني: وأنا أقوم الليل فلا أنام، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ بين لهم خطأهم وعوج طريقهم – وقال لهم:

---

(١) تقدم، ص (٣٩).
(٢) تقدّم، ص (٣٨).
(٣) فتح الباري، (١/ ٩٤).
(٤) المحجة في سير الدُّلجة لابن رجب، ص (٥١).
(٥) انظر الاعتصام للشاطبي، ص (٢٣٤).

«إنما أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

فهذه الأعمال التي ألزم بها هؤلاء النفر أنفسهم مشروعة في أصلها، فقيام الليل والصوم والعفة كلها أعمال مشروعة بل مندوب إليها لكن ليس على الصفة التي ألزموا بها أنفسهم.

أما القول بالحلول، والاستغاثة بغير الله بزعم أنه توسل بالصالحين أو نحو ذلك فهو غلو في المعنى العام، لكن بما لم يشرع أصلا.

ومن الجدير بالذكر أن هذا النوع لم يقع في أصحاب النبي ﷺ، أعني ابتكار وإحداث مالم يشرع أصلا، سواء كان في الاعتقاد أو العمل، وإنما وجد فيهم من كان له تأويل في أمر مشروع كما سبق ذكره.

كما أنه ينبغي التفريق بين الغلو الحقيقي الذي يكون منشؤه المبالغة في التعبد أو الزيادة المفرطة في جانب قلبي على حساب جانب فينشأ الغلو الفكري والسلوكي البدعي.

وبين الغلو الذي لا يتعدى كونه مظاهر أدخلها الجهال في الدين وليست منه، وهذه كثيرا ما تقع للعوام والجهال من المتعبدين ليس منشؤها المبالغة في التعبد بقدر ما هو معلومة خاطئة أن العمل الفلاني من الدين، وغالبا ما يكون الاغترار سببه حديث ضعيف أو قول شاذ، وهذا النوع أمره اسهل وأقرب لأن أصحابه في الغالب يرجعون إذا بين لهم الخطأ، بعكس الأول.

ـ من صور الغلو:

وللغلو مظاهر وصور عديدة منها:

١ – إيجاب مالم يوجبه الله تعالى، أو تحريم مالم يحرمه.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٢].

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في النكاح، (ح٥٠٦٣) وهذا لفظه، ومسلم في النكاح، (ح١٤٠١).

٢- تكلف العبد ما لا يطيقه أو تكليفه الآخرين بما لا يطيقونه زيادة في التعبد.

قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد:٢٧].

٣- ترك الأخذ بالرخص المشروعة الثابتة بزعم الاجتهاد في العبادة والأخذ بالعزيمة.

عن ابن عمر - رضي الله عنهما-: عن النبي ﷺ قال: « **إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته** »(١).

٤- المغالاة في النظر للأمور أو الأشخاص مدحا أو ذما، فيعطي كل شيء أكبر من حجمه، وينزل الناس فوق منازلهم.

قال ﷺ: « **لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله و رسوله**»(٢).

نماذج من الغلاة:

شكل الغلو فكرا وسلوكا منهجا لكثير من الفرق التي تنتمي للإسلام.

فالخوارج وهم أشهر وأقدم فرق الغلاة شكل الغلو عصبها البارز، فهم أهل الغلو ومنظروه، وقد جاءت فيهم الأحاديث تترى، تبين منهجهم وتحذر مسلكهم وتنهى عن الاغترار بهم، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: « بينا النبي ﷺ يقسم، جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يارسول الله، فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: **دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قذذه فلايوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه فلايوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه أو قال: ثديه مثل ثدي المرأة، أو قال: مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس**، قال أبوسعيد: أشهد أني سمعت هذا من

(١) انظر بحث الشيخ الألباني - رحمه الله - حوله في إرواء الغليل، (ح٥٦٤).
(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، (ج٣٤٤٥).

النبي ﷺ، وأشهد أن عليا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعت النبي ﷺ، فنزلت فيه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[التوبة:٥٨] »[١].

وغلوهم ظهر في تكفيرهم مرتكب الكبيرة والحكم عليه بالخلود في النار، وفي تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله، وحكمهم على مخالفيهم بالكفر ولو في مسائل فرعية.

٥ ومن الغلاة أيضا فرق الشيعة [٢]، فالتشيع في أصله نوع من الغلو في آل البيت وفي علي بخاصة، كان في أوله تفضيلا له على عثمان ثم على الشيخين، ثم جعل تكفير الصحابة وبغضهم من لوازم محبته وآل بيته، حتى بلغ ببعض فرق الشيعة غلوهم إلى أن ألهوه واتخذوه ربا، وصدق علي – رضي الله عنه – حين قال: « ليحبني رجال يدخلهم الله عز وجل بحبي النار، ويبغضني رجال يدخلهم الله عز وجل ببغضي النار»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدّين (ح٦٩٣٣)، القذذ: ريش السهم، واحدتها قذة، والنصل: رأس السهم، والرصاف: عقب يلوى على مدخل النصل فيه، والنضي: هو السهم قبل أن ينحت، انظر النهاية، (٢ / ٢٢٧)، و (٤ / ٢٨)، و (٥/ ٧٣) .

(٢) اسم عام يطلق على فرق كثيرة يجمعهم أنهم يقدمون عليا على سائر أصحاب رسول الله × ويرون أنه الإمام بعد رسول الله × بالنص، وهم أصناف، منهم الغلاة الذين يألهون عليا والأئمة، ومن الغلاة أيضا من يسب الصحابة ومنهم الشيخين أو يكفر أحدا منهم، ومن الغلاة من يدعي للأئمة العصمة أو بعض خصائص الرب كالعلم بالغيب أو التصرف في الكون أو من يدعي أنهم أفضل من الأنبياء، ومن لم يغل منهم لا يسب الصحابة ولا يعتقد في الأئمة مثل ذلك ومن أقرب فرقهم إلى السنة الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين، اللذين يترضون على الصحابة ويرون صحة إمامة أبي بكر وعمر وإن كانوا يرون عليا أفضل منهما، ومن أشهر فرق الشيعة الإمامية الاثناعشرية ولهم الانتشار الواسع الآن ومن الغلاة فرق الباطنية المنتسبة لآل البيت كالإسماعيلية والنصيرية، انظر الملل والنحل (١ / ١٤٤) وما بعدها، ودراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين د. أحمد جلي ص (١٥١) وما بعدها.

(٣) الشريعة للآجري (٢٠٣٣).

ومن الغلاة أيضا الفرق الكلامية كالمعتزلة[١] وغيرهم ممن بالغوا وغلوا في التنـزيه حتى وصل بهم الحال إلى أن نفوا عن الله ما يستحقه من أسمائه وصفاته الثابتة له في القرآن والسنة، وهم متفاوتون في درجة الغلو، فالمعتزلة وقبلها الجهمية أشد فرق النفاة غلوا في النفي.

ومن الغلاة أيضا أهل الجبر[٢] الذي بالغوا في القدر حتى نفوا قدرة الإنسان على أفعاله وقالوا إن كل ما يفعله الإنسان فهو مجبور عليه لا يملك من أمره شيئا بل كل ذلك فعل الله تعالى يفعله به.

وكل هذه الفرق قاومها السلف وأتباعهم على مر العصور بالفكر والتصنيف في ذلك تأصيلا وتفنيدا، وبين السلف أن الحامل لكل أولئك الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم إنما هو الغلو والإفراط والتكلف الذين نهينا عنه، كما قال تعالى : ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦].

ومما يحسن أن نختم به كلامنا عن الغلو التنبيه إلى «أن الحكم على العمل بأنه غلو، أو أن هذا المرء من الغلاة، باب خطير، لا يقدر عليه إلا العلماء الذين يدركون حدود هذا العمل، ويعلمون أبواب العقيدة وفروعها، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فقد يكون الأمر مشروعا ويوصف صاحبه بالغلو، وها نحن نرى اليوم أن الملتزمين بشرع الله، المتمسكين بالكتاب والسنة يوصفون بالغلو والتطرف والتزمت ونحوها.

---

(١) من كبريات الفرق الإسلامية الضالة، نشأت في عهد التابعين على خلاف بين المؤرخين في سبب هذه التسمية، وأشهر ما قيل: إن سبب ذلك أن واصل بن عطاء المتوفى سنة (١٣١هـ) وهو مؤسس هذه الفرقة اعتزل مجلس الحسن البصري في وقت الخلاف في مرتكب الكبيرة بين المبتدعة إذ قرر أنه في منزلة بين المنزلتين، وقد وافقه على بدعته هذه عمرو بن عبيد القدري الضال المتوفى سنة (١٤٤هـ)، وانتشر بعدهما مذهب الاعتزال، انظر الملل والنحل، ص (٣٨)، و المعتزلة وأصولهم الخمسة، ص (١٣) وما بعد.

(٢) يزعم أتباع هذا المذهب أن العبد لا قدرة له على فعله ولا إرادة بل هو مسير محكوم كالريشة في مهب الريح، وينسبون أفعال العبد إلى الله تعالى خلقا وقدرة وفعلا، والجبرية المحضة هم أتباع جهم بن صفوان السمرقندي، وهذا قوله في المسألة وكفره به الأئمة وبغيره من أقواله الشاذة، انظر الفرق بين الفرق ص (١٩٩).

ولذلك فإن المقياس في الحكم على الأعمال والأفراد والجماعات هو الكتاب والسنة، وليست الأهواء والأعراف، وما تواضع عليه الناس»[١].

كما أنه يجب علينا التفريق بين الغلو البدعي، وبين الورع المشروع، فالورع مندوب إليه حث عليه النبي ﷺ في أكثر من حديث، ومن أشهرها حديث النعمان ابن بشير – رضي الله عنه – وفيه: « **فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**»[٢]. وأوضح فرق بينهما أن الغلو هو التنزه عن المباحات أو عما فعله النبي ﷺ بدعوى التقرب إلى الله تعالى بذلك، فهذا هو الورع المذموم كما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئا، فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب، فحمد الله، ثم قال: «**ما بال أقوام يتنـزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»[٣].

أما الورع بلزوم الأحوط في المسائل الخلافية، أو إذا اشتبه الحلال بالحرام، أو نحو ذلك فهذا كله ورع محمود يثاب عليه صاحبه ويحمد عليه، وليس من الغلو في شيء.

وبهذا يتبين لنا جليا مناقضة الغلو لفظا ومعنى وحقيقة للوسطية.

ثانيا: التفريط والجفاء:

التفريط أوالجفاء هو تعبير عن الحالة المقابلة للغلو والوسطية، فالتفريط يقع في الجهة المقابلة للغلو، مناظرا له حول نقطة الوسطية.

فالتفريط يناقض الغلو كما ينقض الباطل الباطل، ويناقض الوسطية مناقضة الحق للباطل.

أقول هذا ليتبين دقة الموقف من الوسطية، وأنه لا يجوز أن يكون موقفنا من التفريط دافعا لنا إلى الإفراط، والعكس كذلك.

فكم من الغلاة دفعهم للغلو هربهم من التفريط وبغضهم له.

---

(١) الوسطية في ضوء القرآن الكريم،ص (٤٣).
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، (ح٥٢)، ومسلم (ح ١٥٩٩).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب، (ح٦١٠١)، ومسلم في الفضائل (ح٢٣٥٦).

وكم من المفرطين دفعهم إلى التفريط هربهم من الغلو وبغضهم له.

وكلا الطرفين وقعوا في اتباع الهوى، وساهم في ذلك غلبة الجهل بالكتاب والسنة وما فيهما من معاني الوسطية الحقيقية، التي يجب أن تكون هي مهرب الجميع من التطرف بكل أشكاله وصوره غلوا وتفريطا.

وعماد التفريط هو الترك والتقصير، يقال: فرط في الأمر يفرط فرطا، أي: قصر فيه وضيعه حتى فات، وكذلك التفريط، فهو الترك والتهاون [١].

ومنه قول الرسول ﷺ:«**أما إنه ليس في النوم تفريط**» [٢]، فالتفريط إذن هو التقصير والتضييع والترك.

قال – تعالى –: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[الأنعام:٣١].

قال الطبري: يقول: «يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها»[٣].

وقال – تعالى –:﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام:٦١].

قال الطبري: «قد بينا أن معنى التفريط: التضييع فيما مضى قبل، وكذلك تأوله المتأولون في هذا الموضع، قال ابن عباس: لا يضيعون» [٤].

وقال تعالى أيضا: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى فِى يُوسُفَ﴾[يوسف:٨٠].

قال القاسمي: «قصرتم في شأنه» [٥].

---

(١) انظر لسان العرب، مادة (فرط)، ص (٣٣٩٢).
(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (ح٦٨١) في حديث طويل.
(٣) تفسير الطبري، (٥/ ١٧٧).
(٤) تفسير الطبري، (٥/ ٢١٦).
(٥) تفسير القاسمي، (٤/ ٣٨٨).

قال عز وجل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٥٦].

قال الطبري: «يقول: على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به، وقصرت في الدنيا في طاعة الله »[(١)].

وتقدم قوله ﷺ: « **إنه لا تفريط في النوم، إنما التفريط في اليقظة**»[(٢)].

والحديث يعطينا فائدة مهمة، وهي أن التفريط محصور في التعمد، لأنه ليس تركا مجردا، وإنما هو ترك سببه عدم الاهتمام وعدم المبالاة، فالتفريط إنما يكون حين يترك ويقصر العبد في أمر الله وهو يقظ منتبه ذاكر قادر.

و يدخل في التفريط – أيضا – ما كان عن جهل، ومنه ما جاء في حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى يقضى دفنها فله قيراطان، أحدهما – أو أصغرهما– مثل أحد** » فذكر ذلك لابن عمر، فأرسل إلى عائشة، فسألها عن ذلك، فقالت: صدق أبو هريرة، فقال ابن عمر: «لقد فرطنا في قراريط كثيرة»[(٣)].

فقد جعل ابن عمر تركه هذه الفضيلة تفريطا منه، مع أنه لم يكن يعلم بها كما هو ظاهر من السياق.

والتفريط الذي نتحدث عنه هنا – أي الذي يتنافى مع الوسطية – نوعان: **الأول**: التفريط الذي ينشأ عن التساهل والتهاون، وهو ما كان ناتجا عن ضعف الإيمان واليقين.

ومن صور هذا التفريط: ترك الفرائض كالصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفعل المحرمات كشرب الخمر والزنا وأكل الربا والكذب ونحو هذا، وكله من التفريط المحرم الذي يذم صاحبه.

---

(١) تفسير الطبري، (١١/ ١٩).

(٢) تقدم، ص (٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (ح١٣٢٣و١٣٢٤)، ومسلم في الجنائز (ح٩٤٥).

ومن صوره التساهل في أداء نوافل العبادات كالسنن الرواتب وقيام الليل والصدقات غير الواجبة، وفعل المكروهات وعدم التنزه منها، وكل هذا تفريط مكروه صاحبه غير متوعد بالعقاب، لكنه فرط في الثواب.

والنوع الثاني: يشمل ما كان منهجا ومذهبا متعمدا، أي أن صاحبه يعده دينا، أو لا يراه منافيا لحقيقة الإيمان والاتباع.

ومن صور هذا التفريط تفريط المرجئة في إخراجهم العمل من الإيمان، أو تفريط المتكلمين في عدهم الإيمان مجرد التصديق القلبي.

ومنه أيضا تفريط غلاة الصوفية وتساهلهم في أداء الفرائض وفي مباشرة المنكرات واستباحتهم لها بدعوى الوصول للحقيقة والاهتمام بتصحيح البواطن، ودعوى السكر والوجد ونحو ذلك من الترهات، حتى ادعى بعضهم أن من كشفت له الحقائق من الأولياء سقطت عنه الفرائض [١].

ومنه تفريط كثير من الفقهاء في الاهتمام بأعمال القلوب تشاغلا منهم بفقه الظاهر وتصحيح الأعمال الظاهرة، مع أن الشريعة طافحة بالتوجيه لأعمال القلوب وأنها أصل العمل الظاهر وأنه لا يصلح ظاهر العبد إلا بتصحيح الباطن، وقد قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٢].

وقال ﷺ:«**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» [٣].

ومنه تفريط كثير من أهل السياسة في إقامة حكم الله تعالى بدعوى مراعاة الزمان، وقلة الأعوان، وخوف الافتتان، مع أن تركهم حكم الله هو الفتنة بعينها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن

---

(١) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص (٤٠٧) وما بعدها، وإغاثة اللهفان لابن القيم، (٢/ ٢٠٠) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (ح٥٢)، ومسلم، (ح ١٥٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في الوحي (ح١)، ومسلم في الإمارة، (ح١٩٠٧).

﴿يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩].

وكل هذا مناف ومناقض للوسطية التي جاءت بها الشريعة تقريرا وحمدا لها ولأصحابها، وإذا كان من المعروف أن الشيء يتبين بضده، فقد تبين لنا من خلال النظر في قبح الغلو والتفريط حسن الوسطية و فضيلتها.

****

الباب الثاني

مجالات الوسطيّة ومظاهرها
وآثارها على الفرد والمجتمع

الفصل الأوّل:

مجالات الوسطيّة ومظاهرها

٥

أولا: التدين.

التدين مأخوذ من الدين، دان دينا وديانة، وللدين عدة معان تجتمع حول الخضوع والذل[١]، سواء كان هذا باعتقاد، أو قول، أو عمل، ولهذا ارتبط الدين بالعبادة معنى وحقيقة، فالتدين هو التعبد.

١٠ وقد فطر الله – تعالى – الإنسان على التدين، فالتدين والتعبد فطرة عامة، فطر عليها الجنس البشري، وهذه السنة الكونية تتطور وتتغير وتتوافق مع السبب الشرعي وإلا ظلت ناقصة لا تؤدي عملها.

فالتدين العام لا ينفع نفعه ويؤتي ثمرته إلا بالتدين الخاص الموافق للشريعة.

والتدين في حقيقة وضعه الشرعي هو موافقة الأمر والنهي، فمن وافق في قوله وفعله أمر الله

١٥ ونهيه فهو المتدين الحقيقي.

لكن التدين والتعبد غلب لفظه على جزء من معناه، وهو القيام بالعبادات الشخصية كالصلاة، والصوم، والحج، وجعل مقابل ذلك الانشغال بأمور الحياة، ولو كانت في حقيقتها عبادات وشرائع، ولهذا يقسم العلماء الفقه إلى عبادات ومعاملات مثلا.

ومن هنا نقول إن الإسلام جاء بمنهج وسطي معتدل في جانب التدين والارتباط الروحي

٢٠ الشخصي مع الله – تعالى –.

---

(١) انظر المعجم الوسيط، (٢ / ٣٠٧).

والعبادات من حيث هي يقسمها العلماء إلى عبادات باطنة متعلقة بالقلب، وتسمى – أيضا – الأعمال القلبية والأحوال.

وإلى عبادات ظاهرة قولية أو فعلية كالذكر، والصلاة، والصوم، ونحوها.

فالتدين إذا من أهم مجالات الوسطية التي أسسها الإسلام، وجاءت في أصلها كمنهج متوسط بين الإغراق والانغماس في الدنيا وملذاتها كما كان يفعل فجرة الملوك والأباطرة وأشياعهم من الوثنيين واليهود، وبين حال الرهبان الذين انقطعوا عن الدنيا ولذاتها واعتبروا ذلك هو التدين المطلوب، فجاء الإسلام بذم الطريقتين، قال – تعالى – في شأن أهل الدنيا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس:٧-٨]، وقال – أيضا –: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود:١٦].

وقال في شأن الرهبان: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ [الحديد:٢٧].

وإذا تأمل الباحث في النصوص الشرعية والسيرة النبوية فإنه سيلاحظ وبجلاء كثيرا من مظاهر وسطية الإسلام في مجال التدين، فمن ذلك على سبيل المثال:

١ – أعمال القلوب:

أعمال القلوب هي أحواله كالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، ونحو ذلك.

وهذه الأعمال هي أصل الإيمان والتدين وأساسه، فهي الباعث والمحرك الذي يدفع الإنسان للفعل والقول الظاهر، ولهذا جاء مذهب السلف منسجما مع الحقيقة العقلية الطبيعة مقررا أن أعمال القلوب جزء من الإيمان وهي أصله، وأن أعمال البدن جزء من الإيمان وهي فرعه، وأن الأصل والفرع مرتبطان بعلاقة طردية، فكلما زادت أعمال القلوب وقويت زادت أعمال البدن وقويت، قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: « إذا قام بالقلب التصديق به، والمحبة له، لزم ضرورة

أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه، ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له - أيضا - تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان، قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] وهي كلمة التوحيد، والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي، قويت فروعها، وفروعها - أيضا - إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها»[(١)].

وتظهر وسطية الإسلام فيها بالأمر بالموازنة بينها، فإن عامة أعمال القلب لها أضداد: فالرغبة ضدها الرهبة، والرجاء ضده الخوف، والحب ضده البغض، والتوكل على الله يقابله الاعتماد على السبب.

والأمر الشرعي جاء بالموازنة بين هذه الأعمال بحيث لا يطغى جانب على جانب:

فالخوف من الله والنظر إلى سطوته وعظمته وقوته وانتقامه إذا كان بمعزل عن الرجاء والنظر إلى رحمته وعفوه وكرمه أدى بصاحبه إلى القنوط واليأس من رحمة الله وهذا مذموم، كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

وقال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

---

(١) الفتاوى، (٧ / ٥٤١ -٥٤٢).

وكذلك النظر إلى رحمة الله وعفوه وكرمه وجوده والرجاء فيها بمعزل عن ملاحظة غضبه وعظمته وسطوته وبطشه يؤدي بصاحبه إلى الغرور والأمن من مكره – تعالى – وهذا مذموم، كما قال – تعالى –: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وقد أثنى الله – تعالى – على من جمع بين الحالين فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

كذلك حب الله وحب أوليائه، وبغض أعدائه، جاء الإسلام فيها بمنهج وسط.

وليس المقصود بالوسطية هنا مقدارا وسطا في محبة الله فإن محبة الله – تعالى – ليس لها حد محدود، بل كلما زاد العبد حبا لله وفي الله كلما كان أقرب له – تعالى – ولمحبته.

وإنما المراد أن لا يؤدي به محبة الله والانقطاع إليها إلى التقصير في حقوق غيره، كالوالدين والزوجة والأولاد وغيرهم، وأن لا يبلغ به بغض أعداء الله – تعالى – إلى العدوان عليهم وظلمهم.

قال – تعالى – منبها العبد إلى حق الوالدين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[لقمان:١٥].

فمحبة الله من جهة، وحرص الوالدين على محادة الله ورسوله من جهة ثانية، ليست مسوغا لعصيانهما والتنكر لحقهما.

والزوجةكذلك،كما جاء عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: آخى رسول الله ﷺ بين سلمان وبين أبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال ما شأنك متبذلة ؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، قال: فلما جاء أبو الدرداء، قرب إليه طعاما فقال:كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، فقال له سلمان: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نم، فنام فلما كان عند الصبح قال له

سلمان: قم الآن، فقاما فصليا، فقال: إن لنفسك عليك حقا، ولربك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه، فأتيا النبيّ ﷺ، فذكرا ذلك، فقال له: **صدق سلمان**»(١).

وكذلك الحال في أعداء الله - تعالى - لا يجوز أن يبلغ بالعبد المؤمن بغضهم إلى أن يظلمهم أو يعتدي عليهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

وكذلك القول في مسألة التوكل على الله والاعتماد على السبب، فبين المادية المفرطة التي لا تعترف إلا بالسبب - فقط - في حصول النتائج، وبين الاتكالية المفرطة التي لا تعترف بالسبب المادي ولا تربط بينه وبين النتيجة بأية علاقة، جاء المنهج الإسلامي في هذا الجانب وسطيا، يأمر باتخاذ السبب وتفعيله، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الأسباب لا تؤثر وحدها بل لا بد من مشيئة مسبب الأسباب وإذنه الكوني القدري، قال - تعالى -: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]

وقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]

وقال منبها إلى أنه لا يحدث في ملكوت الله شيء إلا بإذنه ولو كان عملا قلبيا: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١].

---

(١) تقدّم.

ولما سمع الصحابة قول النبي ﷺ في التوكل استوضحه أحدهم فقال عن ناقته: «**يارسول الله أعقلها وأتوكل ؟ أو أطلقها وأتوكل ؟ فقال له ﷺ: اعقلها وتوكل**»[١].

وحقيقة هذا أن التوكل عمل قلبي وهو اعتقاد أنه لا يحدث شيء إلا بمشيئة الله ومن ثم صدق الالتجاء إلى الله أن يأذن للسبب المادي أن يعمل عمله ويؤدي نتيجته.

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا، فأحد الطرفين عطل الأسباب محافظة على التوكل، والثاني: عطل التوكل محافظة على السبب.

والوسط علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمن، كمن عطل النكاح والتسري وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني.

فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلا له، قد فوض إليه، كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك،كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له، وخوفه منه، وثقته به، وتوكله عليه..وهي حال الرسل والصحابة فقد كان زكريا نجارا، وقد أمر الله نوحا أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتمادا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين، ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت إقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله ؟» [٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (ح٢٥١٧)، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع ح (١٠٦٨).

(٢) الروح، ص (٣٧٨).

٢ - بين الدنيا والآخرة:

ظهر في التاريخ البشرى جماعات و أفراد كان كل همهم إشباع الجانب المادي فقط، فكان جزاؤهم العذاب، مثل صاحب الجنتين، و قارون، و فرعون، و قوم هود، و قوم صالح، وقوم لوط.

كما ظهر أفراد و جماعات نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار و عداوة، مثل برهمية الهند [١]، و منوية فارس [٢]، و رهبانية النصارى.

أما الإسلام فقد قام على التوازن و الاعتدال، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان و عن حقيقة الحياة، ولم يظهر أي تعارض بين العمل للدين و العمل للدنيا.

الإسلام بمنهجه وسط بين الأديان و النحل التي ألغت الجانب الرباني من فلسفتها كالبوذية، و بين الأديان المحرفة والباطلة التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة فقط كالرهبانية المسيحية.

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة أو في السنة كالصوم أو في العمر كالحج ليظل موصولا دائما بالله - تعالى -، و مع ذلك ينطلق ساعيا منتجا يمشى في مناكب الأرض.

لقد جاء الإسلام صراحة بالجمع بين العمل للآخرة والعمل للدنيا، وليس ذلك بمعزل عن الدين وحقيقته، بل العمل الدنيوي جزء من التكليف الرباني، وغاية ما هنالك أن الإسلام يجعل العمل الدنيوي وسيلة للآخرة ولا يجعله غاية، فإذا وضع العمل الدنيوي مكانه الصحيح فهو جزء من العبادة التي يتعبد الله بها.

---

(١) البرهمية هي الهندوسية، ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر قرون، وتضم قيم روحية وخلقية ومبادئ تنظيمية قانونية، ويلتقي الهندوس عل تقديس البقر، ولهم معتقدات حلولية وتعددية، انظر الموسوعة الميسرة، (٢/ ٧٢٤).

(٢) أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، الزنديق صاحب القول بالنور والظلمة، ظهر بعد عيسى عليه السلام، أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية، وزعم أن العالم مركب من أصلين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان وعنهما يصدر الخير والشر، انظر الملل والنحل للشهرستاني، ص (٢٦٨).

فالتدين الصحيح الذي جاء الإسلام بمنهجيته الوسطية لا يعادي الدنيا بمظاهرها المتعددة ويهجرها كما فعله رهبان النصارى وأمثالهم، كما أنه في نفس الوقت لا يتخذها غاية يعمل الليل والنهار لأجلها، بل النظرة الصحيحة أن الدنيا مركب يركبه المؤمن للوصول للآخرة، وأنه لابد للمؤمن من أن يصلح مركبه ويهيئه ليتمكن من الوصول به إلى الله – تعالى – والدار الآخرة.

والقرآن الكريم والسنة النبوية جاء فيهما هذا التوازن صراحة وإشارة، قال – تعالى – في قصة قارون: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

وقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٧-٨].

وهذا الذم لحال الرهبانية ولحال الانغماس في الدنيا ونسيان الآخرة يشير إلى أن المطلوب حال الوسط بينهما، وهذا واضح.

والسنة النبوية عززت هذا المعنى، فحين أراد بعض الصحابة أن يتعففوا عن مظاهر دنيوية ملحة نهاهم النبي ﷺ وذم حالهم وبين لهم أن التناول من هذه الطيبات لا يتعارض مع حقيقة التقوى والتدين،فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: أن رهطا من الصحابة ذهبوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون أزواجه عن عبادته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها – أي اعتبروها قليلة – ثم قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر فلا أفطر، وقال الثاني: وأنا أقوم الليل فلا أنام، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ بين لهم خطأهم وعوج طريقهم – وقال لهم: «**إنما أنا أعلمكم بالله،**

وأخشاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[(١)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: « والناس أقسام:

أصحاب دنيا محضة: وهم المعرضون عن الآخرة.

وأصحاب دين فاسد: وهم الكفار، والمبتدعة الذين يتدينون بما لم يشرعه الله من أنواع العبادات، والزهادات.

والقسم الثالث وهم: أهل الدين الصحيح، أهل الإسلام المستمسكون بالكتاب، والسنة والجماعة، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق »[(٢)].

٣ – الطاعات والعبادات العملية:

حث الله – تعالى – عباده المؤمنين على الإكثار من العمل الصالح، وهذا المعنى مما تظافرت به النصوص الشرعية، بل هو الغاية من خلق الجن والإنس، كما قال – تعالى –: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

ولاشك أن الناس يتفاضلون في الدرجات بحسب الأخذ من الطاعات، فكلما ازداد العبد طاعة لله ازداد قربا منه، وعلت درجته في الجنة.

ومع أن هذا الأصل متقرر إلا أن الإسلام جاء فيه بمنهج وسطي، راعى فيه حاجات الإنسان ووقته، وراعى فيه – أيضا – خصائصه البشرية ومنها النفرة التي تحصل بسبب الإكثار من الشيء، والملل الذي يصيب العبد إذا حمل نفسه أكثر مما تحتمله.

وقد تجلت وسطية الإسلام في هذا الجانب من عدة وجوه:

---

(١) تقدّم.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٢٣).

منها أنها راعت الكيف وجعلته أحيانا مثل الكم بل أكثر، بحيث أصبحت قيمة العمل في كيفيته أكثر منها في كمه، لذلك كانت قيمة العمل وكثرة الأجر عليه متحققان بموافقته للسنة وبإخلاص صاحبه فيه، فركعتان يصليهما العبد بإخلاص ويقين وصدق وموافقة للسنة تعدل المئات منها بدون ذلك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[الملك:٢]، قال ابن كثير: «لم يقل: أكثر عملا، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط»[١].

وقال الفضيل بن عياض: « ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة»[٢].

ومنها أنها جعلت أكثر الأجور على أقل الأعمال وأيسرها حتى لايكون الإكثار منها مملا أو مثقلا، كما جاء عنه ﷺ أنه قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأرضاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله**»[٣].

ومنها أنها نهت عن التسرع وأمرت بالتؤدة في الأخذ بالأعمال حتى تعتاده النفس وتحتمله، كما جاء عن أنس – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق**»، وله تكملة لم تصح لكنها صحيحة المعنى متممة له فيها:«**ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإن المنبت لا سفرا قطع، ولا ظهرا أبقى**»[٤].

ومنها أنها نهت عن كثرة العمل التي تؤدي به المشقة المفرطة، كما جاء عن عائشة قالت:كانت عندي امرأة فدخل علي النبي ﷺ فقال: من هذه ؟ قلت: فلانة لا تنام تذكر من صلاتها، فقال

---

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٣٠٨).

(٢) حلية الأولياء، ص (٩٥).

(٣) أخرجه أحمد، (ح٢٦٩٧٧)، والترمذي في الدعوات، (ح٣٣٧٤)، وابن ماجة في الأدب، (ح٣٧٩٠)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (ح٢٦٢٩).

(٤) انظر السلسلة الضعيفة للألباني، (ح٢٤٨٠)، والمنبت: هو المسافر يرهق راحلته فينقطع به السفر ويتعطل.

النبي ﷺ: مه! **عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، قالت: وكان أحب الدين إليه الذي يدوم عليه صاحبه**»(١).

ومنها أنها أمرت بالتطهر وحثت عليه كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:٢٢٢]، وقال ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان**»(٢)، لكنها نهت عن الوسوسة والمبالغة فيها، قال ابن القيم –رحمه الله– في الفرق بين الاحتياط والوسوسة: «أن الاحتياط الاستقصاء والمبالغة في اتباع السنة، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من غير غلو ومجاوزة، ولا تقصير ولا تفريط، فهذا هو الاحتياط الذي يرضاه الله ورسوله، وأما الوسوسة فهي ابتداع ما لم تأت به السنة، ولم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة، زاعما أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه، كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه في الوضوء فوق الثلاثة، فيسرف في صب الماء في وضوئه وغسله، ويصرح بالتلفظ بنية الصلاة مرارا أو مرة واحدة، ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطا، ويرغب عن الصلاة في نعله احتياطا، إلى أضعاف أضعاف هذا مما اتخذه الموسوسون دينا، وزعموا أنه احتياط، وقد كان الاحتياط بإتباع هدي رسول الله ﷺ وما كان عليه أولى بهم، فإنه الاحتياط الذي من خرج عنه فقد فارق الاحتياط، وعدل عن سواء الصراط، والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم»(٣).

– الدعاء:

وكذلك في الدعاء، جاء المنهج الشرعي متوسطا بين من يعرض عن دعاء الله وسؤاله والتوجه له في كل أموره، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) تقدّم.
(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، (ح٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.
(٣) الروح ص (٣٧٩).

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف:١٨٠].

وبين من يدعوا دعاء يتعدى فيه المشروع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[الأعراف:٥٥].

٥ وقد سمع عبد الله بن مغفل[١] ابنا له وهو يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة، قال: يا بني، إذا سألت، فاسأل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون في آخر الزمان قوم يعتدون في الدعاء والطهور**»[٢].

فالشريعة جاءت بالحث على الدعاء، ولزومه في كل شيء، كماجاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «سلوا الله كل شيء، حتى الشسع، فإن الله إن لم ييسره، لم يتيسر» [٣].

١٠ وفي نفس الوقت نهت عن الغلو فيه والاعتداء، ومن الاعتداء الدخول في تفصيلات نعيم الدنيا والآخرة، والاستعاذة من تفاصيل الشرور في الدنيا والآخرة، إلا ما كان له سبب فيجوز تخصيصه.

ومن الاعتداء رفع الصوت به أكثر من الطبيعي، كما جاء عن أبي موسى، قال:كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «**يا أيها الناس! اربعوا على**
١٥ **أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم**»[٤].

وقد مدح النبي ﷺ بأنه أوتي جوامع الكلم التي منها جوامع الدعاء، وهذا كقوله ﷺ لعائشة: «يا عائشة، عليك بجوامع الدعاء: **اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم**

---

(١) عبدالله بن مغفل بن عبد غنم المزني، صحابي مشهور، شهد بيعة الشجرة، مات سنة (٥٩هـ)، الإصابة (٤/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (ح١٦٣٥٩)، وأبوداود في الطهارة (ح٩٦)، وابن ماجة في الدّعاء (ح٣٨٦٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (ح٨٦).

(٣) انظر السلسلة الضعيفة للألباني رحمه الله (ح١٣٦٢و١٣٦٣).

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات (ح٦٣٨٤)، ومسلم في الذكر والدعاء، (ح٢٧٠٤) وهذا لفظه.

إني أسألك من خير ما سألك منه محمد عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ منه عبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول وعمل، وأسألك ما قضيت لي من قضاء، أن تجعل عاقبته رشدا»[1].

٥ **ثانيا: التشريع.**

الجانب التشريعي في الإسلام نقصد به الأحكام الشرعية العملية التي تنظم علاقة العبد بربه – تعالى – وبنفسه وبالآخرين من حوله.

وهذا الجانب جاء متوافقا ومراعيا الظرف الزماني والمكاني الذي مر به المسلمون من أول يوم نزل فيه الوحي على النبيﷺ وحتى آخر يوم في حياته الشريفة، بل وبعد موته عليه الصلاة ١٠ والسلام.

وقد تجلت الوسطية في منهج التشريع الإسلامي من خلال أمور، منها:

١ – التدرج في تطبيق ونزول الأحكام الشرعية:

جاء الإسلام وسطا في هذا، بين أن يؤخر التطبيق جملة إلى حين، أو أن يطبق مباشرة جملة، فكان المنهج الرباني يقول: البدء بالتطبيق فورا مع التدرج حتى الوصول للكمال المنشود.

١٥ وهذا التدرج له صور: منها التدرج في تشريع حكم ما على مراحل، كما حدث في الخمر، وكما حدث في متعة النساء، وكما حدث في الصوم.

ومنها التدرج في تطبيق ما هو مشروع أصلا كما جاء في حديث معاذ – رضي الله عنه – لما بعثه النبيّ ﷺ لليمن فقال له: «**إنك تأتي قوما أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم**

---

(١) أخرجه أحمد (ح ٢٤٤٩٨)، وابن ماجة في الدّعاء (ح٣٨٤٦)، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني كما في صحيح الأدب (٤٩٧/ ٦٣٩) وهذا سياقه، وانظر السلسلة الصحيحة (ح١٥٤٢).

وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»[١].

ومنها التدرج في تشريع الأصل ثم الفرع، كما جاء عن عائشة – رضي الله عنها وعن أبيها – أنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: (لا تشربوا الخمر)لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: (لا تزنوا) لقالوا لا ندع الزنا أبدا»[٢].

٢ – بين الروحية والمادية:

وهنا – أيضا – ظهرت الوسطية في هذا الشمول الواسع الذي تناوله التشريع في كل جوانب الإنسان، روحه وبدنه، ولو تلفتنا حولنا في التشريعات التي يتعامل بها الخلق لوجدنا منها ما هو مادي النزعة إنما يقنن ويشرع للمعاملات المادية البحتة، مثل القوانين العلمانية، ومنها ما هو روحي بحت لا ينفع صاحبه في الفصل في قضية سياسية أو اقتصادية ولهذا يتطلب هذا المنهجان نواقصهما من بعضهم البعض.

أما التشريع الإسلامي فجاء متمما كاملا متوازنا وسطا بين الإغراق في الروحية بعيدا عن المادية وبين الإغراق في المادية بعيدا عن الروحية، بل مزج بينهما وربط بينهما وجعل كثيرا من الأحكام والمعاملات المادية مرتبطة بالنظام الروحي الخلقي والنفسي، ومن ذلك تشريع أحكام القرض في البيوع وأحكام الأسرة والنكاح كثير منه يراعي الجوانب الروحية محققا الحكمة الكونية في الارتباط بين الذكر والأنثى، كما قال – تعالى –: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩].

واقرأ قوله – تعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن

(١) تقدّم.

(٢) البخاري في فضائل القرآن، (ح٤٩٩٣).

كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء ١٩-٢١] لتلاحظ بجلاء ارتباط التوجيه الشرعي بنواح نفسية.

٥ فهذه الأمّة الوسط.. في التصور والاعتقاد.. لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي، إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح، وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال.

١٠ **٣ - بين الواقعية والمثالية.**

التشريع الإسلامي في أصله وتنظيره وأحكامه يدفع بأصحابه أقصى إلى الكمال البشري الممكن، وبكل قوة، وجدية.

ولكنه في نفس الوقت يراعي القدرات الشخصية، والفوارق الإنسانية، والظروف المحيطة، فيجعل الكمال البشري المطلوب ليس حدا رقميا، وإنما هو سقف يحدده طبيعة الإنسان وظروفه
١٥ التي يعيشها.

ويتجلى هذا في صور عديدة، منها:

التفريق بين أهل العلم وغيرهم في الواجبات والحقوق، فسقف الكمال المطلوب من العالم يختلف عنه من الجاهل أو العامي، كما قال - تعالى -: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾
٢٠ [الزمر:٩]، ولهذا قال من قال من السلف: زلة العالم زلة للعالم.

ومنها التفريق بين حال الاختيار وحال الاضطرار، فيباح للشخص في حال الاضطرار مالا يباح له في حال الاختيار كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ

فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام:١١٩].

ومنه – أيضا – أن الشارع وإن حث على الكمال ورغب فيه وأمر به، إلا أنه لا يرفض الخير من صاحبه، وإن قل، فما لا يدرك كله لا يترك جله، بل ولا بعضه، ولهذا تعامل النبيّ ﷺ مع بعض القصور في بعض أصحابه، فذلك خير من لا شيء، وله أمثلة:

منها ما ورد عن أبي سعيد، قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ونحن عنده، فقالت: زوجي صفوان بن المعطل[١] يضربني إذا صليت ويفطرني إذا صمت، ولا يصلي الفجر حتى تطلع الشمس، قال: وصفوان عنده، قال: فسأله عما قالت، فقال: يا رسول الله! أما قولها: يضربني إذا صليت؛ فإنها تقرأ بسورتين وقد نهيتها، قال: فقال رسول الله ﷺ: **لو كانت سورة واحدة لكفت الناس**، قال: وأما قولها يفطرني إذا صمت؛ فإنها تنطلق تصوم وأنا رجل شاب؛ فلا أصبر، فقال رسول الله ﷺ: **لا تصوم امرأة إلا بإذن زوجها**،وأما قولها: إني لا أصلي حتى تطلع الشمس؛ فإنا أهل بيت قد عرف لنا ذاك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس، قال: **فإذا استيقظت يا صفوان! فصل**»[٢].

ومنه ما جاء عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أن رجلا اسمه عبد الله، يلقب حمارا، كان يضحك النبي ﷺ وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوما، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: **لا تلعنوه، فو الله ما علمت أنه يحب الله ورسوله**»[٣].

فقد ذكر النبي ﷺ أن الرجل يحب الله ورسوله، ولكن ظرفه وضعفه جره إلى الخمر، فلم يطرده النبي ﷺ وإنما قبل به على حاله.

---

(١) صفوان بن المعطل بن ربيعة ابن خزاعي السلمي الذكواني، سكن المدينة وشهد الخندق وما بعدها، جرى ذكره في حديث الإفك، توفي شهيدا سنة (٥٨هـ) وقيل غير ذلك، الإصابة (٣/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (ح١١٣٥٠و١١٣٩٢)،،وأبوداود في الصيام (ح٢٤٥٩) وغيرهم، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة، (ح٣٩٥و٢١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في الحدود، (ح٦٧٨٠).

وقد أشار النبي ﷺ لهذه الحقيقة فقال:«**سددوا وقاربوا، واعملوا وخيروا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن** »[١].

وقال: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[٢].

والقرآن الكريم أشار لهذا في قوله – تعالى –: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[آل عمران:١٣٦].

وهذا الذي قلناه يؤكده ما جاء عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**»[٣].

فالمنهج الإسلامي إذن وسط بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكا، و بين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيوانا، فالإسلام ينظر إلى الإنسان كمخلوق مركب فيه العقل، و فيه الشهوة، أي فيه غريزة الحيوان، و روحانية الملاك، و تهيأ بفطرته لسلوك السبيلين إما شاكرا و إما كفورا، و مهمة هذا الإنسان هي جهاد نفسه و رياضتها حتى تتزكى.

---

(١) أخرجه أحمد (ح٢١٩٢٧)، وابن ماجة في الطهارة (ح٢٧٧) وغيرهما، وصححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (ح١١٥).

(٢) أخرجه ابن ماجة في الزهد (ح٤٢٥١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، عن أنس رضي الله عنه وصحح إسناده الحاكم، وحسنة الألباني في صحيح الجامع، (ح٤٥١٥).

(٣) أخرجه أحمد (ح٦٧٢٥و٦٩١٩و٦٤٤١و٦٥٠٣)، وابن أبي عاصم في السنة (ح٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (ح ٢١٥٢).

٤ - المقاصد والوسائل:

أولى الإسلام الوسائل أهمية كبيرة، لكنه وازن بينها وبين المقاصد، فجعل المقاصد هي الأصل، وأما الوسائل فجاءت تشريعاته وسطية بين الجمود وبين التسيب.

فمن الوسائل ما هو تعبدي لا يجوز المساس به أو الاجتهاد فيه، ومن الوسائل ما جاء يلبي حاجة العصر الذي عاش فيه النبي ﷺ، وجاء النص ليعطيه سعة ومرونة تسمح له بالتوسع ليتمكن من التكيف وفق متطلبات المسلم في كل عصر وكل مكان.

فحب الله تعالى والفوز بالجنة ليس من وسيلة إليه إلا سنة النبي ﷺ، والاجتهاد في إيجاد وسائل أخرى يبتكرها المرء ممنوع في هذا الباب، ولهذا قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

وإشباع الغريزة الجنسية مثلا لم يجعل لها الشرع وسيلة إلا ما نص عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥-٦].

أما في أبواب المعاملات والسياسة الشرعية فالأمر فيه مرونة كبيرة، إذ تغدو الوسيلة بابا يجوز الاجتهاد فيه،والفقهاء يقولون: (الوسائل لها أحكام المقاصد)، ويقولون: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، هذه القواعد وغيرها تراعي جانب المرونة في باب الوسائل، لكنها مع هذا ليست بالمنفلتة المتروكة لأهواء الناس، بل لها ضوابط تكلم عليها العلماء في كتب الأصول وقواعد الفقه، ومن أهمها أن لا تتعارض الوسيلة مع نص خاص يمنع منها.

فالوسائل في الشريعة الإسلامية لا يجوز أن تكون مجالا للوقوع في الحرام أو في الممنوع، فالغاية في شريعتنا لا تبرر الوسيلة، فمهما كانت الغاية نبيلة لا يجوز أن تكون الوسيلة إليها مما يخالف النصوص الشرعية الخاصة، أو يتعارض مع قانون الأخلاق والثوابت في الشرع، وبناء عليه حرم الشرع الغدر والخيانة و قتل غير المحاربين في الجهاد ولو كان الجهاد في نفسه غاية نبيلة، وحرم السرقة والربا والغش ولو كان مقصد فاعله أن ينفق المال على الفقراء أو بناء المساجد ونحو ذلك.

---

(١) تقدّم.

ولاشك أن ما ذكرناه يمثل موقفا وسطيا بين الجمود والانغلاق، وبين التسيب والانفلات، وهذا من شأنه أن يحفظ على هذه الأمة دينها، فقد كان التسيب والانفلات سببا في تحريف دين النصرانية، كما مر معنا قول ابن القيم رحمه الله: « وانضاف إلى هذا السبب ما في كتابهم المعروف عندهم بافر كسيس أن قوما من النصارى خرجوا من بيت المقدس وأتو أنطاكية وغيرها من الشام، فدعوا الناس إلى دين المسيح الصحيح، فدعوهم إلى العمل بالتوراة، وتحريم ذبائح من ليس من أهلها، وإلى الختان وإقامة السبت، وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة، فشق ذلك على الأمم، واستثقلوه، فاجتمع النصارى ببيت المقدس وتشاوروا فيما يحتالون به على الأمم ليحببوهم إلى دين المسيح ويدخلوا فيه، فاتفق رأيهم على مداخلة الأمم والترخيص لهم والاختلاط بهم، وأكل ذبائحهم، والانحطاط في أهوائهم، والتخلق بأخلاقهم وإنشاء شريعة تكون بين شريعة الإنجيل وما عليه الأمم »[١].

- لغة الخطاب:

ومن وسطية الإسلام في باب الوسائل منهجيته في استعمال الخطاب والبيان، قال الله - تعالى - حاكيا عن كليمه موسى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه:٢٨،٢٧][٢]، وقال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾[٣][القصص:٣٤].

---

(١) هداية الحيارى، ص (٢٦٦ - ٢٦٧).

(٢) قال ابن كثير: «وذلك لما أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية » التفسير (٥/ ٢٨٢)، وهذا الذي ذكره ابن كثير دليل على أن الفقيه ينبغي أن لا يترك فرصة للمخالف للطعن في صدق وقوة الحجة، ومن ذلك الفصاحة والبيان، وليس ذلك شرط قيام الحجة بالطبع.

(٣) قال الزمخشري: «فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه ؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخّص بلسانه الحق، ويبسط القول فيه، ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة.. وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك» الكشاف (٣ / ٣٩٦).

وقد امتن الله تعالى على الإنسان بتعليمه البيان فقال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[١][الرحمن:٤].

لكن مع هذا لا يجوز للإنسان أن يتعمق ويغلق على الآخرين باستعمال ألفاظ وتراكيب يصعب فهمها وإدراك ما وراءها، فهذا داخل في قوله ﷺ: «**إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون، قالوا: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون ؟ قال: المتكبرون**»[٢].

قال النووي: «الثرثار: هو كثير الكلام تكلفا، و المتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحا وتعظيما لكلامه، و المتفيهق: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه، ويغرب به تكبرا وارتفاعا، وإظهارا للفضيلة على غيره»[٣].

فالإسلام إذن ينتهج حالة متوسطة عادلة تعطي البيان حقه لكنها لا تجوّز أن يرتفع المتكلم ببيانه إلى مستوى يغدو فيه البيان غاية وليس مجرد وسيلة لإيصال المعاني.

ومن شأن الدّاعية أن يتنوع بتنوع من يتعامل معهم، فللعلماء لغتهم، ولطلاب العلم لغتهم، ولعامة الناس لغتهم، وللمناطقة لغتهم، كما أن للمتكلمين لغتهم، وللفكر الحديث لغته وأدواته، وكلما كان الدّاعية بصيرا بأساليب الآخرين وألفاظهم واصطلاحاتهم كلما كان أشمل وأعمق وأقدر على مجاراة الآخرين نفعا لهم إن كانوا مجالا للدعوة أو دفعا لهم إن كانوا أصحاب فتنة وشر.

وحسن البيان تزداد الحاجة إليه كلما كان أكثر انفتاحا واجتهادا في الحوار والدعوة إلى الله تعالى، ويحتاج حينها لبيان من نوع آخر، وهو إتقان لغة الخطاب، فالدّاعية الحقيقي لا بد أن يملك من أدوات البيان ما يعينه على إيصال فكرته للآخرين، وإلا فبحسب نقص بيانه ينقص النفع بعلمه وفقهه.

---

(١) قال الآلوسي: «لأن البيان هو الذي يتمكن به عادة من تعلم القرآن وتعليمه، والمراد المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير.. والمراد بتعليم الإنسان البيان تمكين الإنسان من بيان نفسه ومن فهم بيان غيره إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن». روح المعاني (١٥ / ١٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة، (ح٢٠١٨)، والخطيب البغدادي، (٤/ ٦٣)، وحسنه الألباني – رحمه الله – في السلسلة الصحيحة، (ح٧٩١) وانظر صحيح ابن حبان، (ح٤٨٢).

(٣) رياض الصالحين، ص (٣٦٥).

ومن أثر المنهج الوسطي في هذه المسألة ما انتهجه علماء الأمّة في طريقة التأليف والخطابة والوعظ، فالأوساط العلمية والثقافية تتأثّر إلى حد بعيد باللغة التي تخاطب بها: وأنا أتكلم عن لغة المصطلحات والألفاظ والتراكيب.

إذ يعلم الجميع أن الفقهاء لهم لغة خاصة، وأن المناطقة والمتكلمين لهم لغة خاصة، والمتصوفة لهم لغة خاصة، ولعل شخصا من غيرهم لا يتمكن من الوصول لمرامي المتكلمين بجملهم الخاصة إلا إذا أتقنها ولو في العموم.

ولذلك لا تعجب إذا رأيت فقيهاً يستعصي عليه كتاب منطقي، ولا تعجب إذا رأيت نحويا لا يدرك كلام الفقهاء، ولا تعجب إذا وجدت عالما ينقطع في بيداء ألفاظ المتصوفة، بل إنك تستطيع أن تميز اللغة التي يكلمك بها شخص واحد في مقامين مختلفين.

والذي أريد قوله من هذه التقدمة: إن مسألة العبارة واللفظ لا تعدو كونها وسيلة لإيصال المعنى المراد، ولكنها ليست هامشية أو ثانوية في عملية التوجيه والتربية.

بل المعاني الفاضلة الشرعية يجب أن يسلك في إيصالها للمتلقي عبر القنوات اللفظية السائدة، لأن ذلك أحرى بالفهم وحسن الامتثال من جهة.

ولأن فيه تأليفا بين المتلقي واللفظ، فلا يكون اللفظ سببا في نفرة المتلقي عن تلك المعاني من جهة أخرى ليست أقل من الأولى أهمية.

وإذا تدبرت قليلا وتأملت عرفت أن جزءا كبيرا من الخلاف الاعتقادي الذي حدث في الأمة راجع إلى التحدث بالألفاظ والمصطلحات الحادثة الغريبة على الناس في بيان ماهو أهم المهمات من أمور التوحيد والامتثال، فانقسم الناس قسمين: قسم عجز عن فهم اللغة الجديدة وكان المتكلمون بها هم غالب المتولين لعصا التوجيه والتعليم، فأعرض عن التعلم وانصرف لغيره.

وقسم انساقوا مع اللغة الجديدة وأتقنوها لكنهم للأسف جعلوها أصلا في باب التعلم والتعليم، فكانت لغة المتكلمين هي اللغة السائدة فأفسدت على أهل العلوم علومهم من جهتين:[١]

الأولى: أنها زادت من صعوبات التعلم فسببت إعراض الناس عن الفن المعين، وانظر كمثال كتب أصول الفقه، والتوحيد كذلك.

والأخرى: أن هذه الألفاظ تحتمل كثيرا من المعاني الباطلة التي استعملها المبتدعة في إسقاط العلوم الأساسية كالتفسير والأصول عليها: فأصبحت ترى النصوص الشرعية تفسر بحسب الاصطلاح الحادث: وهو ما نبه عليه كثيرا شيخ الإسلام – رحمه الله –.

وقد كان جزء من المشروع الإصلاحي الكبير الذي قام به شيخ الإسلام – رحمه الله – وأتباعه: إعادة صياغة العلوم الشرعية وخوادمها بالأسلوب العربي الذي يفهمه العامة من الناس قبل الخاصة: سواء في المعتقد والتوحيد أو في الفقه وأصوله: فأزاحوا عن المعاني الأساسية ركام الألفاظ الغريبة والمصطلحات التعسفية التي أخفت وغطت بريق المعنى الفاضل وسذاجته.

لكن هل حارب شيخ الإسلام تلك اللغة العرفية الحادثة ورفضها مطلقا ؟

الجواب: كما هو معلوم أنه – رحمه الله – تكلم بتلك اللغة مع أصحاب كل فن واستخدمها في البيان والحوار معهم، وهذا بطبيعة الحال لأن أصحاب الفنون المختلفة بسبب إغراقهم أصبحوا يستغلق عليهم كثير من الحق إذا سمعوه باللغة العربية العادية: فكان من واجب الدعاة إلى الحق – ويمثلهم هنا شيخ الإسلام – أن يتقنوا أدوات اللغة المعينة، لكي يستطيعوا تبليغ الحق لهذه الشرائح، وليقيموا حجة الله، وما تعين سبيلا لإقامة الواجب، أخذ حكمه.

ولذلك لا ينكر أن تجد لأصحاب الدعوة الحق كلاما بلغات لا يعرفها العامة وربما طلاب العلم إذا كان المراد تضمين تلك الألفاظ معاني فاضلة: وكذلك إزالة الاشتباه وتفصيل المعاني من الألفاظ المبهمة والمجملة.

---

(١) انظر كلام الشهرستاني في الملل ص (٨١).

ثم ماذا ؟

شريطة أن لا تصبح تلك اللغة هي الأصل في باب التوجيه والتربية، بل يكون الأصل مخاطبة الناس على قدر عقولهم وفهومهم إذا كنا فعلا حريصين على هداية الناس وإبعادهم عن الإبهام والإجمال المنافي لشرط البيان في الدعوة إلى الله.

والذي دعاني للتركيز على هذا أني رأيت مقالات شتى لبعض الدعاة وعجبت لأن هؤلاء الدعاة يصرون على استعمال الخطاب الفكري الذي لا يتقنه أكثر الناس، مع أن المعاني التي يدعون إليها يحتاجها كل مسلم.

وليس مجال الإنكار هنا على استعمال الخطاب الفكري عموما، بل على العكس، فنحن نعرف أن شريحة كبيرة من المثقفين في العالم الإسلامي انحرفت بهم السفن عن طريق الله بسبب موجة من الكتب الفكرية، التي استخدمت تلك اللغة بقوة بعد أن ابتعد الناس عن لغة القرآن، في فرض المناهج الدخيلة الغريبة والترويج لها، وصبغها بالصبغة المعرفية والعقلية بل والدينية أحيانا.

وهذه الشرائح قد يصعب عليها من حيث واقعها أو ثقافتها أن تتلقى الحق من مصادر علمية صرفة: فلابد لمخاطبتها إذا من الأسلوب الذي تفهمه وتعيه ويوقعها في الحرج أمام أنفسها ويعري لها الحق أمام عينيها، ولهذا نعول كثيرا على كتاب في الساحة الإسلامية كان لهم أثر بارز في هذا المجال، فقرروا المعاني الشرعية والأصول السلفية بخطاب فكري راق لايملك المثقف المنصف أمامه إلا التسليم والخضوع، إلا من أضله الله على علم.

قال شيخ الإسلام: «وأما من جهة العقل فلأن اللفظ مجمل يدخل فيه نافيه معاني يجب أثباتها لله، ويدخل فيه مثبته ما ينزه الله تعالى عنه، فإذا لم يدر مراد المتكلم به لم ينف ولم يثبت، وإذا فسر مراده قبل الحق وعبر عنه بالعبارات الشرعية ورد الباطل، **وإن تكلم بلفظ لم يرد عن الشارع للحاجة إلى إفهام المخاطب بلغته مع ظهور المعنى الصحيح لم يكن بذلك بأس**، فإنه يجوز ترجمة القرآن والحديث للحاجة إلى الإفهام وكثير ممن قد تعود عبارة معينة إن لم يخاطب بها لم يفهم ولم يظهر له صحة القول وفساده وربما نسب المخاطب إلى أنه لا يفهم ما يقول.

وأكثر الخائضين في الكلام والفلسفة من هذا الضرب، ترى أحدهم يذكر له المعاني الصحيحة بالنصوص الشرعية فلا يقبلونها، لظنهم أن في عبارتهم من المعاني ما ليس في تلك، فإذا أخذ المعنى الذي دل عليه الشرع، وصيغ بلغتهم وبين به بطلان قولهم المناقض للمعنى الشرعي خضعوا لذلك وأذعنوا له، كالتركي والبربري والرومي والفارسي الذي يخاطبه بالقرآن العربي ويفسره فلا يفهمه حتى يترجم له شيئا بلغته فيعظم سروره وفرحه ويقبل الحق ويرجع عن باطله لأن المعاني التي جاء بها الرسول أكمل المعاني، وأحسنها، وأصحها، لكن هذا يحتاج إلى كمال المعرفة لهذا ولهذا، كالترجمان الذي يريد أن يكون حاذقا في فهم اللغتين»[١].

لكن مجال الإنكار أن يكون هذا الخطاب أصلا في توجيه الناشئة والناس عامة لمعاني الشريعة، فهذا فيه خطأ كبير، وأقله إبعاد المتعلمين والمتلقين عن لغة القرآن وأساليب النصوص الشرعية والنصوص المفسرة لها، فتتسبب من حيث لا نشعر في إحداث عجمة متسترة في العالم العربي.

نحتاج كثيرا إلى وقفة أمام هذا الموضوع إذ أنك ترى إعجابا كبيرا بهذه اللغة وإصرارا على استعمالها في كافة حواراتنا حتى مع بعضنا البعض، وهذا خطأ في رأيي، وعلى أهل العلم من الدعاة أن يتنبهوا لهذا المزلق فلا ينسيهم حرصهم على دعوة الناس والشمولية في الطرح، وتوسيع نطاق الحوار مع الناس بكافة شرائحهم، أقول لا ينسيهم ذلك أنهم أهل علم وفقه، وأهل العلم لهم لفظهم ولهم لغتهم التي يميزها الجميع وهي الأصل وغيرها استثناء: ولا يجوز أن يكون الاستثناء أصلا.

٥ - الثبات والتغير:

وإذا وصل الكلام بنا إلى الجمود والمرونة جرنا ذلك إلى الحديث عن خاصية عظيمة من خصائص الشريعة المحمدية، وهي أنها جاءت تحمل خصائص وسمات الثبات، ومع هذا فهي في الوقت نفسه صالحة لكل زمان ومكان.

---

(١) منهاج السنة، (٢ / ٦١٢).

بمعنى أن الشريعة في جوانب منها ثابتة لا تتغير، وفي جانب منها تقبل التغير وفق المصلحة والمفسدة، ليس لأنها توافق أهواء الناس ورغباتهم، وإنما لأنها في جانب كبير منها مؤسس وفق نظام مقاصدي فريد يراعي المصلحة والمفسدة.

فهي بهذا تقف موقفا وسطا بين أن تكون أحكام جامدة تستعصي على المستجدات، وتتضارب مع مصالح الإنسان في الأرض، وبين أن تكون لعبة بيد البشر بل الأقوياء منهم فقط – كما يحدث في الدساتير البشرية – يغيرون فيها حسب أهوائهم ومصالحهم، وهذا هو التغيير الذي يسلب القيم قيمتها والأحكام أهميتها وقدسيتها، فيغدو الحلال حراما، والحرام حراما، وتنقلب الفضيلة رذيلة، والرذيلة فضيلة، وينتكس قانون الأخلاق، مؤذنا بفساد عريض، كما قال ﷺ:«**سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة ؟ قال: الرجل التافه، يتكلم في أمر العامة**»(١).

وإذا غدونا نتلمس جوانب الثبات والتغير في الشريعة وجدنا أن الجانب الذي يغلب عليه الاعتقاد أو التعبد أو يتمحض فيه هو جانب ثابت لا يتغير.

وكذلك الجانب الأخلاقي في كلياته ثابت لا يتغير.

فالعقائد والأخبار التي جاءت في القرآن والسنة، من الثابت الذي لا يقبل الدخول في دائرة النظر الاجتهادي.

وكذلك العبادات التي جاءت الشريعة بها كأركان الإسلام مثلا هي من الثوابت التي لا تقبل التغير.

ومثلها منظومة الأخلاق في كلياتها لا تتغير، فحسنها يظل حسنا، وقبيحها يظل قبيحا، ولو تغير الزمان.

---

(١) أخرجه أحمد، (ح٧٨٥٢)، وابن ماجة في الفتن، (ح٤٠٣٦) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني – رحمه الله – في الصحيحة (ح١٨٨٧).

ومن أدلة ذلك قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، فالدين قد كمل، والنعمة تمت، والتغيير فيما قد كمل نقص، وما لم يكن يومئذ دينا فلن يكون بعد دينا، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي يلزم عنه عدم التصديق بأن الله أكمل الدين، وهو في الوقت نفسه رفض لنعمة الله التي أتمها علينا.

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩].

ففي هذه الآية ثلاثة أمور:

١ – الأمر بالحكم بما أنزل الله (الشريعة).

٢ – بيان أن ترك الحكم بها إنما هو اتباع للأهواء.

٣ – بيان أن من الفتنة ترك بعض الشريعة.

وهذا الأمر للنبي ﷺ، وأمته من بعده، فكلهم مخاطب به، ولا شك أن القول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد للحكم بغير ما أنزل الله، ومؤد لترك بعض الشريعة، وهذا اتباع للهوى ووقوع في الفتنة، ولا يسلم المرء من ذلك إلا بالقول بثبات الحكم الشرعي وعدم تغييره.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

فأمر رسوله ﷺ باتباع الشريعة التي أوحاها إليه، وبين أن ترك شيء من هذه الشريعة إنما هو اتباع لأهواء الذين لا يعلمون، ولا يمكن اتباع الشريعة كاملة مع القول بعدم ثبات الأحكام الشرعية أو بعضها وجواز تغييرها، ثم بين الله تعالى أن هؤلاء الداعين إلى ترك اتباع الشريعة بتغيير الحكم الشرعي ظالمون، وأنهم لن يغنوا عن أحد شيئا أو يدفعوا عنه شيئا من عذاب الله، فقال تعالى عقيب الآية المتقدمة: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الجاثية:١٩].

وقد دلت السنة على ما دل عليه القرآن في ذلك، فمن السنة:

١ - قوله ﷺ: « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١]، أي مردود عليه، والقول بتغيير الحكم الشرعي إحداث في الدين لم يأت به كتاب ولا سنة، ولا أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ، فهو مردود على صاحبه.

٢ - قوله ﷺ: « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة** »[٢].

فبين الرسول ﷺ أن النجاة في اتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين الذين اتبعوه وساروا على سنته، وأمر أن يعض على ذلك بالنواجذ تمسكا بها، وعدم الحيد عنها قيد أنملة، وحذر من محدثات الأمور، وبين أن المحدثات في الدين ضلالة، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي يخالف كل ذلك، فهو يخالف التمسك بالسنة ويوقع في المحدثات.

« فلذلك لا تجد فيها بعد كمالها نسخا، ولا تخصيصا لعمومها، ولا تقييدا لإطلاقها، ولا رفعا لحكم من أحكامها، لا بحسب عموم المكلفين، ولا بحسب خصوص بعضهم، ولا بحسب زمان دون زمان ولا حال دون حال، بل ما أثبت سببا فهو سبب أبدا لا يرتفع، وما كان شرطا فهو أبدا شرط، وما كان واجبا فهو واجب أبدا أو مندوبا فمندوب، وهكذا جميع الأحكام فلا زوال لها ولا تبدل، ولو فرض بقاء التكليف إلى غير نهاية لكانت أحكامها كذلك »[٣].

بينما نجد أن الجانب الذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض أو يحكم معاملاتهم هو جانب فيه مرونة، وقد تتغير فيه النظرة الشرعية من مكان لآخر أو من زمان لآخر.

فغالب هذا الجانب تحكمه نصوص عامة، أو قواعد عامة، أو أحكام معللة بالمصلحة.

---

(١) تقدّم.

(٢) تقدّم.

(٣) الموافقات للشاطبي، (١/ ٧٨ - ٧٩).

ويستثنى من هذا بطبيعة الحال ما جاء فيه نص بخصوصه، فحينئذ نعلم يقينا أن الشريعة ما تدخلت في الحادثة المعينة بحكم خاص إلا منعا للنظر البشري فيها.

وإذا أردنا أن نعبر بتعبير أدق فإن الشريعة بأحكامها ونصوصها لا تتغير، وإنما الذي يتغير هو الفتوى، بمعنى أن تنزيل الحكم العام أو النص العام على القضية المعينة هو الذي قد يتغير بحسب الظروف والملابسات التي تحف بالواقعة.

قال ابن القيم – رحمه الله: «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد » ثم قال: « وهذا فصل عظيم النفع جدا، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج، والمشقة،وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي هي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها،وأساسها على الحكم،ومصالح العباد في المعاش والمعاد»[١].

ويقول القرافي[٢]– رحمه الله –: «إن إجراء الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع،وجهالة في الدين بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة»[٣].

– أسباب تغير الفتوى :

وإذا أردنا أن نتلمس أسباب تغير الفتوى المعتبرة شرعا وجدنا منها ما يلي:

١ – تغير الزمان:

إن تغير الفتوى بتغير الزمان مما شهدت له النصوص الشرعية، فالتدرج في الشريعة فيه دلالة على تغير الفتوى بتغير الزمان،والزمان ليس هو سبب تغير الفتوى بحد ذاته، إنما بما فيه من

---

(١) أعلام الموقعين، (٣/ ١١).

(٢) حمد بن إدريس بن عبد الرحمن أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي: من علماء المالكية نسبته إلى قبيلة صنهاجة (من برابرة المغرب) وإلى القرافة (المحلة المجاورة لقبر الامام الشافعي) بالقاهرة. وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. له مصنفات جليلة في الفقه والاصول، منها (أنوار البروق في أنواء الفروق) توفي سنة (٦٨٤هـ) الأعلام للزركلي (١/ ٩٤-٩٥).

(٣) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، ص (٢١٨).

ملابسات اقتضت ذلك، ومن أمثلته: الإبراد بالصلاة زمن شدة الحر، الصلاة في البيوت في الليلة الباردة مع أن الأصل وجوب الصلاة في المساجد جماعة، ومن تطبيقاته: تحريم بيع السلاح في زمن الفتنة مع أن الأصل جواز بيعه[١].

٢- تغير المكان:

٥ كذلك فإن الفتوى تتغير بتغير المكان مما جاءت به الشريعة، ويدل لذلك ما رواه البخاري معلقا «قال طاووس[٢]: قال معاذ - رضي الله عنه - لأهل اليمن: ائتوني بعرض ثياب خميص أو لبيس في الصدقة مكان الشعير،والذرة أهون عليكم، وخير لأصحاب النبي ﷺ بالمدينة»[٣].

ومما يدل عليه أيضا إخراج زكاة الفطر من قوت البلد، لأنه أنفع لفقراء البلد وأيسر على المتصدقين.

١٠ ٣- تغير الأشخاص:

فمن المعلوم أن المكلفين لا يستوون قوة وضعفا، وغنى وفقرا،ولذا فإن الشارع الحكيم راعى هذا الجانب، ولكنه لم يخص أحدا لشخصه، وإنما لوصفه.

ويدل لذلك قوله ﷺ لمن به مرض: «**صل قائما، فإن لم تستطع، فقاعدا، فإن لم تستطع،فعلى جنب**»[٤].

---

(١) أعلام الموقعين (١/ ٤٢)، (٣/ ١٥٨).

(٢) طاوس بن كيسان اليماني، ابو عبدالرحمن الحميري مولاهم، يقال: اسمه ذكوان وطاوس لقب له، ثقة فقيه فاضل، مات سنة (١٠٦ هـ)، سير أعلام النبلاء، (٥/ ٣٨).

(٣) البخاري كتاب الزكاة باب العرض في الزكاة، معلقا، قال الحافظ في الفتح: «هذا التعليق صحيح الإسناد إلى طاوس لكن طاوس لم يسمع من معاذ فهو منقطع فلا يغتر بقول من قال ذكره البخاري بالتعليق الجازم فهو صحيح عنده لأن ذلك لا يفيد إلا الصحة إلى من علق عنه وأما باقي الإسناد فلا إلا أن إيراده له في معرض الاحتجاج به يقتضي قوته عنده وكأنه عضده عنده الأحاديث التي ذكرها في الباب» فتح الباري، (٣ / ٣١٢)، وانظر تغليق التعليق، (٣/ ١٣).

(٤) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة، (ح١١٧).

٤ – تغير العرف والعادة:

والعرف هو: «عادة جمهور قوم في قول أو فعل»[١]،والعادة هي العرف، والعرف من أسباب تغير الفتوى شريطة ألا يصادم نصا شرعيا،ولو تعارف عليه أهل الأرض جميعا،كالربا والسرقة وشرب الخمر.

٥ والدليل على تغير الفتوى بتغير العرف قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النساء:١٩].
وقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة:٢٣٦].

٥ – المصلحة:

والمصلحة باعتبار الحكم الشرعي على ثلاثة أقسام:

١٠ أ– المصالح المعتبرة شرعا: وهي التي تظافرت الأدلة على رعايتها، فهي حجة صحيحة لا خلاف بين أهل العلم في إعمالها، وذلك كأن ينص الشارع على حكم، ويجعل مناط الحكم تحقيق مصلحة ما، أو دفع مفسدة ما.

ب– المصالح الملغاة شرعا:وهي المصالح التي شهد الشارع بردها وأقام الأدلة على إلغائها، وهذا النوع من المصالح لا سبيل لقبوله، ولا خلاف في إهماله عند الجميع.

١٥ مثال ذلك:توهم مصلحة التخفيف عن النفس من مرض أو ألم شديد بالانتحار لأن هذه المصلحة رفضها الشارع وردها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء:٢٩].

ج–المصالح المرسلة: وهي التي لم يقم دليل من الشرع على اعتبارها، ولا على إلغائها وسميت مرسلة لأن الشارع أرسلها فلم يقيدها باعتبار ولا إلغاء[٢].

ودليل اعتبار المصلحة المرسلة عمل الصحابة – رضي الله عنهم – حيث حدث في زمانهم ما لم ٢٠ يكن في زمن النبيّ ﷺ وجدت أمور، فضربوا النقود، وشادوا السجون، واتخذوا الدواوين،

(١) المدخل الفقهي العام للزرقا، (٢/ ٨٤٠)
(٢) انظر (روضة الناظر) لابن قدامة، مع الشرح (٢/ ٤١١).

وجمعوا المصحف إلى غير ذلك مما يطول حصره، وقد أجمع الصحابة على قبولها بما لا يدع ريبا ولا شكا [١].

ومع هذا فإن موضوع المصالح يحتاج إلى فقه دقيق وهو واقع بين خوف الفقهاء والعلماء من أهل السنة، وبين فرح وانتهازية أهل السياسة الظالمة، وأهل الابتداع !

فالفقهاء والعلماء يعرفون ما في فتح باب الاستدلال بالمصلحة والكلام في المقاصد من فتح الباب للإحداث في دين الله بحجة رعاية المصلحة، ولسن القوانين الباطلة والظلم بحجة رعاية المصلحة.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – وهو من الرواد في توظيف رعاية المصالح في بناء الأحكام: «وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به، فإن من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم، وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها، بناء على هذا الأصل، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه، وربما قدم على المصالح المرسلة كلاما بخلاف النصوص.. والقول بالمصالح المرسلة يشرع من الدين ما لم يأذن به الله غالبا.

وهي تشبه من بعض الوجوه مسألة الاستحسان والتحسين العقلي والرأي ونحو ذلك.. وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام، وأهل التصوف، وأهل الرأي، وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعا وحقا وصوابا، ولم يكن كذلك، بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس يحسب كثير منهم أن ما هم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا ومنفعة لهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف:١٠٤] وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا »[٢].

---

(١) الاعتصام ص (٣٩٨) وما بعدها، وانظر أيضا الاستصلاح والمصالح المرسلة للزرقاء ص (٤٤) وما بعدها.

(٢) الفتاوى باختصار (١١ / ٣٤٣ـ٣٤٥).

ثالثا: الأخلاق والسلوك:

الأخلاق والسلوك البشري مما أولاه الإسلام عناية فائقة، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[١]، والوسطية في الأخلاق تظهر بجلاء دون الحاجة إلى الدليل الشرعي، فإن الخلق الحسن ما هو إلا قدر معتدل من غريزة بشرية معينة، إذا زادت عن حدها أو قلت أورث ذلك خلقا ذميما، قال ابن القيم – رحمه الله – تعالى –: «حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب... وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة، فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة، والبخل، والخسة، واللؤم، والذل، والحرص، والشح، وسفساف الأمور والأخلاق، ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم، والغضب، والحدة، والفحش، والطيش»[٢].

وقال – أيضا –: « للأخلاق حد متى جاوزته كان عدوانا، ومتى قصرت عنه كان نقصا ومهانة.

فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص وهذا كماله، فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

وللحرص حد وهو الكفاية من أمور الدنيا، وحصول البلاغ منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك، فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى

---

(١) أخرجه أحمد، (ح٨٧٢٩)، والحاكم (٢/ ٦١٣) وغيرهما، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (ح٤٥).

(٢) مدارج السالكين، (٢ / ٣٢٠ – ٣٢٤).

نقصت عنه ولم يكن فراغا في طلب الكمال والفضل كانت ضعفا وعجزا ومهانة»[١].

وهذا يدل على أن أصول الأخلاق كلها مخلوقة في الإنسان، أي في أصل خلقته، ومقصودنا بذلك أن النفس خلق فيها الاستعداد للتخلق بخلق ما، ثم وبحسب عوامل معينة تتصف النفس بهذا الخلق المعين سواء كان حسنا أم سيئا، وذلك بحسب الإفراط أو التفريط، ولكن كيف تتصف النفس بهذا الخلق فعلا بأن تظهر آثاره على الشخص المتصف به، ويصبح هيئة راسخة في نفسه ؟

هناك سببان لظهور خلق معين على الإنسان:

أولها: الخلقة الإلهية، والكمال الفطري، بحيث يولد الإنسان كامل العقل حسن الخلق، وهذا مشاهد معروف، أما في الأنبياء فظاهر، وأما في غيرهم فقد رأينا الطفل السخي من صغره، والبخيل من صغره، والجبان من صغره والشجاع من صغره، ويؤكده أنا رأينا الطفل السخي في بيت البخيل، والطفل البخيل في بيت الكريم، فأي دلالة أكبر من هذا على أن من الناس من يخلقه الله مجبولا على صفة من الصفات.

ومما يدل عليه أكثر قوله ﷺ لأشج عبدالقيس [٢]:«**إن فيك خلتين يحبهما الله الحلم والأناة**»، قال: يا رسول الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما ؟ قال: «**بل الله جبلك عليهما** »، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله »[٣].

وفي المسند عن أشج ابن عصر: قال لي رسول الله ﷺ: «**إن فيك خلتين يحبهما الله – عز وجل** – »، قلت: ما هما ؟ قال: «**الحلم والحياء**»، قلت: أقديما كان في أم حديثا ؟ قال: «**بل قديما**»، قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما »[٤].

---

(١) الفوائد بحذف واختصار، ص (٢٥٠ –٢٥٤).

(٢) المنذر بن عائذ – وقيل: ابن عبيد العبدي وقيل: العصري، صحابي نزل البصرة ومات بها، معرفة الصحابة لأبي نعيم، (١/ ٣٥٨).

(٣) أخرجه بهذا السياق أبوادود في الأدب، (ح٥٢٢٥).

(٤) مسند أحمد، (ح١٧٣٧٣)، وانظر صحيح الأدب المفرد للألباني – رحمه الله –، ص (٢١٨–٢١٩).

ففي الحديث صراحة أن الأشج قد جبله الله على هاتين الخلتين، ومعنى ذلك أن الله – تعالى – رسخ في نفسه هاتين الخلتين فهو يعمل بهما بمقتضى جبلته، لا أنه يتصنعها ويظهرها دون أن تكون صفة باطنه كذلك.

الثاني: اكتساب الخلق بالمجاهدة والرياضة، والمراد حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب، حتى يصبح ذلك يسيرا سهلا يتعاطاه بلا كلفة ولا روية، فمن أراد أن يتصف بصفة الجود فطريقه أن يتكلف بذل المال ويواظب عليه ويلازمه حتى يصير ذلك طبعا له فيصير به جوادا، وهكذا.

وبذلك فقد يصبح البخل خلقا بعد أن لم يكن، إذا اعتاد الإنسان الإمساك ولو بسبب أو مانع غير أنه تكثر أسبابه وشواغله حتى يصبح الإمساك طبعا فيه وخلقا لا ينفك عنه.

قال ابن القيم – رحمه الله – تعالى –: « فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيا أو هو أمر خارج عن الكسب ؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيا بالتخلق والتكلف، حتى يصير له سجية وملكة، وقد قال النبيّ ﷺ لأشج عبدالقيس – رضي الله عنه –: إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة، فقال: أخلقين تخلقت بهما، أم جبلني الله عليهما ؟ فقال: بل جبلك الله عليهما، فقال: الحمدلله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله » فدل على أن من الخلق ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب، وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: « **اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت** » [(١)] فذكر الكسب والقدر»[(٢)].

وتتجلى وسطية الإسلام في باب الأخلاق أنها جاءت بتأكيد وترسيخ فضائل الأخلاق بالحث عليها والثواب، والعقوبة على مخالفتها ومجانبتها، ولكنها من جهة أخرى قيدتها بحيث لا تؤدي إلى ضرر المتصف بها في دينه أو دنياه، وكذلك أخرجت من بعضها ما كان العرب تعده منها، ومن ذلك مثلا:

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (ح٧٧١)، عن علي– رضي الله عنه –.
(٢) مدارج السالكين، (٢ / ٣٢٨).

الحث والأمر بالخلق الحسن مطلقا، كما قال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا**»[١]، وقال – أيضا –: «**إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[٢].

ومن جهة أخرى فإن الشريعة وإن جاءت بفضيلة الصدق وذم الكذب إلا أنها استثنت مواضع للصدق فيها ضرر أكبر من الكذب كما جاء عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط عنه ﷺ أنه قال: « **ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فيقول خيرا، أو ينمي خيرا**»، وقالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس من الكذب إلا في ثلاث: الإصلاح بين الناس، وحديث الرجل مع امرأته، وحديث المرأة زوجها»[٣].

والنبيﷺمع حثه على العفو والتجاوز – إلا أنه لا يرضى بأن يكون ذلك مدعاة للاستضعاف والاستخفاف، كما جاء عنه ﷺفي قصة أبي عزة الجمحي لما أسره ببدر فعفا عنه ومن عليه على أن لا يقاتل المسلمين بعد ذلك، فأسر مرة أخرى بعد أحد فقال: أقلني يا محمد، فقال النبي ﷺ:«**لا والله، لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمدا مرتين**» ثم أمر الزبير فضرب عنقه[٤].

وفي الكرم والجود والإنفاق – أيضا – جاء النص القرآني بسلوك حال الوسط، قال – تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[الإسراء:٢٩].

---

(١) أخرجه أحمد (ح٧٣٥٤و١٠٤٣٦)، وأبوداود في السنة (ح٤٦٨٢)، والترمذي في الرضاع (ح١١٦٢) وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان (ح٤٧٩)، والحاكم (١/ ٣)، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني، (ح٢٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (ح٢٤٤٩٢) وأبوداود في الأدب (ح٤٧٩٨)، والحاكم (١/ ٦٠)، وابن حبان (ح٤٨٠) وهذا لفظه، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة (ح٧٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في الصلح (ح٢٦٩٢)، ومسلم في البر والصلة (ح٢٦٠٥) دون قول أم كلثوم، وانظر الكلام عليها في السلسلة الصحيحة للألباني (ح٥٤٥).

(٤) انظر البداية والنهاية، (٣/ ٣٤٦-٣٤٧).

بل حتى الإنفاق التعبدي يسري عليه ذلك فقال – تعالى –: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

وفي الشجاعة والحمية والنصرة أقر منها الشرع الحق ونفى الباطل، مع إبقائه اللفظ كما هو، قال عليه الصلاة والسلام::«**انصر أخاك ظالما أو مظلوما**»، قلنا: يا رسول الله نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟ قال: «**تكفه عن الظلم، فذاك نصرك إياه**»[(١)]، وهذا الأمر جاء مهذبا للخلق العربي الذي ينصر أخاه ولو كان ظالما كما قال الأول:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

هذه أمثلة تبين المقصود ولو ذهبنا نتتبع مظاهر وسطية الإسلام في الخلق والسلوك لطال البحث وأخل بهدفه ومقصوده والله أعلم وأحكم.

رابعا: العلاقات الإنسانية:

الإنسان مدني بطبعه، هكذا ذكر العلامة المؤرخ ابن خلدون في مقدمة كتابه العظيم (التاريخ)[(٢)] عن الحكماء، والله سبحانه قرر ذلك في كتابه وأكده، قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال – تعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

وهذا يعني أن الإنسان لم يخلق ليعيش وحده في حالة انفراد، بل خلق العبد ليبتلى ويبتلى به، خلق ليكون مع غيره من تجمعات بشرية تتفق في مكوناتها أحيانا وتختلف أحيانا أخرى، وهذه

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (ح٥١٦٦) عن ابن عمر، وهو عند البخاري في المظالم (ح٢٤٤٣و٢٤٤٤) عن أنس، عند مسلم عن جابر (ح٢٥٨٤).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص (٤١).

المكونات تتنوع بين مكونات طبيعية خلقية وبين مكونات اجتماعية، وبين مكونات ثقافية ودينية، وبين مكونات اقتصادية وسياسية.

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بمنظومة علاقات تربط المسلم بغيره من البشر الذين يتفق معهم أو يختلف في أي مكون مما سبق بروابط إما تشده إليهم وإما تبقيه منهم على مسافة ولا تقطعه عنهم البتة لأن هذا جزء من الابتلاء والحكمة الربانية، كما قال – تعالى –: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢].

وقال – تعالى –: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[هود:١١٩].

ولقد جاء المنهج الإسلامي وسطيا يحقق للمسلم غايته وأهدافه المشروعة من خلال هذه التنظيم للعلاقات الإنسانية، وقد تجلت وسطيته في جوانب عديدة، منها:

– العزلة والخلطة:

لم يطلب الشرع من المؤمن أن ينعزل بنفسه عمن حوله، لم يأمر بذلك ولم يحبذه، بل المطلوب من الإنسان شرعا أن يعيش مع غيره وأن يتفاعل معه بموجب السنن الكونية والسنن الشرعية التي جاءت بها الشريعة وسطية معتدلة بين الخلطة الكاملة التي تذوب معها وفيها وبها شخصية الإنسان وانتماؤه واستقلاله، وبين العزلة التامة التي يتوقف فيها نمو الإنسان شعوريا وثقافيا وحضاريا ودينيا – أيضا –.

ومن النصوص التي جاءت بذلك قوله ﷺ: « **المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[(١)].

(١) أخرجه أحمد (ح٥٠٠٢و٢٢٥٨٨)، والترمذي في صفة القيامة (ح٢٥٠٧) وابن ماجة في الفتنة (ح٤٠٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة، (٩٣٩).

وجاء الشرع بالحث على صلة الرحم، بل جعل قطع الرحم من موجبات اللعن، كما قال - تعالى -: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[محمد:٢٣].

ورغب الشرع بالتزاور بين المسلمين وعيادة المرضى وإجابة الدعوة كما قال ﷺ: «**حق المسلم على المسلم ست، قيل وما هن يا رسول الله قال إذا لقيته فسلم عليه وإذا دعاك فأجبه وإذا استنصحك فانصح له وإذا عطس فحمد الله فشمته وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه**»(١).

وقد كان من دأبه ﷺ زيارة جيرانه وأقربائه ولو كانوا غير مسلمين، كما جاء عن أنس - رضي الله عنه- أن غلاما من اليهود كان مرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: « **أسلم** »، فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم فأسلم، فقام النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»(٢).

ومع ذلك فقد قيد الشرع هذه الخلطة مع الناس بقيود تضمن الحفاظ على شخصية المؤمن وإبقائها بعيدا عن تأثير الخلطة السيئة، فقد جاء في القرآن قوله - تعالى -: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[النساء:١٤٠].

ونهى الشرع عن الجلوس في مجالس اللهو والمنكر، وأمر العبد إما بالإنكار وإما بالهجران، قال - تعالى -: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[المائدة:٧٩].

وصح عنه ﷺ أنه قال: « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها**

(١) أخرجه مسلم في السلام، (ح٢١٦٢).
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، (ح ١٣٥٦).

الخمر»[١].

كما نهى الشارع الحكيم عن الإقامة الدائمة في بلاد المشركين لغير غرض شرعي [٢]، قال ﷺ: «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، لا تراءى نارهما**»[٣].

يقول الأستاذ محمد عمارة: « وفي الموقف من العلاقات بين الحضارات تقدم الوسطية الإسلامية منهاج التفاعل الذي هو وسط بين غلو في الانغلاق والعزلة، وبين التبعية والتقليد، ففي التفاعل استلهام لكل ما هو مشترك إنساني عام، مع التمايز في الخصوصيات المتعلقة بالهويات العقدية والثقافية».

قال شيخ الإسلام رحمه الله: « فهذه المسألة وإن كان الناس يتنازعون فيها، إما نزاعا كليا وإما حاليا، فحقيقة الأمر: أن الخلطة تارة تكون واجبة أو مستحبة، والشخص الواحد قد يكون مأمورا بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارة.

وجماع ذلك أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها، فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات، كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف، والاستسقاء، ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله.

وكذلك الاختلاط بهم في الحج، وفي غزو الكفار والخوارج المارقين، وإن كان أئمة ذلك فجارا، وإن كان في تلك الجماعات فجار، وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيمانا، إما لانتفاعه به، وإما لنفعه له، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (ح١٢٦) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخرجه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أحمد (ح١٤٢٤١)، والترمذي في الأدب (ح٢٨٠١)، والحاكم (٤/٢٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في الإرواء بشواهده (ح١٩٤٩).

(٢) كالاستطباب والعلم والتجارة ونحوها.

(٣) أخرجه أبوداود في الجهاد (ح٢٦٤٥)، والترمذي في السير (ح١٦٠٤)، والنسائي في القسامة (ح ٤٧٨٠)، وصححه الشيخ الألباني بهذا اللفظ دون زيادة وردت في بعض الروايات، انظر الإرواء (ح١٢٠٧).

ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته، كما قال طاووس: (نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه)، وإما في غير بيته.

فاختيار المخالطة مطلقا خطأ، واختيار الانفراد مطلقا خطأ، وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا، وهذا، وما هو الأصلح له في كل حال، فهذا يحتاج إلى نظر خاص»[(١)].

- الحب والبغض والولاء والبراء:

الحب والبغض من العلاقات والروابط التي يتعلق الناس ببعضهم البعض من خلالها، وينشأ عنها الولاء للمحبوب والبراء من المبغوض.

وهذه المشاعر بالذات جاء الإسلام بالتأكيد على الوسطية فيها، من خلال إعطاء المحبوب حقه دون زيادة، والمبغوض حقه دون نقصان.

فقد جبلت النفس البشرية على منافرة المبغوض مما يؤدي إلى العدوان عليه، وموافقة المحبوب مما يؤدي إلى المبالغة فيه.

والإسلام يؤكد على أن تكون المحبة والبغض في إطارهما الشرعي، أي أن الإسلام لا يحجر على المرء أن يحب من شاء ولا أن يبغض من شاء فكل ذلك مما يكون عادة من غير إرادة الإنسان، لكن التكليف واقع على فعل الإنسان وقوله مما يظهر منه، فهذا الذي يحاسب عليه العبد، والسنة النبوية دلت عليه في عدة مواقف:

فمن ذلك قوله ﷺ في دعائه: «**وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا**»[(٢)].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة:٢].

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/ ٤٢٥).

(٢) أخرجه أحمد، (ح١٧٨٦١)،و النسائي في الصلاة، (ح١٣٠٥)، والبزار، (ح١٣٩٢) عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصححه الألباني - رحمه الله - في تعليقه على سنن النسائي.

وقد جاء عن بعض الصحابة أنهم قالوا: أنزلوا الناس منازلهم[١].

وطبق ذلك رسول الله ﷺ فقال لمن بالغ في حبه فرفعه فوق مستوى نبوته:«**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله**»[٢].

وكما تجلت وسطية الإسلام في ضبط آثار الحب والبغض تجلت – أيضا – في الحث على عدم المبالغة فيهما كما جاء عن علي –رضي الله عنه–: «**أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، و أبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما**»[٣].

إن التفريط في منهج الوسطية هنا يوقع الأمة في إشكالات، بل وقع من ذلك فتن وخلافات، ونزاع سفك فيه الدم الحرام، ونهب المال المحترم، وانتهك العرض المعصوم، كل ذلك سببه الغلو أو الجفاء في حق شخص من الناس بين من يواليه ومن يعاديه، قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: « الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة.. قد يحصل منه نوع من الاجتهاد، مقرونا بالظن ونوع من الهوى الخفي، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه، وإن كان من أولياء الله المتقين، ومثل هذا إذا وقع **يصير فتنة لطائفتين**: طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل، واتباعه عليه، وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحا في ولايته وتقواه، بل في بره وكونه من أهل الجنة، بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان، **وكلا هذين الطرفين فاسد**.

والخوارج والروافض وغيرهم من ذوي الأهواء دخل عليهم الداخل من هذا، ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم، وأحبه ووالاه، وأعطى الحق حقه، **فيعظم الحق، ويرحم الخلق**، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه، ويبغض من وجه، **هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة**، خلافا للخوارج والمعتزلة، ومن وافقهم »[٤].

---

(١) انظر المقاصد الحسنة للسخاوي، ص (١١٨).
(٢) تقدّم ص (٩٢).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وحسنه الشيخ ناصر الألباني في صحيح الأدب (٩٩٧/ ١٣٢١).
(٤) منهاج السنة، (٤ / ٥٤٣).

ومن أعظم الفتن التي وقعت في الأمة بسبب الخلل في هذا الجانب ما وقع بين الأمة من أجل الموقف من الصحابة الكرام، حتى سطرها المصنفون في العقائد في مصنفاتهم مختصرات ومطولات، وفي هذا يقول الطحاوي[١] في عقيدته المشهورة: « ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم. ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير. وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان »، قال ابن أبي العز[٢]: «قوله: (ولا نفرط في حب أحد منهم) أي: لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم، كما تفعل الشيعة، فنكون من المعتدين، قال – تعالى –: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[النساء:١٧١].

وقوله: (ولا نتبرأ من أحد منهم)، كما فعلت الرافضة ! فعندهم لا ولاء إلا ببراء، أي لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر و عمر – رضي الله عنهما – !! وأهل السنة يوالونهم كلهم، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها، بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب، فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد، كما قال – تعالى –: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا﴾[الجاثية:١٧]»[٣].

– بين الثقة والشك (سوء الظن):

كثير من علاقات الناس ببعضهم يحتاجون فيها إلى مبدأ الثقة، لأن الناس يعدون بعضهم ويخبرون بعضهم، والوعد والخبر يحتاج إلى ثقة السامع بالمتكلم.

كما أن الناس محتاجون إلى أن يأتمن بعضهم بعضا، و– كذلك – في بيعهم وشرائهم يحتاجون إلى مبدأ الثقة.

---

(١) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحجري المصري الطحاوي، العلامة الفقيه المحدث، صنف كثيرا فأجاد ونفع الله به، من أشهر كتبه: (شرح معاني الآثار)، و(شرح مشكل الآثار)، والعقيدة المشهورة، توفي رحمه الله سنة (٣٢١هـ)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧).

(٢) صدر الدين، أبو الحسن علي بن علاء الدين علي بن محمد الأذرعي الصالحي الدمشقي الشهير بـ (ابن أبي العز) نسبة لأحد أجداده، من أشهر كتبه (شرح العقيدة الطحاوية)، و(التنبيه على مشكلات الهداية)، توفي سنة (٧٩٢هـ)، الأعلام للزركلي، (٤/ ٣١٣).

(٣) شرح الطحاوية (٢/ ٦٨٩و٦٩٧).

لكن الإنسان في نفس الوقت مجبول على حب النفس، والطمع، كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١].

كما وصفه خالقه جل وعلا بالظلم والجهل كما قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

وهذا يعني أن نزعة الشر والظلم مغروسة في بني آدم، لا يهذبها ويمنعها من التحكم في سلوكياتهم إلا الإيمان بالله والخوف من عقابه.

وبالتالي فإن هذه الطبيعة وما عرفه الإنسان عن نفسه من نوازع الشر والظلم جعلت الناس يتخذون مبدأ الشك وسوء الظن في الآخرين سببا في الاحتياط لمصالحهم.

ولاشك أن المبالغة في الثقة تخرج بالإنسان عن حد الاعتدال، وتجعله عرضة للسرقة والخديعة وربما القتل.

كما أن المبالغة في الشك وإساءة الظن تحيل الحياة جحيما وتكلف الإنسان الكثير من وقته وجهده، بل هي سبب لتفكك الروابط الإنسانية ونشوب الخلافات.

والإسلام جاء بمنهج وسط في هذا، فأمر بالصدق بين الناس وحرم الكذب، لأن الصدق هو محور الثقة بين الناس، قال ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا**»(١).

(١) أخرجه البخاري في الأدب، (ح٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة (ح٢٦٠٧) واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأمر بالوفاء بالعقود والعهود كما قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، وقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٤].

ومع هذا فقد أمر أن يحتاط الناس لحقوقهم بالتوثيق، مراعاة لنوازع النقص البشري، كما قال - تعالى - في آية الدين: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وأمر النبي ﷺ بتوثيق الدعوى ولو صدرت من أعلم الناس وأتقاهم، قال ﷺ: «**لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه**»(١).

وقال النووي: «وجاء في رواية البيهقي بإسناد حسن أو صحيح، زيادة عن ابن عباس مرفوعا: «**لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر**»(٢).

ونهى الشرع عن إساءة الظن بالمسلمين كما قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

لكن هذا في حال لم يكن هناك أمارة تدعو إلى الشك والتردد، وإلا جاز ذلك وكان محل نظر، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يضع المؤمن نفسه محل الشبه.

ومن فقه الباب عدم الأمن والركون للكفار والمنافقين وإحسان الظن بهم، قال الحكم بن عبدالله: « كانت العرب تقول: العقل التجارب، والحزم سوء الظن »(٣).

وقال ابن حبان: « وأما الذي يستحب من سوء الظن فهو كمن بينه وبينه عداوة في دين أو دنيا يخاف على نفسه مكره فحينئذ يلزمه سوء الظن بمكائده ومكره لئلا يصادفه على غرة بمكره فيهلكه.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، (ح٤٥٥٢)، ومسلم في الأقضية، (ح١٧١١).
(٢) شرح مسلم للنووي (١٢/ ٣).
(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص (٢٢).

وفي ذلك أنشدني الأبرش:

وحسن الظن يحسن في أمور ... ويمكن في عواقبه ندامة
وسوء الظن يسمج في وجوه ... وفيه من سماجته حزامة »[١].

وقال ابن كثير – رحمه الله –: « ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم،.. وهذا من المحظورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير »[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «والفرق بين الاحتراز وسوء الظن أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافرا فهو يحترز بجهده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر، وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التي بها ينجو من المكروه، فالمحترز كالمتسلح المتدرع الذي قد تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته، فهمه في تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به وكلما ساء به الظن أخذ في أنواع العدة والتأهب.

وأما سوء الظن فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس حتى يطفح على لسانه وجوارحه، فهم معه أبدا في الهمز واللمز والطعن والعيب والبغض، يبغضهم ويبغضونه، ويلعنهم ويلعنونه ويحذرهم ويحذرون منه، فالأول يخالطهم ويحترز منهم، والثاني يتجنبهم ويلحقه أذاهم، الأول داخل فيهم بالنصيحة والإحسان مع الاحتراز، والثاني خارج منهم مع الغش والدغل والبغض»[٣].

وكذلك ذكر الفرق بين البله والغفلة وبين سلامة القلب، فقال: « والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده، لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة، فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه.

---

(١) روضة العقلاء، ص (١٢٧).
(٢) تفسير ابن كثير، (١/ ١٧٧).
(٣) الروح، ص (٣٥٤).

والكمال أن يكون القلب عارفا بتفاصيل الشر، سليما من إرادته، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **لست بخب ولا يخدعني الخب**، وكان عمر أعقل من أن يخدع، وأورع من أن يخدع»[١].

- الفرد والمجتمع:

وفي هذا الجانب - أيضا - جاء الإسلام وسط بين الفردية و الجماعية: فنجد في الإسلام توازنا بين حرية الفرد و مصلحة الجماعة، حيث تتكافأ فيه الحقوق و الواجبات.

لقد عجزت الفلسفة اليونانية عن حل عقدة العلاقة بين الفرد و الجماعة، فقد كان أرسطو يؤمن بفردية الانسان، أما أستاذه أفلاطون [٢] فكان يؤمن بالجماعية.

وكان اليهود يؤمنون بالفردية المطلقة، و جاءت المسيحية المحرفة تهتم بنجاة الفرد قبل كل شيء تاركة شأن المجتمع لقيصر.

و في عالمنا اليوم صراع ضخم بين المذهب الفردي (الرأسمالية) و بين المذهب الاشتراكي.

أما الإسلام فجاء وسطا، حيث قرر حرمة الدم فحفظ للفرد حق الحياة، و قرر حرمة العرض فصان للفرد حق الكرامة، و قرر حرمة المال فصان للفرد حق التملك، و قرر حرمة البيت فصان للفرد حق الاستقلال الشخصي، إلى غير ذلك من الحقوق التي كفلها الشرع للأفراد.

و في نفس الوقت فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها، و قيد هذه الحقوق و الحريات الفردية بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة، كما جاء عنه ﷺ قوله: « **لا ضرر و لا ضرار**»[٣].

---

(١) الروح، ص (٣٦٢).

(٢) أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس، آخر المتقدمين الأوائل، معروف بالتوحيد والحكمة، تتلمذ لسقراط، ولما مات سقراط جلس مكانه، كان من أسرة عريقة، كانت مدرسته جامعة التراث اليوناني، توفي سنة (٣٤٧) قبل الميلاد، الملل والنحل (٢/ ٤٠٥) مع الحاشية.

(٣) أخرجه أحمد (ح٢٨٦٢) وابن ماجة في الأحكام (ح٢٣٤١)، والطبراني في الأوسط (ح٣٧٧٧) وفي الكبير (ح١١٥٧٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وله شواهد عن عائشة وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة، وأسانيد الحديث كلها لا تخلو من ضعف، لكن حسنه وقبله العلماء واحتجوا به، انظر السلسلة الصحيحة (ح٢٥٠).

ومثله ما جاء عنه ﷺ أنه قال: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**»(١).

كما أن الفرد مسئول عن الجماعة، و المسلمون مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام، حتى العبادة أضفى عليها الإسلام روحا جماعية بصلاة الجماعة، و الجمعة، و العيدين و الحج، و في مجال الآداب و التقاليد حث الإسلام على تحية الإسلام، و تشميت العاطس، و التزاور، والتهادي، و عيادة المريض، و صلة الأرحام، و تعزية المصاب، و البر و الاحسان، مما يجعل الشعور الجماعي و التفكير و السلوك الجماعي جزءا لا يتجزأ من حياة المسلم.

- دور المرأة في الحياة الاجتماعية:

« **النساء شقائق الرجال** »(٢)، هكذا حسم النبي ﷺ الموقف من المرأة، هذا الموقف الذي لم يكن البشر بحاجة إليه لولا الانحراف الذي حصل في تصور أفراد المجتمعات تجاه المرأة، وهذا أمر قديم جدا سبق عهد الرسالة.

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: « والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلا أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد !

البيت هو المحضن الذي تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده، وليس البيت سجنا كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا، وليس ملتقى عابرا للأبوين والأولاد كما تألف ذلك أوربا حيث الأسر شكل لا موضوع له.

---

(١) أخرجه البخاري في الشركة (ح٢٤٩٣) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (ح٢٥٦٦٣)، وأبوداود في الطهارة (ح٢٣)، والترمذي في الطهارة (ح١١٣) عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (ح٢٨٦٣).

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة، فهي تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع، وقد تشارك الجيش في بعض الخدمات الطبية، وقد تقاتل إن اقتضى الأمر الدفاع، وينبغي أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية.

وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه، في الوقت الذي أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافا شائنا في الذوبان خارج البيت، وضد رسالتها الأولى.

لو التزمنا وسطية الإسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للأمة وأزكى للجنسين معا»[١].

خامسا: العلم والتعليم:

لا يجادل أحد في المكانة التي يحتلها العلم والعلماء في التراث الإسلامي، سواء ذلك الموجود في النص الشرعي، أو الذي يراه الباحث في كتب التاريخ عن مكانة العلماء ودورهم في التركيبة الاجتماعية، والحراك السياسي - أيضا -.

قال الله - تعالى -: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩]، قال القاسمي - رحمه الله -: «في الآية إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم إذ عبر عنهم أولا بـ «القانت» ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ليكون تأكيدا له، وتصريحا بأن غير العامل كأن ليس بعالم، قال القاشاني[٢]: وإنما كان المطيع هو العالم، لأن العلم هو الذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه، وأما المرتسم في حيز التخيل بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه فليس بعلم، إنما هو أمر تصوري لا يغذو القلب ولا يسمن ولا يغني من جوع»[٣].

---

(١) موقع (إسلام أون لاين) على الإنترنت.

(٢) عبد الرزاق (جمال الدين) بن أحمد (كمال الدين) ابن أبي الغنائم محمد الكاشي (أو الكاشاني أو القاشاني): صوفي مفسر، من العلماء، له كتب، منها (السراج الوهاج) في تفسير القرآن، و (شرح فصوص الحكم لابن عربي)، توفي سنة (٧٣٠هـ)، الأعلام للزركلي (٣/ ٣٥٠).

(٣) محاسن التأويل (٦ / ١١٥) بتصرف يسير.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر:٢٨].

وقال – أيضا –: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة:١١].

٥ وعن مجاهد في قوله – تعالى –: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩]، قال: «ليست بالنبوة ولكن الفقه والعلم»[١].

وقال ﷺ: « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** »[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: « **فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر** ١٠ **الكواكب** »[٣].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: «لأن أعلم بابا من العلم – أمر ونهي – أحب إلي من سبعين غزوة في سبيل الله»[٤].

وعن الحسن البصري قال: «لأن أتعلم بابا من العلم فأعلمه مسلما أحب إلي من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله»[٥].

---

(١) صحيح الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ص (١٦).
(٢) أخرجه ابن ماجة في المقدمة (ح ٢٢٤)، عن أنس بن مالك– رضي الله عنه – وصححه الألباني في صحيح الجامع (ح٣٩١٣).
(٣) أخرجه الترمذي في العلم (ح٢٦٨٢)، وأبو داود في العلم (ح٣٦٤١)، وابن ماجة في المقدمة (ح٢٢٢)، وأحمد (٢١٢٠٨)،عن أبي الدرداء– رضي الله عنه –، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (ح٦٢٩٧).
(٤) صحيح الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ص (١٣).
(٥) صحيح الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، ص (١٣).

وقال الشافعي[١]- رحمه الله - تعالى -: « ما تقرب إلى الله عزوجل بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم »[٢].

قال أبو العالية[٣]: « كنت آتي ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فيأخذ بيدي، فيجلسني معه على السرير فتغامزني قريش، ففطن لهم ابن عباس فقال: كذاك العلم يزيد الشريف شرفا، ويجلس المملوك على الأسرة »[٤].

هذه نبذ قليلة مما في تراث المسلمين عن العلم وأهل العلم، وللإسلام في العلم والتعلم منهجا وسطيا يتجلى ويظهر في صور عديدة، منها:

١ - بين الاجتهاد والتقليد:

للحجة والبرهان في المنهج الشرعي قيمة كبرى، إذ الواجب في أصل الشريعة أن لا يتعبد المسلم بعبادة وأن لا يعتقد اعتقادا وأن لا يحرم على نفسه ولا يحل لها إلا بدليل شرعي معتبر، وأن يكون مستنده في التلقي هو الحجة الشرعية المتمثلة في الكتاب والسنة وما يدور في فلكهما لا غير، أي أن على المؤمن الاجتهاد في معرفة الأحكام الشرعية من النص الشرعي، كما قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

وقال - تعالى -: ذاما التقليد والمقلدين: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، وقال - أيضا -: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[الأحزاب:٦٧].

---

(١) محمد بن إدريس بن العباس القرشي ثم المطلبي أبو عبدالله، الإمام عالم العصر ناصر الحديث فقيه الملة، ساد أهل زمانه في الفقه، موصوف بالعقل والدّيانة حتى قال المأمون: قد امتحنت محمد بن إدريس في كل شيء فوجدته كاملا، وهو مجدّد أمر الدّين على راس المئتين، توفي - رحمه الله - سنة (٢٠٤هـ) السير (١٠ / ٥).

(٢) طبقات الشافعية (٢ / ١٢٩).

(٣) رفيع بن مهران الإمام المقرىء الحافظ المفسر الرياحي البصري أحد الأعلام، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة ابي بكر الصدّيق- رضي الله عنه -، قال عن نفسه: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين، وقال: قرأت القرآن على عمر ثلاث مرات، توفي - رحمه الله - سنة (٩٠ أو ٩٣ هـ)، السير (٤ / ٢٠٧).

(٤) صحيح الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ص (١ ٨).

ومع هذا فإن الشريعة الوسط لم توجب الاجتهاد على كل أحد، ولم تجز التقليد لكل أحد، وإنما سلكت في ذلك -كما قلنا - مسلكا وسطا، فأوجبت الاجتهاد على من توفرت له آلته وقامت به القدرة عليه، وأباحت التقليد لمن لم يكن كذلك، هذا من جهة الفاعل.

ومن جهة الفعل المعلوم فإنها أجازت التقليد في مواطن الخلاف وعذرت به،كما في مسائل الطهارة، والصلاة، والصوم، والحج، وغيرها مما اختلف فيه الصحابة والتابعون من بعدهم، فمن كان من الناس لا يملك آلة الاجتهاد فقلد من يثق في علمه ودينه من العلماء فإنه معذور إن شاء الله [1]ممتثل ما أمره الله به في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[النحل:٤٣].

لكنها لم تجزه في مواطن الاتفاق والأصول، ولم تعذر به، فالتقليد لم يكن حجة ولا عذرا لمن قامت عليه الحجة الرسالية ووصله البلاغ فأصر على الشرك والكفر أو البدعة، كما قال - تعالى -: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾[الأعراف:٣٩].

وقال - كذلك -: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[البقرة:١٦٧].

٢ - منزلة العقل والتدبر:

ومن مظاهر وسطية المنهج الإسلامي في جانب العلم والتعلم موقفها من العقل.

---

(١) انظر أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح، ص (١٥٨) وما بعدها.

فجاءت وسطا بين المنهج العقلي الذي يؤله العقل ويجعله السلطان على كل مصادر التلقي، فما أجازه العقل جاز وما منعه منع.

وبين المنهج الذي يلغي العقل ودوره في التلقي والعلم.

وتظهر وسطية المنهج الإسلامي من خلال الإشارة المتكررة في القرآن إلى أهمية التفكر والتدبر، والنظر، والتأمل في آيات الله الكونية والشرعية، وذلك في نصوص كثيرة، كقوله - تعالى -: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد:٢٤].

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[البقرة:٢١٩].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف:١٨٥].

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[النمل:٦٩].

وقوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[العنكبوت:٢٠].

وفي مجال النظر في النصوص الشرعية والحكم بما فيها قال ﷺ: « **إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر** »[(١)].

ومن كلام عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري: «أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، لا يمنعك قضاء قضيته، راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن تراجع الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير

(١) متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما -، أخرجه البخاري في الاعتصام (ح٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية (ح١٧١٦).

من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك، مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، اعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عندك، فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق، فيما ترى»[١].

لكن الإسلام في نفس الوقت لم يطلق الأمر للعقل، لأن العقل في حقيقته آلة، فإذا عملت في مجالها أنتجت خيرا، وأن أعملت في غير محلها أنتجت شرا وأفسدت.

فالشرع جعل للعقل فسحة فيما يملك فيه أبجدياته ومعلوماته الأولية، فلم يجعل الشرع للعقل دور في الحكم على ما جاء به النص، فالنص المحكم حاكم على العقل، ويقتصر دور العقل فيما جاء به النص على التلقي والتطبيق، فالعقل في الأصل له دوران، فهو أولا: يتلقى المعلومة فيعرضها على ميزان الخطأ والصواب، ليحكم عليها، ثم بعد ذلك ينتقل لمرحلة التطبيق والتنزيل بالقبول أو الرد.

فالنص الشرعي يكف العقل عن المرحلة الأولى لأنه كفاه فيها أصلا، ويقصر دوره بعدها على التطبيق والتنزيل.

فإن كان ما في النص خبرا فدور العقل تصديقه والإيمان به.

وإن كان ما في النص أمرا كان دور العقل فيه الاحتيال لتطبيقه وتنزيله وامتثاله، ويصبح من الجرم والخطأ الكبير مصادمة النص بالعقل، ولهذا قال ابن عباس قولته المشهورة: «تكاد تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم قال رسول الله وتقولون: قال أبو بكر وقال عمر»[٢].

أما مالم يأت به النص الشرعي فهو مجال رحب للعقل للنظر والتفكر والتأمل والتحليل والرد والقبول.

ومن مظاهر وسطية الإسلام في العقل أنه أناط به التكليف وأوجب على الإنسان أن لا ينقاد لكل ما يلقى عليه حتى يسأل عن الحجة والبرهان، فلا يكون كما هو في ثقافة البعض كالميت بين

---

(١) أخرجه الدارقطني في الأقضية والأحكام (ح١٥و١٦)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (ح٥٨٧٣) وقال: «وهو كتاب معروف مشهور لابد للقضاة من معرفته والعمل به».

(٢) انظر أعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٣٥٦)، والصواعق المرسلة ص (١٠٦٣).

يدي المغسل فهذا تفريط، و في نفس الوقت لا يجوز له أن يطلق لعقله العنان ليتفكر في كل شيء ويطلب البرهان على كل شيء وفهم كل شيء، فمن المعلومات الشرعية ما لا يصلح أن يقال أو هو مما استأثر الله به، ومن أمثلة ذلك:

قوله ﷺ: «**لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته**»(١).

وفي مجال الأمر والنهي قال – تعالى –: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

وقال – تعالى –: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «كثير من المتكلمة، يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له.

والمعقولات عندهم هي الأصول الكلية الأولية، المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن.

وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية، والمقامات الرفيعة، لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل.

ويمدحون السكر والجنون والوله، وأمورا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها، ممن لم يعلم صدقه، وكلا الطرفين مذموم.

بل العقل شرط في معرفة العلوم،وكمال وصلاح الأعمال،وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلا بذلك، بل هو غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار.

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عزل بالكلية، كانت

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (ح٣٢٧٦)، ومسلم في الإيمان (ح١٣٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الأقوال، والأفعال مع عدمه: أمورا حيوانية، قد يكون فيها محبة، ووجد، وذوق كما قد يحصل للبهيمة.

فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة.

والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها، لحجج عقلية بزعمهم اعتقدوها حقا، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به، والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم»[١].

٣ - ليس كل ما يُعلَم يُعَلّم:

ومن وسطية الإسلام في باب العلم أنه مع حثه على العلم إلا أنه بين أن من العلم ما يضر صاحبه وغيره، فليس كل علم نافعا، قال - تعالى - عن السحر: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٢].

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «من العلم مالا يحمله عقل الانسان فيضره، كما قال علي بن ابي طالب - رضي الله عنه -: «حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[٢]، وقال عبد الله بن مسعود: «ما من رجل يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في العلم معلقا في: (باب من خص بالعلم قوما دون قوم)، وأردفه بإسناده، (ح١٢٧) قال الحافظ: « كذا وقع في رواية أبي ذر وسقط كله من روايته عن الكشميهني، ولغيره بتقديم المتن ابتدأ به معلقا فقال وقال على الخ، ثم عقبة بالإسناد»، فتح الباري (١/ ٢٧٢) وهذا يدل على أن الحافظ يشرح البخاري بنسخة أبي ذر لأنها النسخة الوحيدة التي قدم فيها الإسناد على المتن.

فتنة لبعضهم»[١]، ومن الكلام ما يسمى علما وهو جهل، مثل كثير من علوم الفلاسفة وأهل الكلام، والاحاديث الموضوعة، والتقليد الفاسد، وأحكام النجوم،.. ومن العلم ما يضر بعض النفوس،لاستعانتها به على أغراضها الفاسدة، فيكون بمنزلة السلاح للمحارب، والمال للفاجر، ومنه ما لامنفعة فيه لعموم الخلق، مثل معرفة دقائق الفلك وثوابته وتوابعه وحركة كل كوكب، فإنه بمنزلة حركات التغير عندنا، ومنه ما يصد عما يحتاج اليه، فإن الإنسان محتاج الى بعض العلوم، وإلى أعمال واجبة، فاذا اشتغل بما لا يحتاج إليه عما يحتاج إليه كان مذموما، فبمثل هذه الوجوه يذم العلم، بكونه ليس علما في الحقيقة وإن سماه أصحابه وغيرهم علما، وهذا كثير جدا، أو يكون الإنسان يعجز عن حمله، أو يدعوه ويعينه على ما يضره، أو يمنعه عما ينفعه، وقد يكون في حق الإنسان لا محمودا ولا مذموما، هذا كله في جنس العلم»[٢].

وبهذا تقف السنة موقفا وسطيا بين تسلط الأديان المحرفة كالنصرانية وحجرها للمعرفة في كل أشكالها، وبين الانفلات المعرفي الذي لا ضابط له ولا قيد في نوع المعرفة ومتلقيها، حتى رأينا اثر ذلك جليا في بشاعة كثير من المخترعات والأفكار التي عادت على البشرية بالكوارث والدمار المادي والمعنوي، فحرية المعرفة ونشرها مكفولة في الإسلام لكن بضوابط وقيود تضمن أن لا ينقلب العلم والمعرفة سلاحا بأيدي السفهاء.

٤ – بين النص والتأويل والتدبر:

ومن مظاهر وسطية الإسلام – أيضا – أنه جاء بمنهج معتدل متوازن، يعطي النص قدسيته اللفظية النصية، لكنه لا يلغي دور العقل في البناء عليه، والتوسع في مدلولاته وفق الضوابط التي جاء بها الشرع.

وهذا يعني أن اللفظ ليس دائما حرفي المعنى، ومن هذا قول عدي بن حاتم – رضي الله عنه – : «لما نزلت هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧]، قال:

(١) رواه مسلم في مقدّمة الصحيح، (١/ ١١).
(٢) الاستقامة، (٢/ ١٥٩-١٦١).

أخذت عقالا أبيض وعقالا أسود، فوضعتهما تحت وسادتي، فنظرت فلم أتبين، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضحك فقال: «**إن وسادك إذن لعريض طويل، إنما هو الليل والنهار**»(١).

وقال ﷺ: «**لايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره، يعني إتيان الحبالى..**» الحديث(٢).

ولا يعني هذا أن لكل شخص أن يصرف ظاهر النص لأي معنى يراه أو يهواه أو يميل بعقله إليه، بل للتأويل شروط يجب توافرها وإلا لم يقبل وعد ذلك من صاحبه تحريفا لكلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ومما يترتب على ما قلناه – أيضا – مشروعية القياس، فالشرع لا يجيز للعبد أن يخترع الأحكام من تلقاء نفسه باستحسان أو هوى، فيحرم ويحلل وفق نظره المجرد.

كما أن البحث عن الحكم الشرعي للحوادث التي تستجد على مر العصور يستلزم النظر والتفكر في النصوص الشرعية والحوادث السابقة من أجل التوصل إلى اعتبار يربط بينها بعلة، ومن ثم معرفة حكم الله في الوقائع، وهذا –كما هو واضح – نظر متوسط بين الابتداع والإحداث والقول على الله بلا علم، وبين الجمود على النص كما فعلت الظاهرية.

وهذا الأمر دل عليه الشارع، ومنه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إنه كان على أمها صوم شهر، أفأقضيه عنها ؟ فقال: «**لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته ؟**»قالت: نعم، قال: «**فدين الله أحق أن يقضى**»(٣)، فالنبي ﷺ هنا أرشدها إلى القياس، ولم يكتف بالإجابة عن سؤالها.

ومنه قوله ﷺ: « وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له**

(١) أخرجه البخاري في الصوم، (ح١٩١٦)، ومسلم في الصيام (ح١٠٩٠).
(٢) أخرجه أبوداود في النكاح، (٢١٥٨) وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٥٠٧).
(٣) أخرجه البخاري في الصوم، (ح١٩٥٣)، ومسلم في الصوم، (ح١١٤٨).

أجر»[١]، فدلهم على القياس - أيضا - وهو ما يسمى بقياس العكس عند الأصوليين، ولم يكتف بالإجابة بنعم.

سادسا: الاعتقاد والتصور والتفكير:

٥ الاعتقادات والتصورات وأنماط التفكير هي الأسس التي يقوم عليها التشكل المعرفي والسلوكي فلإنسان.

إن الأفعال وأنواع السلوك التي تقوم بالإنسان ترتهن في المجمل إلى مجموعة من المعتقدات والتصورات، التي تلقاها بشكل ما من مصدر واحد أو من مصادر متعددة، وهذه المعتقدات والتصورات تطبع السلوك الإنساني بطابعها من حيث الغلو والتطرف والتفريط والإجحاف، ١٠ ومن حيث التعقيد والبساطة، ومن حيث الغموض والوضوح، يقول بعض الكتاب: « هناك حقيقتان أساسيتان، ملازمتان للحياة البشرية، وللنفس البشرية، على كل حال، وفي كل زمان:

الحقيقة الأولى: أن هذا الإنسان –بفطرته- لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ذرة تائهة مفلتة ضائعة، فلابد من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يستقر فيه، فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، ١٥ فهي ضرورة فطرية شعورية، لا علاقة لها بملابسات العصر والبيئة.

والحقيقة الأخرى: هي أن هناك تلازما وثيقا بين طبيعة التصور الاعتقادي، وطبيعة النظام الاجتماعي، تلازما لا ينفصل، ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة، بل إن هناك ما هو أكثر من التلازم، هناك الانبثاق الذاتي، فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود، ولمركز الإنسان فيه ووظيفته، وغاية وجوده الإنساني، وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا ٢٠ التفسير، هو نظام مصطنع، لا يعيش، وإذا عاش فترة شقي به الإنسان، ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما، فهي ضرورة تنظيمية، كما أنها ضرورة شعورية».

---

(١) تقدم، ص (٣٦).

وهذا يفسر الاهتمام الكبير والطويل بقضايا الاعتقاد والتصور الذي أولاه إياها المنهج الإسلامي.

لقد شغلت قضية الاعتقاد وتصحيح المفاهيم والتصورات حيزا كبيرا من عمر الدعوة النبوية، ومن مساحة النصوص والشرعية.

وقد شملت حركة التصحيح هذه جوانب كثيرة في الكون ومبدأ الوجود، وفي الإله، وفي فلسفة العلاقات الإنسانية والأخلاق وغيرها كثير.

ولن يكون همنا في مثل هذا المبحث ذكر تفصيلات التشريع الإسلامي في قضايا الاعتقاد والتصور، وإنما نتطرق إلى بيان ملامح الوسطية الإسلامية فيها.

وأول ما نشير إليه في هذا الجانب ما سبق أن ذكرناه من مكانة العقل في الإسلام ودوره في قضايا التلقي والاستدلال، والحقيقة أن باب التصور والاعتقاد مرتبط بباب التعلم والتعليم بل هو الوجه الآخر له، لهذا لن نكرر ما قلناه هناك، لكننا نشير هنا إلى أن الإسلام أعطى العقل دوره في الاستكشاف والبحث والنظر، فلم يلغ دور العقل ويحيده كما فعلت الديانات المحرفة كالنصرانية وغيرها، إذ عطلت العقل وفرضت عليه حظرا فيما يستطيعه وفيما هو مخلوق له.

ومن جهة أخرى لم يطلق له العنان ليخوض فيما لا يستطيع ومالا يملك أدوات العمل فيه فيضل ويضل به العباد.

هذا التعامل المعتدل المتوازن مع آلة التصور والتفكر هو الذي أدى في النهاية إلى المنهج الوسطي المعتدل في كافة مسائل الاعتقاد والتصور.

وتتجلى وسطية الإسلام في الاعتقاد والتصور والتفكير فيما يأتي:

١ – التصور للوجود والكون:

منذ أن اندرست معالم الوحي الإلهي في الأرض، بعد أن ابتعد الناس عن آثار الأنبياء ورسالاتهم، والإنسان في بحث وتأمل مستمر عن حقيقة هذا الوجود، الكون ومافيه من

مخلوقات، عن ماهيته، عن أصله وابتدائه، عن سبب وجوده، عن موقع البشر منه.

أسئلة كثيرة حائرة، تتجاوز في إدراك إجابتها حدود القدرة العقلية لبني البشر، لم تكن ولم تهدأ حتى عهد البعثة المحمدية، وحتى في عقول وضمائر الأعراب والبدو، كما جاء في حديث عمران بن حصين – رضي الله عنه –، قال: إني كنت عند رسول الله ﷺ إذ جاء قوم من بني تميم، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء** » ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها، وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم»[(١)]، وهذا دليل على أن معرفة هذه الأمور ليس أمرا خاصا بالباحثين والعلماء والمتخصصين، بل هو من الأمور العامة التي يحتاجها كل إنسان، ولا يمكن أن تستقيم حياته أو يستقيم عيشه دون معرفتها ومعرفة ما وراءها.

ولهذا ذهب الباحثون يتخبطون في التيه الفكري، ويضعون لهذه الأسئلة أجوبة مستمدة من تخمينات وتحليلات بقدر ما تنبيك عن غرابتها وضلالها وسخفها، بقدر ما تظهر لك حقيقة قدرة العقل إذا ابتعد عن مصدر الهدى الرباني.

ولقد تعددت التصورات والاعتقادات التي تعطي الإجابات لتلك الأسئلة الحائرة، وتنوعت، فذهب بعضها إلى تأليه البشر، واعتقاد ربوبية مخلوقات أخرى، كالشمس، والكواكب وغيرها، وقد بنت هذا كله على تسليمها بضرورة أن هذا الكون له منشأ وأول وخالق ومدبر.

وذهب بعضها إلى أن هذا الكون قديم لا أول له ولا موجد.

وبعضهم لم يجد أن هذه القضية ذات أهمية، واستغرق في الماديات التي يدركها بحواسه وترك ما لا يدركه بها إما إنكارا لوجود ما لا يحس كما هو مذهب بعض الاتجاهات الفكرية[(٢)]، أو لأنه لا يثبتها وإن لم ينكرها.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، (ح٣١٩١).

(٢) كالوجودية، انظر الموسوعة الميسرة ص (٨١٨).

ولو رحنا نتأمل في تلك التصورات وجدناها بين غلو وإجحاف من جهتين: من جهة الرب – تعالى –، ومن جهة العبد.

أما من جهة الرب فإنهم بين اعتقاد وجود الرب الخالق الإله لكن مع انحراف في معرفته والاهتداء إليه، وبين إنكار لوجود الرب الموجد.

ومن جهة العبد: فإنهم بين من يبحث عن حقيقته وسر وجوده ويعلم أنه لم يوجد نفسه وإنما وجد لغرض وحكمة، وإن ضل في تحديد هذا الهدف والغاية، وبين من عاش عيشة البهائم لا يبحث في هذا كله وإنما يتعامل فقط مع حواسه كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية:٢٤].

والإسلام جاء وسطا في هذا كله فقد بين الله – تعالى – في القرآن وصحح كل هذه التصورات الفاسدة، والاعتقادات الباطلة، فجاء المنهج الإسلامي وسطا بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد فيؤمنون بكل شيء و بغير برهان، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، فالإسلام يدعو الى الاعتقاد و الايمان بما قام عليه الدليل القطعي و البرهان اليقيني و ما عدا ذلك يرفضه.

وجاء وسطا – أيضا – بين من يعتبرون الكون المحسوس هو الوجود الحق وحده، و بين الذين يعتبرون الكون وهما لاحقيقة له، حيث إن الإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها، و لكنه يعبر من هذه الحقيقة الى حقيقة أكبر، و هي من نظم هذا الكون و كونه و دبر أمره و هو الله – تعالى –.

فبين – تعالى – أن الكون ليس بقديم بل له موجد وخالق:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[الأنعام:٢].

وبيّن – تعالى –: أنّه ما خلق هذا الكون إلاّ لغاية وسبب: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الجاثية:٢٢].

وقال – تعالى –: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

وبين – تعالى – أن موجد الكون وخالقه ومدبره هو وحده الذي يستحق العبادة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١-٢٢].

وقال في أبدع صور التقريع والعتاب: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[النمل:٦٠-٦٤].

وأنه – تعالى – هو المنفرد بالخلق والملك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[فاطر:٣].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

وبين عزوجل أنه لا ينبغي أن يعتقد العبد أنه مخلوق هملا ومتروك سدى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة:٣٦].

وبين – تعالى – أن الكون والوجود ليس فقط هو ما يدركه العبد بحواسه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧].

وقال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

وليس كل ما خلق الله نراه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

كل هذا البيان وأضعافه في الكتاب والسنة يعطي الإنسان توازنه الفطري بين مادته ومعناه، بين جسده وروحه، بين حياته الدنيوية ومآله الأخروي، بين إحساسه بالطبيعة وإحساسه بما وراءها، هذا التوزان النفسي والعقلي والفكري الاعتقادي هو من لباب المنهج الوسطي في الاعتقاد والتصور.

٢ – التصور في حق الخالق جل وعلا:

كل من آمن وصدق أن لهذا العالم موجدا خالقا أخرجه من العدم إلى الوجود، وأعطاه ما أعطاه من الصفات والملكات والقدرات، فإنه يتوق إلى أن يعرف عن هذا الرب الذي أوجده وخلقه.

والرب الخالق غيب لم يره أحد ولم يسمعه أحد، إلا ما كان من موسى عليه السلام، ونحن نعلم أن الطريق الوحيد الذي يمكن أن نأخذ منه تصوراتنا ومعتقداتنا في حق الباري – تعالى – هو الوحي، أما العقل فإنه يدرك المعاني الكلية فقط وإن لم يتداركه الوحي فإنه يشطح ويبتعد ويتناقض.

ولهذا جاءت تصورات ومعتقدات المسلم في الله – تعالى – ذاته وصفاته وسطا بين اتجاهات شتى تتبين بما يلي:

فبينما أغرق اليهود والنصارى والوثنيون في التشبيه والتجسيد، حتى شبهوا الله بخلقه

ووصفوه بصفات النقص، كالولادة، واتخاذ الصاحبة، والتعب، والبخل، والعجز وغير ذلك مما حكاه الله و- تعالى - عنه علوا كبيرا [١].

وبينما أغرق الفلاسفة في التنزيه والتجريد حتى نفوا عنه كل اسم ووصف، وأصبح الناظر لكلامهم لا يدرك من تصورهم عن الخالق إلا معنى ذهنيا صرفا لا يوجد في الخارج، بل هو أقرب للنفي من الإثبات، لا بل هو النفي نفسه [٢].

جاء الإسلام وسطا في الباب، فأثبت ذاتا علية تتصف بصفات عليا وتتسمى بأسماء حسنى بألفاظ عربية يفهمها السامع ويعي معانيها ويدرك مراميها.

وفي نفس الوقت نفت عن الله - تعالى - المثل والند والنظير، فالخالق ليس كالمخلوق، والخالق لا يشترك مع المخلوق في شيء من خصائصه - تعالى -.

وهذا كما ترى مسلك وسط يجمع بين إثبات الرب غاية الإثبات مع تنزيهه عما نزه عنه نفسه من المثيل والنظير.

وهذا المسلك الوسطي هو ما ثبت عليه أهل السنة فيما يتعلق بالله - تعالى -، ومن المسلمين من تأثر بالمذاهب الأخرى لأسباب كثيرة، فوقع في شيء من الانحراف، إما إلى الغلو في الإثبات والجنوح إلى التشبيه، وإن كان ذلك نادرا، وإما إلى الغلو في التنـزيه فوقع في إنكار ونفي ما أثبته الله لنفسه.

٣ - في التوحيد:

وكذلك جاء الإسلام وسطا بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، و بين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأصنام والأشجار والأبقار، فالإسلام يدعو الى اله واحد لا شريك له و كل ما عداه مخلوقات لا تملك ضرا و لا نفعا.

- أيضا - جاء التوحيد الذي أرسل به النبي ﷺ وسطا بين توحيد الغلاة في التصور، الذين لم يميزوا بين أنواع الموجودات وأجناسها ولم يتصوروا الفرق بين أنواع الوجود وأجناسه فوصل

(١) فرق المسلمين والمشركين للرازي، ص (٨١).
(٢) انظر: (ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل) للجليند،ص (١٩٢-١٩٣).

بهم الغلو في التوحيد إلى أن قالوا بوحدة الوجود[١]، وجعلوا وجود الرب - تعالى - وجود المخلوقات واحدا في حقيقته متنوعا في صوره وتجلياته.

وهي عقيدة وتصور موجود من قديم عن بعض الفلاسفة والهندوسية [٢] وتلقاها للأسف بعض غلاة الصوفية وصاغوا منها تصورا لوجود الباري - تعالى - ثم نسبوه إلى التوحيد، وقد رد أئمة السلف والخلف على أصحاب هذه العقيدة وبينوا في أبحاث كثيرة بطلانها عقلا وشرعا[٣].

وبين المشركين الذين أشركوا مع الله - تعالى - في عبادته خلقا من خلقه، كالأنبياء، والصالحين، ونحوهم من شجر وحجر، وظن كثير من هؤلاء أن ما يفعلونه من التوجه إلى غير الله لا يتنافى مع التوحيد كما قال - تعالى -: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر:٣].

وهذا التصور هو نفسه الذي ورثه المنحرفون عن التوحيد الذي أرسل به الرسل، وغالبهم من غلاة الصوفية والمتكلمين، الذين لم يعرفوا حقيقة هذا التوحيد، وأنه إفراد الله - تعالى - بالعبادة، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، وغير ذلك من العبادات الظاهرة والباطنة.

أما مجرد الإيمان ربوبيته، والاعتراف بأنه الخالق الرازق المدبر، كما يقوله المتكلمون، فإنه لا يكفي لجعل العبد مؤمنا موحدا، فكفار قريش كانوا يقرون بربوبية الله - تعالى - كما قال عزوجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ

---

(١) عقيدة إلحادية تقوم على مبدأ أن الوجود كله هو الله الباري تعالى، فلا تمييز بين وجوده ووجود غيره بل هو كل شيء، يظهر في صور متعددة ويتجلى في ذوات شتى، لكن العالم بكل ما فيه ما هو إلا التجلي الإلهي الأزلي الدائم، وقد قال بهذه الفكرة الإلحادية فلاسفة اليونان القدماء وتلقفها عنهم بعض غلاة الصوفية ومن أشهرهم ابن عربي الطائي صاحب فصوص الحكم وغيرها، الموسوعة الميسرة ص (١١٦٨).

(٢) أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي، ص (٧١).

(٣) انظر: (بغية المرتاد) لشيخ الإسلام، ص (٣٩٥) وما بعدها.

أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾[الزمر:٣٨].

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾[العنكبوت:٦١].

٥ فالتوحيد الصحيح الذي هو إفراد الله – تعالى – بالعبادة هو الذي جاء به الإسلام وهو الذي جاء به النبي ﷺ وقاتل به – وعليه – مخالفيه، وهو الذي تمسك به السلف ودعوا إليه من خالفهم ممن حاد عن هدي النبي ﷺ، وهو المنهج العدل الوسط وهو الصراط المستقيم، كما قال – تعالى –: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ١٠ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦١-١٦٣].

٤ – في باب القدر:

العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة شابها الكثير من الخطأ والغلط المتعمد أحيانا وغير المتعمد أحيانا أخرى.

وهذه العلاقة لها جوانب عدة، لكن من أكثرها تعقيدا وأكثرها إشكالا عند غير المهتدين ١٥ بالوحي هي مسألة القدر، وعلاقة قدرة الله – تعالى – بأفعال العبد من خير وشر.

فمن المعلوم عند السلف وأهل السنة: أن الله – تعالى – قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض، بعلمه – تعالى – وكتابته لها في اللوح المحفوظ، وأنه لا يحدث شيء في الكون ولا يكون إلا بإرادته ومشيئته، ثم خلقه وتقديره، وهذا أمر مسطور معروف شواهده في الكتاب والسنة كثيرة جدا [١].

٢٠ ثم من المعلوم – أيضا – عند كل أهل الديانات أن الله – تعالى – خلق العبد وكلفه بأمانة ومهمة وحمله مسؤولية فعله، وأنه يجازى عليه، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولا شك أن أفعال الإنسان من خير وشر داخلة في الحوادث الكونية الخاضعة لسلطان الله وقدرته.

---

(١) القضاء والقدر للمحمود، ص (٥١) وما بعدها.

وهنا وقع الإشكال عند البعض في التوفيق بين أمرين:

بين قدرة الله على أفعال العبد وخلقه لها، وأنه لا يحدث شيء إلا بإذنه وإرادته.

وبين قدرة العبد على أفعاله ومسؤوليته عنها.

فاختلف هؤلاء المترددون في هذا إلى طرفين:

أحدهما: مال في جانب الإيمان بقدرة الله – تعالى – وتقديره وخلقه وإرادته ملغيا إرادة العبد وقدرته على فعله، ومن ثم إلغاء المسؤولية عن أفعاله، وهذا هو مذهب الجبر الذي يقول إن العبد لا قدرة له ولا مشيئة ولا إرادة، وإنما هو كالريشة في مهب الريح وإن الفاعل حقيقة لكل ما في الكون هو الله تعالى عما يقولون[١].

والثاني: مال إلى جانب قدرة العبد وغلا في تحميله مسؤولية كل ما يصدر عنه ملغيا أي قدرة لله – تعالى – أو مشيئة في فعل العبد وما يتولد عنه، وهذا هو مذهب القدرية النفاة الذين تأثروا بالفلسفة الثنوية والمجوسية [٢]ولهذا يلقب أصحابها من الإسلاميين بمجوس هذه الأمة[٣].

وسبب إشكال هؤلاء أمران:

الأول: أنهم لم يميزوا علاقة العبد بالفعل عن علاقة الفعل بالله – تعالى –، فظنوا أنا إذا قلنا: إن الله هو خالق الفعل، ومن ثم يحمل العبد مسؤولية فعله فإن ذلك ظلم له، والله منزه عن الظلم، ففروا من هذا بإنكار خلق الله ومشيئته لأفعال العباد، وقال الأولون بل إن الظلم في حقه – تعالى – ليس واردا، لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير والخلق كلهم ملك له – تعالى – يفعل بهم مايشاء، وجوز هؤلاء على الله – عقلا – أن يعذب المطيع ويثيب العاصي[٤].

---

(١) انظر: (الفرق بين الفرق) ص (١٩٩).

(٢) انظر: (الفصل) لابن حزم، (١/ ٩٣).

(٣) الإبانة لابن بطة، (٢/ ٩٥)، وانظر (منهاج السنة) لابن تيمية، (٣/ ٢٦٧-٢٧٧).

(٤) انظر: (شفاء العليل) لابن القيم، ص (٥٣٩).

وهذا موقفان متطرفان سببهما -كما قلت - عدم فهمهم لحقيقة العلاقة بين الفعل والفاعل، وبيان هذا الأمر أن الإسناد قد يتغير ويتعدد بحسب العلاقة بين المسند والمسند إليه، فأنت تقول: زيد أمسكه عمرو، وقتله خالد، والطعام صنعه زيد، وأكله عمرو، فتغير العلاقة قد يغير جهة الإسناد.

وكذلك في أفعال العباد، ففيها تعلق بالعبد وتعلق بالخالق جل وعلا، أي أن هناك إسنادان يتعلقان بالفعل: الخلق والإيجاد، والفعل والكسب.

فالله - تعالى - هو الخالق الموجد للفعل من العدم، إذ هو موجد العبد وقدرته وإرادته، وهذه هي الأركان المؤلفة لأي فعل: فاعل وحركة وقدرة وإرادة، والله - تعالى - خالق ذلك كله، فإذا كان في قدره وعلمه أن العبد سيفعل خلق الفعل.

والعبد فاعل للفعل وليس خالقا له موجدا له من العدم، وإنما هو سبب لوجود الفعل وخلق الله له، فالعباد والأفعال مع الله كالأسباب والمسببات، وإذا كان الله يخلق المسبب بالسبب، فإنه يخلق الفعل بالفاعل.

ومن هذه الزاوية تتحدد علاقة الفعل بالله - تعالى -، وهي علاقة مربوب مخلوق بربه وخالقه، وعلاقة الفعل بالعبد: وهي علاقة كاسب وفاعل ومباشر ومتلبس وكلها ألفاظ متقاربة.

وخلاصة هذا أن الفعل ليس له فاعلان، وإنما خالق وفاعل، فالله موجد الفعل وخالقه والعبد فاعله والقائم به، فالله - تعالى - إنما يأذن ويشاء ما أراده العبد ثم يخلقه فيه، وعليه فإنه ليس في محاسبة العبد على أفعاله أي ظلم، لأنه يحاسب على ما أراده وفعله هو لا ما فعله غيره.

الأمر الثاني: الذي سبب الإشكال لدى هؤلاء هو عدم تفريقهم بين نوعي الإرادة الإلهية، فالله - تعالى - له إرادة شرعية بمعنى المحبة، وهذه الإرادة لا يلزم تحقق متعلقها، فالإيمان والعمل الصالح مراد لله - تعالى - إرادة شرعية بمعنى أنه يحبها من خلقه، ولكن قد يقوم بها العبد، وقد لا يقوم بها، وهو لا يريد الكفر والعصيان بمعنى أنه لا يحبها لكن قد ينتهي عنها العبد وقد لا ينتهي،كما قال - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن:٢].

والنوع الثاني من الإرادة هي الإرادة الكونية بمعنى الإذن والمشيئة بحصول المراد، فهذه هي المشيئة التي لا يمكن أن يتخلف متعلقها، لكن لا يلزم أن يكون محبوبا لله – تعالى –، فالكفر والمعصية مبغوضة لله، ولكن مع هذا فإنه لا يكفر كافر ولا يعصي عاص ولا يؤمن مؤمن ولا يطيع مطيع إلا بمشيئة الله – تعالى –، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١].

وقال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٨٩].

وإذا كان الأمر كذلك فإن مشيئة الله وقدرته وعلمه وتقديره ليست مسوغا وعذرا للكافر في كفره، ولا للعاصي في معصيته كما قال أهل الجبر، وليست مسوغا – أيضا – لإنكار مشيئته وقدرته على أفعال العباد كما قال أهل القدر.

والمنهج الحق هو المنهج الوسط الذي أثبت قدرة الله – تعالى – ومشيئته وخلقه وتقديره، وأثبت – كذلك – قدرة العبد وأثرها في فعله ومسؤوليته عنه، وهذا هو ما جاء به القرآن والسنة.

فقد أنكر القرآن على أهل الجبر جبرهم، كما قال – تعالى –: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وأثبت مسؤولية العبد عن فعله،كما قال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]، وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣].

وأنكر على أهل القدر شركهم، وأثبت مشيئته وقدرته الشاملة، وأنه لا يكفر ولا يؤمن أحد إلا بإذنه،كما قال – تعالى –: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ

ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام:١٠٧]، وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:١١١].

٥ وهكذا نرى المنهج الإسلامي وسطا بين الذين يؤلهون الإنسان ويجعلون له قدرات كقدرة الرب المتصرف، و بين من يجعلوه أسير جبرية اقتصادية، أو اجتماعية، أو دينية، أو دمية تحركها خيوط المجتمع أو الاقتصاد أو القدر، فالإسلام ينظر إلى الإنسان كمخلوق مكلف مسئول سيد في الكون، عبد لله، قادر على تغيير ما حوله بقدر ما يغير ما بنفسه.

٥ - في الإيمان بالرسل:

١٠ ضل كثير من الناس بسبب تصورهم للرسل، فظنوا أن الرسول لا يكون رسولا مع كونه بشرا.

فمنهم من احتج ببشرية الرسول على كذبه مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم موسى، قال - تعالى -: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا
١٥ رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٥].

وقال على لسان قوم نوح: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود:٢٧].

وقال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون:٣٣].

٢٠ وقال - تعالى -: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر:٢٣-٢٤].

وقال حاكيا قولهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[الفرقان:٧].

ومنهم من صدق الرسول الذي أرسل إليه، لكنه ادعى فيه ما يخالف بشريته، مثل اليهود والنصارى.

قال - تعالى -: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة:٣٠].

وقال - تعالى -: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء:١٧١].

وهذان طرفان مذمومان وموقفان متباينان، وبينهما طريق وسط ومنهج معتدل، يؤمن بالرسل وببشريتهم فلا يرفعهم فوق مرتبتهم إلى مراتب العبودية، وأن الرسل أنفسهم لا يرضون بذلك بل يقرون بعبوديتهم لله - تعالى -كما قال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[النساء:١٧٢].

وقال ﷺ :«**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**»[(١)].

لكنه في نفس الوقت يؤكد على أنهم بشر لهم قدر ومكانة ليست كباقي البشر، بل لا بد لهم من التوقير والاحترام ما لا يستحقه أحد غيرهم كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا

(١) تقدّم ص (٩٢).

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح:٩]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحجرات:٥].

وقد بين الله لهم أن بشرية الرسل لا تمنع كونهم صادقين: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد:٣٨].

وتأمل حين طالب المشركون رسول الله ﷺ لإثبات صدقه بأمور من المعجزات، فقالوا: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ ﴾[الإسراء:٩٠-٩٣].

إن الله – تعالى – قادر على ما ذكروه، بل قد أكرمه بما هو خير منه، كالإسراء، وانشقاق القمر، لكن الله – تعالى – أراد أن يبين لهم أن ما فعله النبي ﷺ لم يفعله من تلقاء نفسه، وأنه لا قدرة له عليه إلا بإقدار الله – تعالى – له، ولحكمة معينة، وأنه ليس أمرا مطردا – أيضا –، فقال – تعالى – لنبيه ﷺ معلما إياه الإجابة على سؤالهم: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ فانظر وتأمل كيف يكسر في نفس المتلقي والسامع أي اعتقاد أو تصور يضع الرسول فوق منزلته الحقيقية.

إن هذه الحقيقة الناصعة بينها – تعالى – في آية واحدة حين قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١٠].

هذا هو لب المنهج الوسط والموقف الوسط، الذي يدعو إليه السلف الصالح وأتباعهم في موقفهم من الأنبياء والرسل، خلافا للفرق المخالفة التي جنح بعضها إلى الغلو في الأنبياء والصالحين كما فعل اليهود والنصارى وغيرهم [١]، وخلافا لمن جنح إلى الاستخفاف بميراث النبوة والاستخفاف بالرسالات كالفلاسفة ومن تأثر بهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –:« والفرقة الناجية أهل السنة، وهم وسط في النحل، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل، فالمسلمون وسط في أنبياء الله، ورسوله، وعباده الصالحين، لم يغلو فيهم كما غلت النصارى فـ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة:٣١].

ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا، وقتلوا فريقا.

بل المؤمنون آمنوا برسل الله، وعزروهم، ونصروهم، ووقروهم، وأحبوهم، وأطاعوهم، ولم يعبدوهم، ولم يتخذوهم أربابا، كما قال – تعالى –:﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران:٨٠].

---

(١) وصدق رسول الله ×، فعن أبي واقد الليثي:أن رسول الله × لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: (ذات أنواط)، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ×: «**سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم**»، أخرجه الترمذي في الفتن (ح٢١٨٠) وقال: (حديث حسن صحيح).

ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح، فلم يقولوا: هو الله، ولا: ابن الله، ولا: ثالث ثلاثة، كما تقول النصارى، ولا كفروا به، وقالوا على مريم بهتانا عظيما، حتى جعلوه ولد بغية، كما زعمت اليهود.

بل قالوا: هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وروح منه»[(١)].

٦ - الملائكة:

ما حصل من الاختلاف في الرسل حصل مثله في الملائكة.

فكما أنكر قوم من الوثنيين والفلاسفة والماديين وجود عالم الملائكة، وتنكر له كما تنكر لسائر الغيبيات أو ما وراء الطبيعة.

أثبت قوم من المشركين وغيرهم وجود الملائكة لكن وفق تصور واعتقاد مخالف للحقيقة.

فقال بعضهم إن الملائكة بنات الله - تعالى - عن ذلك.

وجاء الإسلام ليجلي الحقيقة في هذه المخلوقات النورانية منكرا على المخالفين، فأثبت وجودهم وبين حقيقتهم وكثيرا من صفاتهم.

قال - تعالى -: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر:١].

وقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات:١٤٩-١٥٥].

وقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء:٤٠].

وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

---

(١) مجموع الفتاوى، (٣/ ٣٧٠).

وقال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦ – ٢٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم:٢٧–٢٨].

٧ – في الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان بالبعث واليوم الآخر الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، من أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان العبد إلا بها.

وكسائر الاعتقادات وقع الناس في الاختلاف فيه بين منكر له وجاحد، وبين مثبت له على صفة فيها شطح وبعد عن الحقيقة.

إن ما جاء به الإسلام في تقرير حقيقة البعث واليوم الآخر هو موقف متوسط معتدل متوازن أثبت الحق ورد على المنكرين، لكنه في نفس الوقت رفض الصور الباطلة والتفسيرات الخاطئة للبعث ولليوم الآخر.

ففي الديانة المحرفة التي يعتنقها اليهود اليوم، فإن الباحثين يكادون يجمعون على أنه لا وجود لهذه العقيدة فيها، فالأسفار المقدسة الموجودة بأيديهم لم تتكلم عن حياة بعد الموت، وتبعا لهذا تشكلت النظرة الدنيوية لدى اليهود[1]، ويبدو أن إغراق اليهود في الدنيا وملذاتها وتمسكهم بها جعلهم يغفلون جانب الآخرة عندما حرفوا كتبهم وحذفوا منها ما يتعلق باليوم الآخر حتى يتركز عمل اليهودي على الدنيا ولا يدخر شيئا من طاقته أو ماله وجهده لعمل الآخرة، والله – تعالى – أعلم.

---

(١) انظر: (اليهودية) لأحمد شلبي، ص (١٩٤ –١٩٥).

ولكن في أزمان متأخرة في التاريخ اليهودي تكونت لدى بعض اليهود فكرة البعث نتيجة اتصال بعضهم بالديانة الفارسية (الزرادشتية)[١]لكن على نمط مختلف عما هو موجود في الديانات الأخرى، إذ مداره على تعويض من حرم واضطهد في الدنيا عما فقده[٢].

أما الفلاسفة فمنهم من أنكر البعث مطلقا بل واليوم الآخر، بل قال هؤلاء إن ما أخبر به الأنبياء عن اليوم الآخر لا حقيقة له، قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: « أهل التخييل: هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه، فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنه بين به الحق، ولا هدى به الخلق، ولا أوضح به الحقائق»[٣]، وقسم آخر منهم أنكر بعث الأجساد وأثبت المعاد الروحاني فقط[٤].

وممن تنكر لعقيدة البعث والإيمان باليوم الآخر المذاهب الباطنيةكالإسماعيلية[٥]، والقرامطة[٦]، والدروز [١]، فإنهم لا يؤمنون بذلك كله، ويؤولون النصوص الواردة في البعث بتأويلات باطنية[٢].

---

(١) أصحاب زرادشت بن بورشسب وقال ابن الأثير بن سقيمان، الذي ظهر في زمان كشتاسف ابن لهراسب الملك، قيل إن دعوته كانت عبادة إله واحد لاشريك له، وزعم أن الموجودات وجدت من امتزاج النور والظلمة ومن امتزاجهما حدثت الصور والتراكيب وهما يتقاومان ويتغالبان وأن الله لا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة مع أن الله هو خالق النور والظلمة وهو مزجهما وخلطهما، انظر (الكامل) لابن الأثير (١ / ٢٢٥)، و (الملل والنحل) للشهرستاني، (٢ / ٢٦٤) وما بعد.

(٢) انظر: (اليهودية) لأحمد شلبي، ص (١٩٤ –١٩٥).

(٣) الفتاوى (٥/ ٣١)، وانظر: (الملل والنحل) للشهرستاني (٢ / ٣).

(٤) تهافت الفلاسفة للغزالي، ص (٢٨٢).

(٥) فرقة باطنية انتسبت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت وحقيقتها هدم عقائد الإسلام، وهي تأله أئمتها وتدّعي فيهم الحلول، تشعبت فرقها وامتدّت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر، في القرن لخامس انقسمت إلى فرعين: إسماعيلية نزارية وإسماعيلية مستعلية، وهم موجودون إلى الآن في مناطق متعددة من العالم، انظر الملل والنحل للشهرستاني، (١ / ١٩٩) وما بعدها، وللاستزادة انظر: (الحركات الباطنية في العالم الإسلامي) للدكتور محمد أحمد الخطيب ص (٥٥).

(٦) حركة باطنية تنتسب إلى حمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط لقصر قامته وساقيه، ظاهرها التشيع وحقيقتها الكفر وهدم أركان الملة، قالت بالإباحية ولا يعترفون بالأديان ولا بالنبوات، الملل والنحل (١ / ٢٠٢).

ولاشك أن كل هذا الإنكار والتزييف راجع إلى الشك في قدرة الله – تعالى – على بعث الأجساد، ثم يتفرع على ذلك تأويلاتهم للنصوص التي تثبت البعث أو تصرفهم في معنى البعث على وجه يجمعون به بين قبول ما أجمع العقلاء على إمكانه وبين شكهم في قدرة الله – تعالى – على بعث الأجساد وإعادتها بعد أن تفرقت.

فالذين أنكروا البعث من أهل الجاهلية وغيرهم إنما يستندون في ذلك إلى الإحالة العقلية التي تنتقص قدرة الله – تعالى – أصلا، ولهذا نجد القرآن يستدل عليهم بنوعين من الأدلة: **أولهما: الحس والمشاهدة، والثاني: القياس.**

أما الحس والمشاهدة:

فإن الله ضرب الأمثلة الواقعية على قدرة الله – تعالى – على البعث، كما حدث مع صاحب القرية، قال – تعالى –: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٥٩].

وكما حكى عن إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠].

---

(١) حركة باطنية تؤله الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وتدعي أن الإله حل فيه، عقائدها خليط من عدة أديان وهي متأثرة بالإسماعيلية لحد كبير، يعتمدون كسائر الباطنية على التنظيمات السرية، ويعتبر حمزة بن علي الزوزني المؤسس الفعلي لها وهو أول من أعلن حلول الإله في الحاكم بأمر الله، انظر الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، ص (١٩).

(٢) انظر الحركات الباطنية في العالم الإسلامي للدكتور محمد الخطيب، ص (١١١) و(١٨٦) و(٢٤٨).

وقد أحيا الله لقوم موسى ميتهم فنطق: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٢-٧٣].

قال ابن جرير – رحمه الله –: « وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ مخاطبة من الله عباده المؤمنين، واحتجاج منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا، فقال لهم تعالى ذكره: أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث »[١].

ثانيها: القياس بنوعيه.

وأما القياس فهذا كثير جدا، والبراهين العقلية في القرآن على البعث أكثر من أن تعد، فتارة يستدل بالمماثلة وتارة يستدل بالأولى.

كما قال – تعالى –: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس:٧٨-٧٩] .

قال ابن جرير: « وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ يقول: ومثل لنا شبها بقوله: ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ إذ كان لا يقدر على إحياء ذلك أحد، يقول: فجعلنا كمن لا يقدر على إحياء ذلك من الخلق، ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ يقول: ونسي خلقنا إياه كيف خلقناه، وأنه لم يكن إلا نطفة، فجعلناها خلقا سويا ناطقا، يقول: فلم يفكر في خلقناه، فيعلم أن من خلقه من نطفة حتى صار بشرا سويا ناطقا متصرفا، لا يعجز أن يعيد الأموات أحياء، والعظام الرميم بشرا كهيئتهم التي كانوا بها قبل الفناء.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يقول الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهذا المشرك القائل لك: من يحيي العظام وهي رميم: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

---

(١) التفسير، (١ / ٤٠٤) بتصرف وحذف.

يقول: يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئا: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: وهو بجميع خلقه ذو علم كيف يميت، وكيف يحيي، وكيف يبدئ، وكيف يعيد، لا يخفى عليه شيء من أمر خلقه »[١].

وقال - أيضا -: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

وقال - تعالى -: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم:٥٠].

قال القرطبي: «يعني المطر، أي انظروا نظر استبصار واستدلال، أي استدلوا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى... ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب »[٢].

وأما الاحتجاج بالأولى فكما في قوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣]، قال الألوسي: «أي ألم يتفكروا ولم يعلموا أن ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي:لم يتعب بذلك أصلا أي لم يعجز عن خلقهن ولم يتحير فيه ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام كالبرهان على المقصود»[٣].

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

---

(١) التفسير، (١٠ / ٤٦٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (١٤ / ٣١).
(٣) ملخصا من: (روح المعاني)، (١٤ / ٥١ - ٥٢).

وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾[القيامة:٣٧-٤٠].

والحق أن استبعاد البعث عقلا لا مجال له ولا مساغ بعد هذه الأدلة الحسية والعقلية المتواترة، فضلا عن خبر المعصوم بوقوعه.

٥ **سابعا: السياسة الشرعية:**

السياسة الشرعية باب من أبواب العلم والفقه في الدين، وفي قيادة الأمة وتحقيق مصالحها الدينية الدنيوية، جليل القدر عظيم النفع، أفرده جماعة من العلماء بالتصنيف في القديم والحديث[١]، وانتشرت كثير من مباحثه و مسائلة في بطون كتب التفسير والفقه والتاريخ وشروح الحديث، وهذا الباب خطره عظيم ينتج عن الغلط فيه وعدم الفهم له شر مستطير، ١٠ والخطأ في التفريط فيه كالخطأ في الإفراط، إذ كلاهما يقود إلى نتائج مرذولة غير مقبولة، وقد وضح ذلك شيخ الإسلام ابن القيم فقال: «وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك، ومعترك صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد محتاجة إلى غيرها، وسدوا على نفوسهم طرقا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له وعطلوها.. وأفرطت فيه طائفة أخرى ١٥ قابلت هذه الطائفة، فسوغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله، وكلتا الطائفتين أتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه»[٢].

وفي لسان العرب في مادة (س و س): «السوس: الرياسة.. وإذا رأسوه قيل سوسوه، وأساسوه.. وسوس أمر بني فلان: أي كلف سياستهم، وسوس الرجل على ما لم يسم فاعله: إذ

---

(١) منها كتاب: (الأحكام السلطانية) لأبي يعلى الفراء، ومثله للماوردي، ومنها (الطرق الحكمية) لابن القيم، ومنها(السياسة الشرعية) لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومنها: (تبصرة الحكام) لابن فرحون، ومنها: (معين الحكام) للطرابلسي، وغيرها.

(٢) الطرق الحكمية، ص (١٥).

ملك أمرهم، وساس الأمر سياسة: قام به، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه.. والسياسة: فعل السائس يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته»[١].

و قد جاء عن النبي ﷺ قوله: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي...**»[٢]، فقوله ﷺ: «**تسوسهم الأنبياء**»، أي: تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية.

وفيه إشارة إلى أن السياسة ليست مجرد إلزام بالأمر والنهي، لأن وظيفة النبوة هي هذا، فكونهم مع ذلك يسوسونهم فيه معنى زائد، ألا وهو رياضتهم ومداراتهم لقومهم حتى يصلحوا لهم أمورهم الشرعية والدنيوية، وهذا يعني أن السائس مهمته الإصلاح والاستصلاح، ولا يلزم أن يكون ذلك بنصوص الوحي فقط، بل مجاله أرحب، لأن سياسة الناس متغيرة بحسب الزمان والمكان، قال ابن القيم: « قال ابن عقيل[٣] في الفنون: جرى في جواز العمل في السلطنة بالسياسة الشرعية: أنه هو الحزم، ولا يخلو من القول به إمام، فقال شافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع، فقال ابن عقيل: السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ، ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك: «إلا ما وافق الشرع»، أي لم يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح، وإن أردت: لا سياسة إلا ما نطق به الشرع، فغلط، وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل ما لا يجحده عالم بالسنن، ولو لم يكن إلا تحريق عثمان – رضي الله عنه – المصاحف، فإنه كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة الأمة،

---

(١) لسان العرب، ص (٢١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، (ح٣٤٥٥)، ومسلم في الإمارة (ح١٨٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري الحنبلي صاحب التصانيف، كان يتوقد ذكاء وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير، كما قال الذهبي، له كتاب الفنون أزيد من أربع مئة مجلد، توفي سنة (٥١٣) هـ السير (١٩ / ٤٤٣).

وتحريق علي - رضي الله عنه - الزنادقة في الأخاديد وقال: لما رأيت الأمر أمرا منكرا أججت ناري ودعوت قنبرا، ونفي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لنصر بن حجاج»[١].

إذن فالسياسة الشرعية مجموعة الوسائل المادية والمعنوية التي يوظفها الراعي السائس لإصلاح رعيته وإصلاح أمور دينهم ومعاشهم لهم، وليس ذلك مقيدا إلا بأن لا يكون فيه مخالفة للشريعة.

وإذا أردنا أن نستوضح معالم وسطية المنهج الإسلامي في باب السياسة الشرعية تبينت لنا في أمور كثيرة منها على سبيل المثال:

- الدين والدولة:

جعل الله تعالى من مهمة ولي الأمر القيام على شؤون رعيته، وأناط به مسؤولية عظيمة، فليس المقصود بالسياسة مجرد الفصل بين الناس ومنع عدوان بعضهم على بعض، بل إلزام الرعية بحكم الله تعالى، وأطرهم على الحق، ونصحهم، وتوجيههم، وإعانتهم على تحقيق ما خلقوا لأجله، وهو عبادة الله تعالى، هو من الحقوق الأساسية على ولي الأمر تجاه رعيته.

ومع هذا فإن الشريعة جعلت للولاة حدودا ينتهون إليها، سواء باسم السياسة والإصلاح أو باسم الدين وحماية حمى الشريعة.

فجعلت بيد الوالي شيئا من أدوات الترغيب والترهيب، وأعطه صلاحيات التأديب والتعزير، وسلطته على حياة الناس العامة.

لكنها في نفس الوقت كفته عن خصوصيات الناس، والتضييق عليهم فيما وسعه الله، خصوصا في أبواب المعاملات وما يحتاجون إليه في معايشهم.

وهذا موقف متوسط في الحقيقة بين الانفلات والتسيب الذي عاشه الجاهليون في جزيرة العرب حيث كان الناس فوضى لا سراة لهم، وبين حياة الضيق والتفتيش الذي عاشه النصارى واليهود تحت حكم الكنيسة في أوروبا[٢]، حيث كانت الدولة التي يسيطر عليها القساوسة

---

(١) الطرق الحكمية، ص (١٤-١٥).

(٢) انظر: (مذاهب فكرية معاصرة) لمحمد قطب، ص (٢٥) وما بعدها.

والبابوات تتدخل في أدق التفاصيل، وفي أخص خصوصيات الفرد، مما نتج عنه -كما هو معلوم - تضييق على البحث العلمي والتفكير أدت إلى بقاء أوروبا ترزح تحت الجهل والتخلف عقودا من الزمن.

أما الشريعة الإسلامية فإنها وضعت خطوطا عامة يسير وفقها الناس، وجعلت الدولة في موقف المراقب الذي يخشاه من فيه نزعة التمرد والخروج، فلا تتدخل الدولة إلا حين يتجاوز أحد الخطوط الحمراء -كما يقال الآن -.

وفي التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة توضح هذه الوسطية، أذكر منها اثنين:

الأول: حادثة التأبير، فعن طلحة بن عبيدالله [١] قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل، فقال: « **ما يصنع هؤلاء؟**»، فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيتلقح، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أظن يغني ذلك شيئا**»، قال فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل** ».

وفي رواية: « **إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي، فإنما أن بشر** »، وفي رواية أخرى: « **فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[٢].

الثاني: موقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - من الخوارج، فبالرغم من انحيازهم عن المسلمين، ومع وضوح فكرهم وخطورته، ومع علمه عنهم، إلا أنه لم يتدخل فيهم بشيء أكثر من النصح والتوجيه، فأرسل إليهم عبدالله بن عباس، وقيل إنه ذهب إليهم بنفسه، فرجع بعضهم وأصر بعضهم، وبعد كل ذلك كان يقول لهم وهو على المنبر: «إن لكم علينا أن لا

---

(١) طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد التيمي، أبو محمد المدني، أحد العشرة المبشرين بالجنة، كان يسمى (طلحة الفياض)، استشهد يوم الجمل، سنة (٣٦هـ)، الإصابة (٣/ ٥٢٩).

(٢) انظر: (صحيح مسلم)، (ح ٢٣٦٣).

نمنعكم مساجدنا، مالم تخرجوا علينا، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء، ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم **حتى تقاتلونا**»، وبالفعل بدأ الخوارج بقتل المسلمين فعند ذلك كر عليهم – رضي الله عنه – في معركة النهروان فأباد خضراءهم، ولم يبق منهم إلا نفر قليل فروا إلى العراق[١].

– **بين الديكتاتورية والديموقراطية**[٢]:

وفي هذا الجانب أيضا جاء الإسلام وسطا بين التسليم بحكم الديكتاتور أو الفرد المطلق، حيث يصبح الفرد أو الأسرة أو النظام هو مصدر التشريع والسلطات والقضاء ولا صوت فوق صوته.

وبين الديموقراطية والليبرالية[٣] التي تدعو للحرية أو تجعل الشعب هو مصدر التشريع والسلطة والقضاء، منحية بذلك شريعة الله تعالى حيث تعارضت مع أهواء الناس.

والإسلام مع أنه جاء بتشريع وأمر الناس أن يحتكموا إليه وجعل الاحتكام إلى غيره كفرا وفسقا وظلما وجعل حكم غيره جاهلية.

إلا أنه فتح الباب للناس في مجالاتهم الدنيوية يكيفونها حسب حاجاتهم مالم تتعارض مع كليات الشريعة وثوابتها.

ومن أشهر ذلك أنه شرع الشورى وأمر بها نبيه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران:١٥٩].

وأثنى على المؤمنين بذلك حين قال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨].

---

(١) انظر: (البداية والنهاية)، (٧/ ٢٦٩-٢٧٣).

(٢) الديمقراطية كلمة مشتقة من لفظتين يونانيتين (**Democracy**) تعني الشعب، و (**Kratos**) وتعني سلطة، ومعناها الحكم الذي تكون فيه السلطة بيد الشعب، وتطلق على نظام الحكم الذي يكون فيه الشعب رقيبا على أعمال الحكومة بواسطة المجالس النيابية، ويكون لنواب الأمة سلطة إصدار القوانين، مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب، ص (١٧٨).

(٣) مذهب فكري رأسمالي يدعو إلى الحرية المطلقة في شتى نواحي الحياة، الموسوعة الميسرة، ص (١١٣٥).

وعمل بذلك النبي ﷺ فكان يستشير أصحابه ويسمع منهم في أمور الأمة ويشركهم في اتخاذ القرارات المصيرية، كما حدث في غزوة بدر عندما علم بمسير قريش إليه فكان يقول: أشيروا علي أيها الناس[١]، ومعركة أحد كذلك[٢].

وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون، فكان لهم المجالس التي يجلس إليها فيهم كبار الصحابة من أهل العلم والفقه، فلم يكونوا ينفردون بالتفكير واتخاذ القرارات المصيرية، فيسمعون من غيرهم، ثم يختارون ما يظهر لهم فيه المصلحة، ومن أشهر ذلك قصة عمر – رضي الله عنه – في الطاعون، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما–: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف [٣]، وكان متغيبا في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) البداية والنهاية، (٣/ ٢٩٨-٢٩٩).

(٢) البداية والنهاية، (٤/ ١٣).

(٣) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة القرشي الزهري، أحد العشرة أسلم قديما ومناقبه شهيرة مات سنة (٣٢هـ) وقيل غير ذلك، الإصابة (٥/ ٣٤٦).

يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه**»، قال: فحمد الله عمر ثم انصرف [١].

ومن ذلك الفصل بين السلطات واستقلالية القضاء، فالقاضي سلطته أعلى من أي سلطة في الدولة، حتى أمير المؤمنين يخضع لهذه السلطة، ومن القصص المشهورة في الباب قصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع اليهودي، فعن شريح [٢]، قال: لما توجه علي رضي الله عنه إلى قتال معاوية افتقد درعا له، فلما رجع وجدها في يد يهودي يبيعها بسوق الكوفه، فقال: يا يهودي الدرع درعي لم أهب ولم أبع، فقال: اليهودي: درعي وفي يدي، فقال: بيني وبينك القاضي، قال: فأتياني، فقعد علي إلى جنبي واليهودي بين يدي، وقال: لولا أن خصمي ذمي لاستويت معه في المجلس، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أصغروبهم كما أصغر الله بهم ثم قال: هذه الدرع درعي،لم أبع،ولم أهب،فقال: لليهودي:ما تقول؟ قال: درعي وفي يدي، وقال: شريح:يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ قال: نعم الحسن ابني وقنبر يشهدان أن الدرع درعي، قال شريح: يا أمير المؤمنين شهادة الابن للأب لا تجوز، فقال: علي سبحان الله! رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته، سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، فقال: اليهودي: أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه أشهد أن هذا الدين على الحق، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين، سقطت منك ليلا، وتوجه مع علي يقاتل معه بالنهروان فقتل [٣].

بل ذهب المحققون من العلماء إلى أنه ليس للحاكم أن يحكم بعلمه، بل لابد من إقامة البينة الشرعية، فلو أن الحاكم رأى بنفسه رجلا يزني أو يشرب الخمر لم يجز له إقامة الحد عليه إلا بالبينة الشرعية، قال ابن القيم رحمه الله بعد أن حكى الخلاف في المسألة: «وأما الآثار عن الصحابة رضي

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، (ح ٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (ح٢٢١٩).

(٢) شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي قاضي الكوفة ويقال شريح بن شراحيل أو ابن شرحبيل ويقال وهو من أولاده الفرس الذين كانوا باليمن يقال له صحبه ولم يصح بل هو ممن أسلم في حياة النبي × وانتقل من اليمن زمن الصديق توفي سنة (٨٠هـ) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٠).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٤/ ١٣٩)، وأسانيدها ضعيفة، انظر التلخيص الحبير، (٤/ ١٩٣).

الله عنهم، فصح عن أبي بكر الصديق أنه قال: «لو رأيت رجلا على حد من حدود الله تعالى لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري»[١].

وعن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الرحمن بن عوف: «أرأيت لو رأيت رجلا قتل، أو شرب، أو زنى ؟ قال: شهادتك شهادة رجل من المسلمين، فقال له عمر: صدقت» [٢]، وروي نحو هذا عن معاوية [٣]، وابن عباس.

ومن طريق الضحاك: أن عمر اختصم إليه في شيء يعرفه، فقال للطالب: «إن شئت شهدت ولم أقض، وإن شئت قضيت ولم أشهد»[٤].

وأما الآثار عن التابعين، فصح عن شريح أنه اختصم عنده اثنان، فأتاه أحدهما بشاهد، وقال لشريح: وأنت شاهدي أيضا، فقضى له شريح مع شاهده بيمينه، وهذا محتمل، قال: «لا أكون شاهدا وقاضيا»[٥].

ثم قال ابن القيم: «وهل يسوغ للحاكم أن يأتي إلى رجل مستور بين الناس، غير مشهور بفاحشة، وليس عليه شاهد واحد بها، فيرجمه، ويقول: رأيته يزني ؟ أو يقتله ويقول: سمعته يسب ؟ أو يفرق بين الزوجين، ويقول: سمعته يطلق ؟ وهل هذا إلا محض التهمة ؟

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى في آداب القاضي، (ح٢٠٥٠٥) قال ابن حجر: «أحمد بسند صحيح إلا أن فيه انقطاعا، وأخرجه البيهقي من وجه آخر منقطعا» تلخيص الحبير، (٤/ ١٩٧)، يعني بين الزهري وأبي بكر رضي الله عنه.

(٢) علقه البخاري في الأحكام، (باب: الشهادة تكون عند الحاكم)، ووصله البيهقي في السنن الكبرى في آداب القاضي (ح٢٠٥٠٦)، قال الحافظ: «وهذا السند منقطع بين عكرمة ومن ذكره عنه لأنه لم يدرك عبدالرحمن فضلا عن عمر»، الفتح (١٣/ ١٥٩).

(٣) أمير المؤمنين: معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموي، أبو عبد الرحمن، صحابي، أسلم قبل الفتح وكتب الوحي، ومات في رجب سنة (٦٠هـ) وقد قارب الثمانين، الإصابة (٦/ ١٥١).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٢٢٢٣٩)، بلفظ قريب.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة، (٢٢٢٤٠) ولفظه: (جاءت امرأة..) وقوله: «لا أكون شاهدًا وقاضيا» في المصنف أيضا (٢١٣٥٦).

ولو فتح هذا الباب - ولا سيما لقضاة الزمان - لوجد كل قاض له عدو السبيل إلى قتل عدوه، ورجمه وتفسيقه، والتفريق بينه وبين امرأته، ولا سيما إذا كانت العداوة خفية، لا يمكن لعدوه إثباتها، وحتى لو كان الحق هو حكم الحاكم بعلمه لوجب منع قضاة الزمان من ذلك، وهذا إذا قيل في شريح وكعب بن سوار، وإياس بن معاوية، والحسن البصري، وعمران الطلحي، وحفص بن غياث وأضرابهم،كان فيه ما فيه.

وقد ثبت عن أبي بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، وابن عباس، ومعاوية رضي الله عنهم المنع من ذلك، ولا يعرف لهم في الصحابة مخالف.

وهذا من كمال فقه الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم أفقه الأمة وأعلمهم بمقاصد الشرع وحكمه، فإن التهمة مؤثرة في باب الشهادات والأقضية.. ولقد كان سيد الحكام صلوات الله وسلامه عليه يعلم من المنافقين ما يبيح دماءهم وأموالهم، ويتحقق ذلك، ولا يحكم فيهم بعلمه، مع براءته عند الله وملائكته وعباده المؤمنين من كل تهمة، لئلا يقول الناس: إن محمدا يقتل أصحابه.. ومن تدبر الشريعة وما اشتملت عليه من المصالح وسد الذرائع تبين له الصواب في هذه المسألة، وبالله التوفيق»[(١)].

- بين الأخذ والعقوبة والعفو والإعراض:

كثيرا ما تعتمد القوانين الوضعية على العقاب كأسلوب ردع وإصلاح، بينما نجد أن السنة النبوية لم تلتزم هذا، وإنما جاءت الحكمة الشرعية بتوظيف العقوبة لا جعلها غاية، فحيث كانت العقوبة والشدة هي الأنفع كان إيقاعها أولى، وحيث كان العفو والإعراض أنفع كان هو الأولى.

ولهذا أمثلة كثيرة، منها على سبيل المثال تعامل النبي ﷺ مع المنافقين في عهده بالكف والإعراض عنهم، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: « ومن هذا الباب إقرار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة

(١) الطرق الحكمية ص (٢٠٤-٢١٠) باختصار.

إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميته، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمدا يقتل أصحابه »[١].

فتركه لابن سلول ومن معه كان لأسباب وجيهة من أهمها: أن بعض المسلمين من قوم ابن سلول وإن كانوا من المؤمنين إلا أن الحمية والعصبية للقبيلة والعشيرة قد يدخل عليهم في إيمانهم بسببها شيء لو عوقب ابن سلول، ومن عرف شدة تعصب العرب لقبائلهم وأقوامهم قدر ذلك الموقف من النبي ﷺ.

فإذا عرفنا مقدار حمية العرب لقبائلهم وأقوامهم، فإن النبي ﷺ ترك ابن سلول حتى سقط بنفسه، فأصبح قومه بعد ذلك هم الذين ينكرون عليه إذا أخطأ، بل أعظم من ذلك: أن ولده عبدالله أتى النبي ﷺ وقال: بلغني أنك تريد قتل أبي فإن كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل رأسه إليك، وكان ﷺ يقول لعمر بعد ذلك: «**كيف ترى؟**»[٢] لأن عمر كان حريصا على قتله، ولم يكن له من الحكمة وبعد النظر في العواقب[٣] ما كان لرسول الله ﷺ، وهذا في مقابل أن النبي ﷺ قتل أناسا آخرين كان فيهم أذى على النبي ﷺ وأصحابه مثل كعب بن الأشرف[٤]، لأنهم لا حمية لهم من داخل أفراد الأمة.

بينما كان النبي ﷺ شديدا مع الثلاثة الذين خلفوا فهجرهم وأمر المسلمين بهجرهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، لأن هؤلاء الثلاثة عرف منهم النبي ﷺ أن الشدة معهم أنفع بينما مع المنافق الذي يبطن الكفر ويظهر الكذب ستكون العواقب وخيمة، وقد تبينت حكمته في موقف كعب بن مالك حيث قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا، فقرأته

---

(١) الفتاوى (٢٨ / ١٣١).
(٢) انظر فتح الباري، (٨ / ٦٥٠).
(٣) مع أنه – رضي الله عنه – كان له منها أوفر الحظ والنصيب.
(٤) انظر قصة قتله بأمر رسول الله × في البداية والنهاية، (٤ / ٦).

فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء، فتيممت التنور فسجرته بها»[١] فانظر إلى صلابة الإيمان التي جعلت هؤلاء الثلاثة على قدر مسؤولية العقوبة الشديدة من النبي ﷺ.

- في القتل والدية:

إذا قتل الرجل الرجل وجبت عليه العقوبة، أما في شريعة التوراة فقد كانت القتل ولا مناص منه، وأما في شريعة الإنجيل فقد كان فيها الدية فقط، قال ابن حجر: «قلت: محصل كلام ابن عباس يدل على أن قوله - تعالى - ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي: على بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ مطلقا، فخفف عن هذه الأمة بمشروعية الدية بدلا عن القتل لمن عفا من الأولياء عن القصاص، وبتخصيصه بالحر في الحر، فحينئذ لا حجة في آية المائدة لمن تمسك بها في قتل الحر بالعبد، والمسلم بالكافر، لأن شرع من قبلنا إنما يتمسك منه بما لم يرد في شرعنا ما يخالفه، وقد قيل: إن شريعة عيسى لم يكن فيها قصاص، وإنه كان فيها الدية فقط، فإن ثبت ذلك امتازت شريعة الإسلام بأنها جمعت الأمرين، فكانت وسطى لا إفراط ولا تفريط»[٢].

- في السعي للسلطة:

لابد للخلق من إمارة تصلح شؤونهم وتسوسهم بكتاب الله - تعالى -، هذا أمر فطري قبل أن يكون شرعيا، ولهذا كان رأي عامة أهل السنة أن الإمامة واجبة بالنص والإجماع، وقد اهتم بها الصحابة الكرام قبل أن يدفنوا النبي ﷺ، خوفا أن يعود الناس إلى حالة الجاهلية التي أنقذهم الله منها بالنبي الكريم ﷺ، وهذا ما حذر منه النبي ﷺ في حال الفرد قبل الجماعة، حيث قال: « **من فارق الجماعة شبرا فمات، إلا مات ميتة جاهلية** »[٣].

والسلطة شرف وقوة ومنعة وغنى، لهذا تحرص عليه غالب النفوس، لكنها من جهة أخرى أمانة وتكليف ومشقة، ولهذا تنفر عنها بعض النفوس.

---

(١) البخاري في المغازي، (ح٤٤١٨)، ومسلم في التوبة، (ح٢٧٦٩).
(٢) فتح الباري، (١٢/ ٢٠٩).
(٣) أخرجه البخاري في الفتن، (ح٧٠٥٤)، ومسلم في الإمارة، (ح١٨٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنه.

لقد بذل النبي ﷺ جهدا كبيرا ليربي أصحابه على البعد الدنيا ومظاهر القوة والسلطان والأبهة، وبين هو عمليا أن السلطة أمانة وهم عظيمين، وأنها تكليف ومشقة، فمن أخذها بهذا الاعتبار أعانه الله عليها، ووفقه فيها، وكانت له شرفا دينيا لا دنيوي.

وأما من حرص عليها وسعى إليها فإنه يوكل إلى نفسه وتكون عليه شاقة عسيرة وربما ضيع الأمانة فأصبحت عليه ترة وحسرة، خصوصا إن كان أصلا غير أهل لها، ولهذا قال ﷺ لأبي ذر: «**يا أبا ذر، إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، فلا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ﷺ ساكت، فقال: ما تقول يا أبا موسى – أو ياعبد الله بن قيس – ؟، قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته قلصت، قال: «**لن نستعمل أو لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى، أو يا عبد الله بن قيس**» فبعثه على اليمن (٢).

وهذا منهج وسطي يهذب أخلاق النفس البشرية وينفرها عن السلطة، ويلحظ في الحرص على الإمارة شبهة الطمع في شيء من متاعها الدنيوي، وهذا يعني تهيؤ فرصة العبث بمصالح الأمة، لكنه في نفس الوقت يأمر العباد بالعناية بمنصب الإمارة وتحمل مشقته وأداء أمانته ومراقبة الله فيه إذا ابتلي به الشخص، ولهذا اختار أبا موسى لتوفر صفات القائد فيه من جهة، ولبعده وعدم تطلعه للإمارة.

– بين الطاعة والتمرد:

وهنا – أيضا – يظهر مجال من مجالات الوسطية، فإن الانفراد بالسلطة كثيرا ما يؤدي

---

(١) مسلم في الإمارة، (ح١٨٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين، (٦٩٢٣).

بالشخص إلى اتخاذ قرارات ربما لا تكون موضع قبول من الرعية أو من بعضهم.

فالشريعة التي جاءت آمرة الرعية بالسمع والطاعة لمن ولاهم الله الأمر، جاءت - أيضا - آمرة الرعية أن لا يسمعوا ويطيعوا في معصية الله، كما قال ﷺ: « **لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف** »[١]، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى أمرتهم إن لا يتخذوا معصية الوالي أو ظلمة ذريعة وحجة للتمرد ونفض يد الطاعة في كل شيء، أو الخروج بالسيف والثورة والعصيان العام ونقض البيعة، فكل هذا من أمور الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها، وإنما ينصحوا له ويذكروه بالله، فإن أبى وكلوا أمره إلى الله وصبروا، فقد سأل رجل نبي الله ﷺفقال: أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعونا حقنا ويسألونا حقهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم** »[٢].

وعن عدي بن حاتم قال: قلنا: يا رسول الله لا نسألك عن طاعة من اتقى، ولكن من فعل وفعل، فذكر الشر، فقال: «**اتقوا الله واسمعوا وأطيعوا**»[٣].

إن هذا المنهج لا يجعل من الحاكم ربا لا يعصى ولا يكلم،كما يروج دعاة الباطل هذه الأيام، وإنما هو منهج يراعي المصلحة والمفسدة، فيأمر بالصبر على المفسدة إذا كان في دفعها بوسيلة ما مفسدة أكبر وأعظم.

فالعصيان والتمرد والثورة والخروج على الحاكم والكلام في حقه على المنابر وفي الصحف وغير ذلك ربما يجلب بعض الحقوق، وربما يطيح بالحاكم، لكنه قبل ذلك يعطل الأمة ومصالحها ويغري الأعداء بها، ويشوه سمعتها، هذا إن لم يكن فيه إراقة الدماء ونهب الأموال وشيوع الفوضى، والأمثلة الواقعية تؤكد صحة منهج الإسلام الوسطي المعتدل في هذا الجانب، فكثير من الدول التي ثار أهلها على حكامها بسبب الاستئثار والظلم مازالت منذ عشرات السنين تعيش النهب والسلب والقتل والفقر، حتى أصبح كثير منهم يذكر مساوئ العهد القديم الذي رفضه

---

(١) أخرجه البخاري في أخبار الآحاد (ح٧٢٥٧)، ومسلم في الإمارة (ح١٨٤٠).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، (ح١٨٤٦).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ح١٤٠)، وابن أبي عاصم في السنة (ح١٠٦٩) وصححه الشيخ الألباني بشواهده في تعليقه عليه.

وقد غدت حسنات في جنب ما يعانيه الناس في ظل حالة الجاهلية المعاصرة، التي يعيشونها بسبب تعدد الولاءات، والجماعات، والرياسات، والزعامات التي تتقاتل وتتنازع على السلطة والمال، ولو أن الناس صبروا والتزموا شريعة الله لكان خيرا لهم وأحسن تأويلا، ولكنها مشيئة الله وقدره أن يجعل للناس عبرة يعتبرون بها.

٥ **- في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد التشريعات التي جاء بها الإسلام نصا، أمرا بها وحثا عليها، وتعليقا للأجر بها وتوعدا بالعقوبة على تركها.

بل جعلها الله - تعالى - سببا للخيرية، حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ
١٠ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران:١١٠].

وقد أصبحت فيما بعد عهد النبوة إحدى الولايات الدينية كالقضاء والإمارة.

ولأن الآمر الناهي أو المحتسب هو في الأصل متكلم بلسان الشريعة، ومتسلط بسيف الشرع، فإنه كثيرا ما يدفع هذا بالمحتسب إلى التعدي والغلو في هذا الجانب، خصوصا إذا صاحب ذلك شيء من الكبر والتعالي على المخالف.

١٥ وهذا في مقابل تخلي الكثير عن مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية، وهو مخالف لأمره ﷺ في قوله: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

والسنة جاءت بالمسلك الوسط، فقننت هذا الأمر وضبطته بضوابط تمنع من غلواء أصحابه من جهة، مع الحث والاهتمام الشديد بهذه الشعيرة من جهة أخرى، قوة منع الرحمة، ورحمة مع
٢٠ الحزم.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، (ح٤٩).

وعناية بهذا الركن العظيم، ومن أجل القيام به على الوجه المشروع جاءت الآيات تلو الآيات تبين حكمه، وترسم معالمه وحدوده، وتزجر عن الانحراف به أوعنه ذات اليمين وذات الشمال.

قال - تعالى -: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[المائدة:٧٨-٧٩] قال ابن كثير: « أي: كان لا ينهى أحد منهم أحدا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه»(١).

وتظهر وسطية الإسلام في هذا الباب من خلال التشريعات التي حفت به بحيث تحصل المنفعة منه بدون مفسدة، أو أكثر المنفعة بأقل مفسدة.

إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يختلف من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، فليس كل من تصور أنه قام به قد وافق الصواب في ذلك، فكم من داعية يأمر وينهى - استجابة للآيات الداعية لذلك على وجه العموم - ضل في هذا الأمر، ولم يوفق للمنهج الوسط، وهو المنهج الحق، فقد يتكلم في مقام يجب فيه السكوت، وقد يغلظ في حال يجب فيها اللين والرفق، وقد يلين فيما لا يجدي فيه إلا الغلظة والشدة.

ولذلك جاءت السنة تبين المنهج القويم في مثل هذا الأمر، وترسم الطريق المستقيم الذي قد يخفى على الكثيرين.

فمن أهم معالم وسطيتها في هذه الشعيرة ما يلي:

١ - أن لا يكون في القيام بالأمر والنهي حصول مفسدة أعظم أو تفويت مصلحة أعظم، قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأنعام:١٠٨].

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٦٠).

قال ابن عباس:«قالت قريش: يا محمد ! لتنتهين عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عزوجل عدوا بغير علم، فأنزل الله هذه الآية»(١).

قال القرطبي:« قال العلماء: حكمها باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم، ولا دينهم، ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه بمنزلة البعث على المعصية»(٢).

٢ – استعمال الرفق واللين ما أمكن: والأصل في هذا قوله ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»(٣).

ومع هذا فإن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مسألة نسبية تختلف باختلاف ملابساتها والظروف المحيطة بها.

فإن هناك من يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب أن يكون دائما باللين، وخفض الجانب، ويستدل بقوله – تعالى –: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[طه:٤٤].

وآخرون يرون وجوب الشدة والإغلاظ مطلقا، ويستدلون بقوله – تعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[التحريم:٩].

والحق أن هذه الآيات هي التي تؤكد صحة ما قلته من أن الوسطية مسألة نسبية، تختلف باختلاف ما يحف بها من قرائن وأحوال، يجب اعتبارها في مثل هذه المسائل.

وخلاصة الأمر أن اللين والإغلاظ، أمران مشروعان، لا يجوز الاقتصار على أحدهما دون الآخر في كل الأحوال، وإنما الحق هو استخدام كل واحد منهما في موضعه، كما قال الشاعر:

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٣١٤).
(٢) تفسير القرطبي، (٧/ ٤١).
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، (ح٢٥٩٤).

ووضع الندي في موضع السيف بالفتى مضر كوضع السيف في موضع الندى

٣ – لكل شخص حد ينتهي إليه في الأمر والنهي: فالإنكار باليد والتغيير استقر الأمر على أنه من صلاحيات ولي الأمر، بمعنى أن سقف الأمر والنهي بالنسبة لعامة الناس هو الإنكار بالقول، وهذا يمنع تعدي الناس على بعضهم بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن الإخلال بالمنهج الوسط في هذه الشعيرة يؤدي إلى حدوث الفوضى والخلاف والتنازع المذموم، سواء كان هذا الإخلال بالتشدد والغلو فيه، أو بتركه والتساهل في تطبيقه، أو بالإخلال بضوابطه التي ذكرها العلماء، يقول شيخ الإسلام – رحمه الله – في مناسبة كهذه «وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان، فقد يذنب الرجل أو الطائفة، ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم، وينكر عليهم آخرون إنكارا منهيا عنه، فيكون ذلك من ذنوبهم[١]، فيحصل التفرق، والاختلاف، والشر، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديما وحديثا، إذ الانسان ظلوم جهول، والظلم والجهل أنواع، فيكون ظلم الأول وجهله من نوع، وظلم كل من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر، وآخر.

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها – ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها ومن تبعهم من العامة – من الفتن، هذا أصلها، يدخل في ذلك أسباب الضلال والغي، التي هي الأهواء الدينية والشهوانية، وهي البدع في الدين والفجور في الدنيا »[٢].

– في الجهاد:

فرض الجهاد في سبيل الله في مرحلة متأخرة، بعد أن يبس عود الأمة، وصلب متنها، وكان فرضه داخلا في باب الوسائل، فقد شرع لإزالة العوائق التي تحول دون وصول دعوة الحق إلى

(١) لأنهم لم يراعوا في إنكارهم ضوابط الشرع وقواعد الأحكام.
(٢) الاستقامة، (٢ / ٢٤١).

البشرية، وهو محكوم كسائر الأحكام لقانون المصلحة والمفسدة، وقد وقع الجهاد كغيره من الأحكام الشرعية تحت نزاع طائفتين متطرفتين:

إحداهما: تنكرت للجهاد واعتبرته حكما جاء لفترة معينة، ولم يعد يصلح للعصور المتأخرة، إذ حل محله العلاقات الدولية والسلم الدولي وحوار الحضارات.

وغالب هؤلاء من المتأثرين بالغرب ودعوات العصرنة، وغالب حججهم هو الرجوع إلى الحالة المكية، والاستلال بآيات العفو والجدال والإعراض التي نزلت في مرحلة الدعوة المكية.

والأخرى: اندفعت للجهاد واستعمال القوة إلى أقصى حد فجعلت الجهاد غاية في ذاته، ولم تميز بين ديار الكفر وديار الإسلام بل جعلت من الجهاد وقتال الكفار ذريعة لنشر الفساد والتخريب والاعتداء على الدماء والأعراض والأموال المصونة سواء في ذلك المسلمون وغيرهم.

وهم يحتجون بالآيات التي نزلت في المرحلة المدنية، التي تأمر بالقتال ونبذ العهود وقتال الكفار والمشركين كافة ونحو ذلك، مدعين أن الأمر آل إلى هذا وأنه لا سلم ولا حوار مع الكفار بشتى مللهم.

وبين هؤلاء وهؤلاء جاءت السنة، ووقف أهل الوسطية والاعتدال، حيث لم يتنكروا للجهاد والقتال الذي هو ذروة سنام الإسلام ومعقد العز في تاريخها، لكنها مع ذلك لا تراه غاية يطلب وتطلب إثارته مع المخالفين، وإنما هو محكوم بالظروف والأحوال التي تحيط بالأمة من حيث الاستعداد وعدمه.

فليس بين الآيات المكية والآيات المدنية تعارض حتى يحكم بإحداهما على الأخرى، بل إن تشريع الجهاد جاء مراعيا منهج الوسط والاعتدال وتحقيق المصالح ودرء المفاسد، قال شيخ الإسلام رحمه الله: « وجملة ذلك انه لما نزلت براءة أمر ان يبتدي جميع الكفار بالقتال وثنيهم وكتابيهم، سواء كفوا عنه او لم يكفوا، وأن ينبذ أليهم تلك العهود المطلقة التي كانت بينه وبينهم.. فقد كان مأمورا بالصبر على أذاهم والعفو عنهم، وأما بعد بدر وقبل براءة فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عمن سالمه، كما فعل بابن الأشرف وغيره ممن كان يؤذيه، فبدر كانت أساس عز

الدين، وفتح مكة كانت كمال عز الدين، فكانوا قبل بدر يسمعون الأذى الظاهر ويؤمرون بالصبر عليه، وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمرون بالصبر عليه، وفي تبوك أمروا بالاغلاظ للكفار والمنافقين فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم في مجلس خاص ولا عام.. فلما أتى الله بأمره الذي وعده من ظهور الدين وعز المؤمنين أمر رسوله بالبراءة الى المعاهدين وبقتال المشركين كافة وبقتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى الذين أمر الله بهما في أول الأمر، وكان إذ ذاك لايؤخذ من أحد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيرهم جزية، وصارت تلك الآيات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه، فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه، وصارت آية الصغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده أو لسانه، وبهذه الآية ونحوها كان المسلمون يعملون في آخر عمر رسول الله وعلى عهد خلفائه الراشدين، وكذلك هو الى قيام الساعة، لاتزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام، فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»[1].

ثامنا – السياسة الاقتصادية:

السياسة الاقتصادية الإسلامية تقوم على أمرين:

الأول: تحقيق مصلحة العباد.

الثاني: دفع الضرر والظلم عنهم أفرادا وجماعات.

وإذا أردنا أن نستجلي وسطية الإسلام في الجانب الاقتصادي أو ما يسمى قديما بالأموال، فإننا ننظر إلى مجمل المواقف الموجودة في عالم اليوم تجاه المال.

هناك نظرتان في العموم من المال والاقتصاد:

---

(١) الصارم المسلول (٢/ ٤١٤) باختصار.

الأولى: نظرة تراعي حقوق الفرد في اكتساب المال والتصرف فيه، وتجعلها هي الأساس، فتفح الأبواب أمام الاكتساب بأي طريق ممكن، فرأس المال ملك للفرد، وهو حر في استعماله على أي وجه يريد، ما دام ذلك لا يؤدي إلى إلحاق الضرر بأفراد آخرين بحسب نظرتهم المحدودة، وهذا هو النظام الرأسمالي.

والثانية: تلغي أي اعتبار للفرد وحاجاته، وتجعل المال حقا للأمة بمجموعها، وتقدم حقوق الأمة على حق الفرد، لا بل تلغيه كما قلنا إلا في أضيق الحدود، وهذا هو النظام الاشتراكي.

وهاتان النظرتان متقابلتان ومتضادتان، ولكل منهما إيجابيات وسلبيات:

فمن إيجابيات النظام الرأسمالي:

١ - أنه يحفز على الإنتاج والتنافس فيه، وهذا يعني استفادة المجتمع بكامله إذ سيؤدي ذلك إلى انخفاض الأسعار، وارتفاع سقف الجودة في المنتجات، وكسر أشكال الاحتكار.

٢ - توفير الفرص الوظيفية.

٣ - تلبية الرغبة الفطرية بالتملك وحرية التصرف في المال.

ومن سلبياته:

١ - أنه يزيد من الجشع والتفرد.

٢ - يفتح الباب أمام الربا بأشكاله والقمار بأنواعه، وهذا يعني زيادة أعداد الفقراء وقلة عدد الأغنياء، فيصبح المال دولة بين الأغنياء فقط، تزيد ثرواتهم، وتزيد ديون الفقراء لهم [١].

أما النظام الاشتراكي فمن إيجابياته:

١ - الحد من من الجشع وقطع الأطماع عن الاستحواذ على الأموال.

٢ - يحصل الفرد في الدولة على الحد الأدنى من متطلبات الحياة.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، ص (٩١٣-٩١٤).

ومن سلبياته:

١ - القضاء على روح المنافسة ومن ثم تخلف وترهل النشاط الإنتاجي فتزيد الأسعار وتنخفض الجودة.

٢ - تكبت الرغبة الفطرية بالتملك [١].

أما الإسلام فقد جاء نظامه المالي الاقتصادي وسطا بين هاتين المفسدتين، فهو يجمع الإيجابيات في كلا النظامين الرأسمالي والاشتراكي.

وفيه من الأحكام والنظم ما يدرأ عن الفرد والمجتمع سلبياتهما، ففي الوقت الذي يعطي الفرد حق التملك وحرية التصرف بالمال، إلا أنه يضع قيودا وخطوطا لا يجوز تجاوزها:

فهو يحدد سبلا لجواز كسب المال، وسبلا لإنفاقه، لا يجوز مخالفتها.

وهو يقرر أن المال ليس ملكا حقيقيا للفرد، بل هو هبة الله استخلفه عليها وخوله التصرف فيه حسب شريعته.

كما جعل على المرء محاسبة ومسؤولية تجاه المال، إذ لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ومنها: «**عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه**»[٢].

كذلك فالنظام الإسلامي لا يفصل المرء عن مجتمعه الذي يعيش فيه، بل يجعل على الأغنياء مسؤولية تجاه الغير في مالهم، بالإنفاق على من تجب عليهم النفقة، والزكاة لغيرهم، والصدقة على آخرين.

فهو يجعل للأمة من ماله جزءا، لا كلا كما يفعل الاشتراكيون، ولا يجعله منفردا بإطلاق كما يفعل الرأسماليون.

---

(١) للتوسع انظر (مذاهب فكرية معاصرة) لمحمد قطب، ص (٤١٠)، وهذه الإيجابيات أو السلبيات التي ذكرناه ليست مقارنة بالأصوب أو بما ينبغي أن تكون عليه، وإنما هي مقابل الباطل الآخر.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (ح٢٤١٧)، عن أبي برزة السلمي وقال: (حسن صحيح)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (ح٧٣٠٠).

وفي الميراث، فإن الإسلام لا يجيز للمحتضر حرية التصرف في ماله بالبيع أو الصدقة أو نحو ذلك، لأن فيه اعتداء على حق الورثة، كما لا يجيز له التدخل في الحصص الشرعية للورثة، كما قال ﷺ: «**لا وصية لوارث**»[١].

لكنه لا يمنعه من التصرف بجزء من ماله لأغراض يحتاجها من مواساة يتيم أو صدقة أو هدية، فأجاز له أن يوصي بجزء لا يزيد عن الثلث من ماله، والثلث كثير[٢].

ومع أن الشرع أعطى صاحب المال حرية التصرف فيه إلا أنه أجاز للورثة إذا رأوا منه إسرافا وتضييعا للمال أن يحجروا على تصرفه في ماله، لأنه كما قلنا مخول بالتصرف فيه من قبل الله – تعالى – وليس مالكا حقيقيا له.

والشرع – أيضا – وإن كان أعطاه حرية التصرف في المال لكنه منعه من الإسراف والتبذير الذي يضيع المال فيما لا فائدة فيه أو فيما يعود عليه بالضرر، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

ومما تقدم تبين لنا وسطية المنهج الإسلامي بحق، يقول الأستاذ محمد عمارة: « وفي فلسفة الإسلام في الاقتصاد والثروات والأموال، نجد الاستخلاف وسطا بين الحرية المطلقة في الأموال، وبين الإلغاء الكامل للحرية في الأموال، فالإنسان مالك وحر ومستثمر ومنفق ومستمتع، لكن كوكيل وخليفة في الملكية الاجتماعية عن المالك الحقيقي وهو الله – سبحانه و تعالى –، فكل حقوق الإنسان في الثروات والأموال محكومة بحقوق الله وفرائضه في التوازن والتكافل بين الأمة»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (ح٢١٧٩١)، وأبوداود في الوصايا، (ح٢٨٧٠)، والترمذي في الوصايا، (ح٢١٢٠)، وابن ماجة في الوصايا (٢٤١٣)، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وله شواهد عن عدد من الصحابة، انظر بحث الشيخ الألباني رحمه الله حوله في الإرواء (ح١٦٥٥).

(٢) البخاري في المرضى (ح٥٦٦٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) مجلة حراء الإلكترونية العدد: ٢ (يناير–مارس) ٢٠٠٦.

الفصل الثالث:

آثار الوسطيّة على المجتمع

قلنا سابقا أن الوسطية في الإسلام جاءت وصفا للمجتمع المسلم والأمة المسلمة، وهذا الوصف له وجهان:

الأول: مظاهر الوسطية، أي الأحكام والأفعال الشرعية المتصفة بالمنهج الوسط العدل في كل شيء، وهو ما نراه في دوائر القضاء والفتيا والدعوة والجهاد ونحو ذلك مما تقدم بعضه.

الثاني: الثمرة الناتجة عن تطبيق المنهج الوسطي الشرعي، وهو مجمل الآثار والملامح التي تظهر على الفرد والمجتمع المسلم، نتيجة سلوك المنهج الوسط، وبعض هذه الآثار وإن كان مر بنا لفظا إلا أننا تناولنا الجزء المتعلق بنا، أي ما أوجب الله علينا سلوكه من الشريعة الوسطية، ونتناول هنا الجزء الآخر منه أي النتيجة، والأسماء في اللغة العربية كثيرا ما تتضمن الشيء وسببه، كما سمى الله – تعالى – وسائل الشرك باسم الشرك، وكما سمى وسائل الزنى باسمه، كما قال النبي ﷺ: « **إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه**»(١).

ويمكن إجمال آثار الوسطية على المجتمع فيما يلي:

١ – التوازن:

تدور معاني الوزن حول الثقل، والتوازن مأخوذ منه، بمعنى التساوي في الثقل، يقال: توازن الشيئان: استويا في الثقل، ووازن بينهما: ساوى وعادل بينهما.

ويأتي الوزن – أيضا – بمعنى التقدير والاعتدال، تقول: وزن الكلام: قدره، واتزن الشيء: اعتدل.

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (ح٦٣٤٣)، ومسلم في القدر، (ح٢٦٥٧)

والموازنة تشمل كل هذا، فتتضمن التساوي والعدل والتقدير، فإذا قدرت الأمر قدره، وعدلت بين المتساويين، وأعطيت كل أمر وزنه وساويته بغيره مما هو مثله فقد وازنت ووزنت وحققت التوازن(١).

إن المجتمع مثل السفينة التي تمخر عباب البحر، تحتاج إلى التوازن لتسير مستقرة سالمة من الحوادث، فإذا اختل توازنها اضطربت بمن عليها، وقد يكون في ذلك غرقها وتلفها.

فإذا تحقق المجتمع بالوسطية منهجا كان من آثار ذلك تحقيق التوازن الذي يضمن هدوءه واستقراره.

إن التوازن في المجتمع يعني ثبات العناصر المكونة له، كل في مكانها الصحيح، وكل بحجمه الحقيقي، وهذا يعني طهارة المجتمع من مسببات الفناء، وأهمها بل أخطرها: التنازع، والطغيان.

أما التنازع: فقال الله – تعالى –: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال:٤٦].

فالتنازع و المغالبة بين الأطراف مما يؤدي إلى انعدام التوازن، ومن ثم الفشل والانحلال، ولهذا حذر الله – تعالى – المؤمنين منه، ودلهم في موضع آخر إلى أسباب درء التنازع والاختلاف، كما قال عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

وقال – تعالى –: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣].

وبين لهم بالمثال الواقعي عاقبة التنازع فقال: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم

(١) انظر: المعجم الوسيط (٢ / ١٠٢٩ –١٠٣٠).

مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٥٢].

وأما الطغيان فهو من نتائج اختلال الوسطية والتوازن من ثم، فالطغيان يعني رجحان طرف على حساب طرف، وهو أمر نهى الله عنه وحذر عواقبه، قال – تعالى –: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود:١١٢].

وقال: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[طه:٨١].

وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾[الرحمن:٧-٩]، تأمل هنا مقابلة الطغيان بالميزان.

فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسُد، ويتخذ له مكانا في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة، التي لا تنمو في غير جو الحرية، والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة، وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك، وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنها خطر على الطغاة والطغيان، فلابد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات،كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة، وهو فساد أي فساد.

وحتى نتبين ما قلناه بصورة أوضح نضرب بعض الأمثلة:

منها: في جانب السياسة الاقتصادية، ذكرنا سابقا ملامح من وسطية الإسلام في النظام المالي، فذلك النظام الوسطي أفرز آثاره على المجتمع المسلم، فتحقق فيه التوازن من عدة وجوه، فالشرائح في المجتمعه المسلم ثلاث، فئة كثيرة مكتفية، وفئة قليلة فقيرة محتاجة للمال، وفئة غنية مقابلها باذلة له، إن هذا التوزيع هو التوزيع الطبيعي الذي يفرزه النظام المالي المتوازن فهو نظام يقضي على مظاهر التنازع، لأن الفقير والمحتاج يجد من يسد حاجاته ويواسيه بماله، والشخص المكتفي علمه الإسلام الاكتساب، ونهاه عن الحسد، وأمره بشكر نعمة الله – تعالى – والقناعة، والغني أمره الإسلام أن يبذل من ماله ويواسي من لا مال له سواء بطريق الإنفاق الواجب، أو الزكاة الواجبة، أو الكفارات، والصدقات.

وحرم الله – تعالى – كثيرا من أشكال الكسب التي تؤدي إلى التنازع كبيوع الغرر والجهالة، ونهى عن الغش والتدليس والسرقة وغير ذلك.

كما أن النظام المالي في الإسلام جزء من منظومة تشريعية كبيرة ترتبط بالأخلاق والإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار، فهذا النظام كما ترى يقضي على أشكال النزاع الذي يسببه وجود المال في أيدي البعض وعدم وجوده في أيدي آخرين.

وفي نفس الوقت قضى هذا النظام على أشكال الطغيان فمنع الربا والقمار وأكل أموال الناس بالباطل، ومنع الاحتكار وكافة أنواع الاستغلال.

إن ما ذكرناه في هذه السطور يحتاج إلى شرح كثير ليتبين أكثر، لكنه مجرد مثال لتوضيح المقال، فقد بان للمتأمل كيف حقق هذا المنهج الوسطي التوازن في المجتمع، ولعل الأنموذج الأكمل على هذا هو مجتمع الصحابة رضوان الله – تعالى – عليهم.

ففي ذلك المجتمع اختفت – أو كادت – أشكال التنافس الدنيوي والتنازع بين المؤمنين، وإذا حدث شيء من ذلك فغالبا ما ينتهي ويزول بسرعة، لأن الامتثال للشريعة الربانية كان مثاليا، وبالتالي فإذا اختل التطبيق اختل التوازن فيأتي التدخل القضائي ليعيد الأمور إلى نصابها فيعود الميزان إلى سابق عهده.

مثال آخر: في الجانب الأخلاقي هذه المرة، فقد قدمنا كيف أن المنهج الوسطي في الأخلاق هو سلوك الوسط والاعتدال في كافة الأخلاق والطبائع التي جبل عليه بنو آدم.

ولنأخذ مثالا على هذا الشجاعة والحمية مع التسامح والعفو، فإن وجود هذه الصفات بصورة مثالية وسطية يحقق التوازن ويمنع طغيان البعض على بعض، فاختلال هذا النظام يعني وجود فئتين من الناس: فئة طاغية تعتدي على الغير، وفئة خانعة ضعيفة تتقبل الظلم وتسكت عليه، وهذا يعني اختلال التوازن ووجود الطغيان.

لكن اعتدال هذه الصفات في أفراد المجتمع يعني وجود نوع من التدافع، يمنع من الطغيان ويحقق التوازن الذي ينتج عنه الأمن الاجتماعي، ولهذا قال – تعالى –: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[الحج:٤٠].

والنبي يحث المسلم على أن لا يبلغ به الضعف أن لا يدفع عن نفسه،فعن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**»(١).

وعن أبي هريرة قال: **جاء رجل فقال: يا رسول الله ! أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال: فلا تعطه، قال: أرأيت إن قاتلني ؟ قال: قاتله، قال: أرأيت إن قتلني ؟ قال: فأنت شهيد، قال: أرأيت إن قتلته ؟ قال: هو في النار** »(٢).

هذا مثال لواحد من الأخلاق، ولو طبقنا ذلك على باقيها لوجدنا النتيجة واحدة.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم، (ح٢٤٨٠)، ومسلم في الإيمان، (ح١٤١).
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، (ح١٤٠).

مثال آخر: الجمع بين العمل الدنيوي وعمارة الأرض، وبين العمل للآخرة، وهو من مظاهر الوسطية التي سبق الكلام عنها، هو – أيضا – منتج للتوازن في المجتمع.

إن التعاطي مع أمور الآخرة وإهمال الدنيا سبب للتخلف الحضاري، وخسارة فادحة وسبب لانهيار الدولة، وتسلط العدو، لما يراه من ضعف هذا الجانب.

٥ كما أن الإغراق في العمل الدنيوي وإهمال الآخرة يؤدي إلى انهيار النظام الأخلاقي الشرعي الذي يرعى المجتمع ويحفظ الحقوق.

وكل منهما يعني حدوث التنازع والطغيان، ولا يدرأ ذلك عن المجتمع إلا التوازن الناتج عن الجمع بين العمل للدنيا مع العمل للآخرة وإن كان هذا غاية وذاك وسيلة.

وبهذا جاء الكتاب والسنة، كما قال – تعالى –: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا
١٠ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[القصص:٧٧]، انظر كيف أشار في نهاية الآية إلى ما في ترك الوسطية في التعامل مع المال وأنه يؤدي إلى الفساد في الأرض، وهو تعبير أشمل من كونه فسادا في العمل الأخروي، أي أنه فساد على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي يؤثر على المجتمع كافة.

مثال آخر: العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي أحد المجالات التي تظهر فيها آثار الوسطية،
١٥ فهي علاقة تحكمها الطاعة المقيدة بطاعة الله ورسوله ﷺ، والتوقير والاحترام.

لكنها مع هذا تحث على التعاون بينهما وعدم الانفراد بالسلطة مطلقا، كما تأمر الرعية أن لا يعينوا الحاكم على معصية، قال الله – تعالى –: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨].

وقال – تعالى – آمرا نبيه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ
٢٠ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٥٩].

وقال ﷺ: « **لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف** »(١).

وجعل النبي ﷺ أعظم الأجر لمن احتسب نفسه أو ماله وعرضه في نصح الحكام وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، قال ﷺ: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»(٢).

وجاء في الشرع الأمر بالأخذ على يد الظالم بكل سبيل ممكن وعدم السكوت عن ظلمه وهذا طبعا بالسبل الشرعية كما قال ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا بيده، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**»(٣).

وقال ﷺ: «**الدين النصيحة**، قالوا: لمن يا رسول الله ؟ قال: **لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(٤).

ومع هذا فأمر بالصبر على ظلم الولاة وجورهم وعدم الخروج عليهم بالسيف والسمع والطاعة في غير معصية كما في حديث ابن عباس مرفوعا: «**من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرا فميتته جاهلية**»(٥).

إن هذا المنهج الذي يحرص كل الحرص على تحقيق أكبر قدر من المصلحة ودرء أكبر قدر من المفسدة يحقق في المجتمع المسلم توازنا بين قوى الحكم وقوى المحكوم، أو ما يسمى اليوم بالمعارضة والسلطة، وهذا يضبط الأمور ويمنع الطغيان بلا شك.

لكن دون أن يجعل من الظلم والجور حجة لإحداث الفوضى بالاضطرابات والإضرابات والمظاهرات والعصيان المدني كما هي أشكال المعارضات السياسية اليوم، والتي لا تمت للشرع بصلة، بل يكون ذلك بالصبر والمناصحة، وبالأمر والنهي بالقول دون السيف، لأن هذه السبل

---

(١) تقدّم .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (ح٣٧٤).
(٣) أخرجه أحمد (ح٣١) وأبوداود في الملاحم (ج٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (ح٢١٦٨)، وابن ماجة في الفتن (ح٤٠٠٥) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (ح١٥٦٤).
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (ح٥٥).
(٥) أخرجه البخاري في الفتن (ح٧٠٥٣و٧٠٥٤)، ومسلم في الإمارة (ح١٨٤٩).

المعاصرة وغيرها وإن حدت من الظلم إلا أنها تزيد المفسدة وتنشر رقعة الفوضى بشكل أكبر مما سبق، يقول الأستاذ محمد عمارة: «كما تقدم الوسطية الإسلامية منهاج التدافع عندما يختل التوازن في العلاقات بين الحضارات وكذلك الطبقات، لأن هذا التدافع هو متن وسط، يمثل الحراك الاجتماعي الذي يزيل الخلل، ويعيد العلاقات إلى مستوى التوازن والعدل، مع الحفاظ على تعدد وتنوع وتمايز الفرقاء المختلفين.

فهو التدافع وسط بين السكون الذي ينزل الخلل ليستفحل، وبين الصراع الذي يصرع فيه القوي الضعيف، فينهي التعددية والتمايز والاختلاف.

لقد رفض القرآن منهاج الصراع لأنه يزيل سنة التعددية.. بينما التدافع حراك يعدل المواقف، مع المحافظة على التعدد والتنوع والاختلاف: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت:٣٤]»[(١)].

٢ - الاستقرار:

المجتمع الإسلامي الوسطي مجتمع ينعم بالاستقرار، وهو أثر من آثار الوسطية، ووجه آخر من أوجه التوازن السابق الكلام عنه.

فالتوازن والاستقرار مرتبطان بعضهما مع بعض، فحيث وجد التوازن وجد الاستقرار، وحيث فقد التوازن فقد الاستقرار.

وإذا ذكر الاستقرار تصور الذهن معه معان أخرى، كالهدوء، والسكينة، والاطمئنان، والدعة، وهذا كل تابع للمعنى اللغوي، فإن القرار هو المكان المنخفض الذي يجتمع فيه الماء، فيسكن ويكف عن الحركة والجريان، ولذا يقال: قر بالمكان: أي مكث طويلا وأقام فيه، ويقال:

---

(١) مجلة حراء الإلكترونية العدد: ٢ (يناير-مارس) ٢٠٠٦، مع التنبيه إلى أن الشرع رفض الصراع لأنه شر ولأنه يؤدي إلى الفساد، وكون الاختلاف سنة كونية يأذن الله بها وله فيها حكمة لا يعني أنها سنة شرعية يندب العباد إليها، بل الخلاف شر كله.

قر بمعنى: سكن واطمأن، ومنه قوله - تعالى -: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾[مريم:٢٦]، فقد قيل إنه بمعنى سكون العين، فإن النفس إذا رأت ما يسر سكنت، وإذا خافت وحزنت دارت واضطربت(١).

وإذا وجد التنازع والطغيان اللذان يتعارضان مع التوازن فقد فقد الاستقرار.

إذا عرفنا هذا عرفنا أن الاستقرار سمة ظاهرة يراها الناظر بوضوح في أي مجتمع وسطي متوازن، تجد فيه الاستقرار الاقتصادي، والاستقرار الأمني، والاستقرار الاجتماعي، والاستقرار النفسي .

وكل هذا نتيجة التوازنات التي تنتج عن الموازنات الشرعية الوسطية.

المجتمع الوسطي الذي يطبق السياسة الوسطية الشرعية في الحكم والسياسة، تستقر فيه الأمور، وتختفي فيه الثورات والمغالبات، ولماذا تحدث هذه الاضطرابات في مجتمع يسوده العدل، ويسوده المساواة بين الناس أمام القانون، مجتمع ينعم بتوزيع عادل للثروات، ومتابعة لأحوال الناس فقيرهم وغنيهم ضعيفهم وقويهم، من أين تنقدح فيه شرارة الفتن والاضطرابات؟

إنه مجتمع مغلق ومحكم الإغلاق ضد منغصات الاستقرار السياسي، ولهذا كان من قول أبي بكر - رضي الله عنه - حين تسلم مهام الخلافة: «الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه»(٢).

ومن طريف ما يروى في هذا الشأن أن أبا بكر عين عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما- قاضيا على المدينة، فمكث فيهم سنة دون أن ترفع إليه شكوى.

فطلب من أبي بكر إعفاءه من هذا المنصب، فقال أبو بكر: أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر ؟

---

(١) روح المعاني للآلوسي، (٩/ ١٢٥).

(٢) انظر البداية والنهاية، (٦/ ٢٩٤).

فقال عمر – رضي الله عنه –: لا يا خليفة رسول الله، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين، عرف كل واحد منهم حقه، فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب فلم يقصر عن أدائه، وأحب كل واحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه.

إذا غاب أحدهم تفقدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج ساعدوه، وإذا أصيب واسوه.

دينهم النصيحة، وخلقهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.. ففيم يختصمون ؟![1]. وصدق – رضي الله عنه –.

هذه الأخلاق التي ذكرها عمر هي ناتج المنهج الأخلاقي والنظام الاجتماعي الإسلامي الذي يتسم بالوسطية، والذي كان من آثاره هذا التعاطف والتماسك والتناصح والخوف من الله ومن تعدي الحقوق، وهذا يعني القضاء على كل مظاهر التنازع ومن ثم الاستمتاع بمجتمع مستقر.

ولهذا الاستقرار وجوه متعددة، فمنها:

– الاستقرار النفسي:

النفس البشرية وحدة اعتبارية، هذا في ظاهر الأمر، لكنها في الحقيقة أقسام من حيث صفاتها وأحوالها.

وقد حكى الله – تعالى – في القرآن عن عدة أحوال لهذه النفس، فهناك النّفس اللوّامة: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة:٢].

وهناك النفس الأمارة بالسوء: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[يوسف:٥٣].

وهناك النفس المطمئنة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾[الفجر:٢٧].

---

(١) لم أجده بهذا السياق على شهرته، ورد مختصرا في أخبار القضاة لوكيع (١ / ١٠٤).

وهذه النفس هي التي امتثلت أمر ربها فسعدت في الدنيا والآخرة، ووصفها بالاطمئنان يمكن أن ينطلق فيه التعبير عن كثير من المعاني التي تصور لك حقيقة هذه النفس من حيث صفتها وطريقتها ومنهجها.

فهي «مطمئنة إلى ربها، مطمئنة إلى طريقها، مطمئنة إلى قدر الله بها، مطمئنة في السراء والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء. مطمئنة فلا ترتاب ومطمئنة فلا تنحرف، ومطمئنة فلا تتلجلج في الطريق».

وكل هذا لا يمكن أن يتحقق للنفس ما لم يكن صاحبها قد وقفها على الطريق المستقيم، الذي هو منهج الإسلام العدل والوسط.

فأيما عبد انحرف عن الصراط ومال عنه يمنة أو يسرة وخالف شريعة الله فإنه يحصل له من الاضطراب وفقد الاطمئنان بحسب بعده عن الله – تعالى –، كما قال عزوجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه:١٢٤].

وصاحب النفس المطمئنة عقد صلحا مع نفسه وتعاهدا على أن لا تعصيه في معروف، ولا تأمره بباطل، فليس هناك تنازع ولا اضطراب ولا تردد يفقد معه الاستقرار والسلام النفسي، بمعنى أنه يمتع بصحة نفسية عالية جدا.

أما صاحب النفس اللوامة أو النفس الأمارة بالسوء فهو يعيش حالة من التردد والضعف والزيغ، وربما يقع فيه المرض فيمرض قلبه وتعطب نفسه، وإذا وقع في القلب مرض أثر على المرء في نفسه وبدنه، فإن القلب للجسد كالملك، ولا يكاد يخالف الجنود ملكهم، فإذا أمرهم بخير أطاعوه، وإذا أمرهم بشر فكذلك، كما قال ﷺ:«**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1].

فإذا مرض هذا القلب أثر في جنوده فيصدر عنهم السوء، وهذا السوء قد يكون في ذات الشخص وقد يكون متعديا إلى المجتمع فيقع الفساد، ولهذا قال – تعالى –: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

(١) تقدّم.

مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾[المائدة:٥٢].

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٥]، المرض هنا الشبهات.

٥ وأما مرض الشهوات ففيه قوله – تعالى –: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[الأحزاب:٣٢].

وهذا يعني أن السلام النفسي والهدوء الروحي لا يعني شخصا سليما منتجا صالحا في نفسه فقط، وإنما يعني – كذلك – مجتمعا صالحا سليما منتجا.

فإن الفرد وحدة تكوين المجتمع، فإذا تكون المجتمع من أفراد صالحين فهذا يسري إليه بكل ١٠ تأكيد.

فالسلام النفسي الذي هو أحد آثار المنهج الوسطي في السلوك والتدين وغير ذلك هو وصف للفرد والمجتمع الذي يعيش فيه أفراد مثله.

– الاستقرار الاجتماعي:

١٥ المجتمع الإنساني يتكون من وحدات صغيرة هي الفرد، والفرد يشكل مع غيره مجموعات تعيش داخل المجتمع بوصف معين، فهناك الأسرة وهناك الأقارب وهناك الفقراء، والأغنياء، والعمال، وأصحاب رؤوس الأموال، وهناك السياسيون، والمواطنون، والأجانب، وغير ذلك من الشرائح التي تتميز مع بعضها عن غيرها بوصف مشترك.

وهذا التمايز سبب حافز على وجود الصراع الاجتماعي بين الطبقات الاجتماعية، لكن المنهج ٢٠ الإسلامي الوسطي المعتدل أسس المجتمع على أسس وقيم تعترف بالطبقية كحتمية للتمايز البشري وسنة من سنن الله – تعالى – في الكون، كما قال – تعالى –: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ

ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:١٦٥].

يقول الأستاذ محمد عمارة: « وفي الموقف من تمايز الناس إلى طبقات اجتماعية، يقف الإسلام بوسطيته الجامعة بين الحرية المطلقة التي تثمر التفاوت الفاحش بين الطبقات، وبين الطوباوية التي حلت بمجتمعات لا طبقية؛ فطبيعي وضروري – بناء على تفاوت الطاقات والهمم والجهود – أن يتمايز الناس في المكاسب والحظوظ، لكن الوسطية تفرض وقوف هذا التمايز عند حدود التوازن والتكافل، الذي يجعل الأمة جسدا واحد، تتكافل أعضاؤه، مع تفاوت الأهمية والعطاء والحاجات لكل عضو من هذه الأعضاء»[1].

وهذه القيم الاجتماعية التي يقوم عليها السلام الاجتماعي هي في حقيقتها مجموعة من السلوكيات والأخلاق التي جاء الإسلام بها تأسيسا أو تتميما.

وغايتها في النهاية القضاء على أشكال النزاع ومسبباته، مما ينتج عنه الاستقرار الذي تحدثنا عنه سابقا، والذي يعد السلام الاجتماعي أحد وجوهه الهامة.

وهذه القيم الاجتماعية هي أساسا قيم مستمدة من الدين، وليست أهميتها نابعة فحسب من كون هذه القيم عنصرا مهما من عناصر الاستقرار الوطني والسلام الاجتماعي، والطمأنينة السياسية، ولكن أهميتها تعود كذلك – وربما بقدر أكبر– إلى كون هذه القيم هي أساس السلام العقلي والذهني والنفسي للفرد، وهو السلام الذي يتيح للإنسان أن يتكيف مع مختلف الظروف، وأن يواجه الأنواع المتباينة من مشقات الحياة، وأن يعيش العسر بالقدر نفسه من الرضا والشعور بالراحة الذي يتوافر له في حياة اليسر، والعسر واليسر هنا ليسا ماديين فحسب، بل هما في المقام الأول نفسيان.

ويمكن أن نجمل الأصول التي يقوم عليها قوام السلام الاجتماعي فيما يلي:

---

(١) مجلة حراء الإلكترونية العدد: ٢ (يناير–مارس) ٢٠٠٦.

الأول: التربية الإيمانية.

ونعني به هنا الإيمان المؤثر في السلوك بما يفعله في النفس المؤمنة من مراقبة لله – عز وجل، وإيثار لرضاه وتجنب لسخطه، وسعي في نفع خلقه، ونزول على حكمه، وطاعة لأمره ونهيه.

وثمرة هذا الإيمان لا يتسع لتفصيلها مقام، لأنها تورق حتى تظلل حياة الإنسان كلها، يقول الله – تعالى – متحدثا عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٦٦].

ويقول – أيضا –: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:٩٦].

الثاني: التقوى.

إذا كانت مراقبة الله – عز وجل – هي الثمرة الإجمالية للتربية الإيمانية، فإن التقوى هي الأثر المحسوس للإيمان. وللتقوى تعريفات عدة من أجملها وأدقها: «ألا يراك الله حيث نهاك، وألا يفقدك حيث أمرك»[(١)].

ولذلك لا يكاد الناظر في القرآن الكريم يمر على صفحة من صفحات المصحف إلا وجد التقوى منسابة فيها: فهي علة الأفعال، وعلة الأقوال، وعلة الامتثال، وهي مجلبة محبته ورضاه، فأنى لمؤمن أن يغفل عنها أو يهمل استعمالها في سلوكه كله.

فالتقوى حساسية في الضمير وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم وتوق لأشواك الطريق، طريق النجاة الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعا ولا ضرا.

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة، رقم (٦٥٢).

وهذا الحذر والتوقي ليس فيما يتعلق بالله – تعالى – بل يتعدى ذلك إلى الخوف من المساس بحقوق العباد، استمع إلى قوله – تعالى –: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾[ص:٢٤]، فالخلطاء أي الشركاء، ونحن سنعدي معنى هذه الآية إلى كل لأنواع الشراكة التي تكون بين الناس، فالأزواج خلطاء، والجيران خلطاء، والأصدقاء خلطاء، والأقارب خلطاء،، وأبناء البلد الواحد خلطاء، بل والناس كلهم في الأرض خلطاء، فمن هذا الذي تمنعه صفاته ونفسه عن البغي على الآخرين لأي سبب كان غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أي المتقون.

الثالث: الأخوة.

يقول الله – تعالى –: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠].

هذه قاعدة تبني الأخوة بين الناس على أرضية الإيمان، بمعنى أن هذا الرابط يقوى ويضعف تبعا للإيمان، وبمعنى – أيضا – أن يبقى الوصف المؤثر هو الإيمان تذكيرا للأمة بتقديم هذا الوصف على سائر أوصاف الأخوة التي تعرفها البشرية: أخوة النسب، أو أخوة الإنسانية، أو أخوة المواطنة، أو غير ذلك.

وتأتي السنة لتبين تفصيلا حقوق هذه الإخوة، قال ﷺ: « **المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه؛ من كان في حاجة أخيه فإن الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**»(١).

ويقول ﷺ أيضا –: « **حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه و إذا دعاك فأجبه و إذا استنصحك فانصح له و إذا عطس فحمد الله فشمته و إذا مرض فعده و إذا مات فاتبعه**»(٢).

وينهى عن كل ما من شأنه إلحاق الضرر بهذه الأخوة، قال ﷺ: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم، (ح٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة، (ح٢٥٦٤).
(٢) تقدّم، ص (١٤٠).

الرابع: الرحمة.

الرحمة رقة في القلب، وإرهاف في الشعور، وهي تستهدف الرأفة بالآخرين، والتألم لهم، وكفكفة دموعهم وتخفيف أحزانهم.

والرحمة خلق إسلامي أصيل كما قال ﷺ: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»[٢].

ويقول: «**الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[٣].

وعن أبي موسى – رضي الله عنه –: أنه سمع النبي ﷺ يقول: « لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: **إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة**»[٤].

وتأتي الصورة الأكثر إشراقا في الجانب التربوي فعن عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: جاء أعرابى إلى النبي ﷺ فقال: أتقبلون صبيانكم ؟ ! فوالله ما نقبلهم! فقال النبي ﷺ: «**أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟**»[٥].

---

(١) صحيح مسلم في البر والصلة، (ح٢٥٦٣).

(٢) أخرجه أحمد، (ح٧٩٤١)، وأبوداود في الأدب، (ح٤٩٤٢)، والترمذي، في البر والصلة، (ح١٩٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٨٨/ ٣٧٤).

(٣) أخرجه أحمد، (ح٦٤٥٨)، وأبوداود في الأدب (ح٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (ح١٩٢٤)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (ح٩٢٥).

(٤) أخرجه الحاكم (٧/ ١٦٧) وصححه ووافقه الذهبي، وأورده البوصيري في إتحاف الخيرة، (ح١٩٤٣) وقال: رواه النسائي في الكبرى من طريق الليث بن سعد، عن ابن الهاد به، وله شاهد من حديث ابن عمر، رواه البزار في مسنده وأصله في صحيح مسلم و أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة»، وقد قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٩): « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح »، ولم أر من نسبه للطبراني إلا هو والمنذري في الترغيب والترهيب، ولم أجده في المعاجم الثلاثة.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب، (ح٥٩٩٨).

المسألة إذن ليست خيارا تربويا أو عادة، بل هي مصيبة، إذ أشار له أن ذلك سببه نزع الرحمة من القلب، فينتج عنه حرمان الآخرين من أبسط حقوقهم، ومنهم الأبناء الصغار الذين تمثل لهم القبلات تعبيرا صامتا عن الحب والعطف والحنان.

والرحمة إن كانت في هذه الأحاديث النبوية، وفيما يظاهر معناها ومبناها من الآيات القرآنية الكريمة،رحمة إنسانية، فإنها في أحاديث وآيات آخر تتسع لتشمل رحمة الحيوان الأعجم، فعن عبد الرحمن بن عبدالله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ، فقال: «**من فجع هذه بولدها ؟! ردوا ولدها إليها**»(١).

الخامس: العفو.

والعفو ترك الحق مع القدرة على اقتضائه مباشرة أو بواسطة السلطة.

أما مع العجز عن اقتضاء الحق فلا عفو وإنما هو التسليم بالقدر، واحتساب الحق عند الله – تعالى –.

والقرآن الكريم يأمر بالعفو ويربطه بالتقوى:﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:٢٣٧].

ويمدح العافين مع القدرة حيث جعله من صفات المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

ويرغب في كسب الأعداء بتحويلهم إلى صفوف الأصدقاء: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت:٣٤].

وهذه الأخيرة تقترب من موضوعنا، إذ السلم الاجتماعي بحاجة لبقائه ولدرء الأخطار الناشئة عن الخلافات الحادثة إلى مبدأ العفو، وهذا ما فعله النبي ﷺ حين فتح مكة، فأزال آثار الخلافات السابقة وقضى عليها لا بالعدل والانتقام وإنما بالعفو والصفح.

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد، (ح٢٦٧٥)، وانظر السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني رحمه الله (٢٥).

إذا تأملنا فيما سبق - وإن أطلت فيه - تبين لنا كيف يتحقق السلم الاجتماعي بوجود المنهج الوسطي، وقد اتفقنا أن الشرع الحنيف بكل ما فيه من تعاليم ومبادئ وشرائع وعبادات هو حقيقة الوسطية، ورأينا كيف أن هذا الشرع جاءنا بأفضل ما يمكن أن تتصوره العقول من مبادئ وشرائع كفيلة بتحقيق السلام الاجتماعي، الذي يعني وجود مجتمع حضاري بالمعنى الإسلامي، تتحقق فيه كرامة الإنسان وحريته واستقلاليته، مجتمع يحصل فيه الفرد - وهو المكون الرئيس له - على حقوقه الأساسية التي تمكنه من العيش فردا صالحا منتجا مشاركا لا يحمل على أحد حقدا، ولا يضمر لأحد شرا، أو لا تدعوه نفسه إلى إلحاق ضرر ببنية المجتمع الذي يعيش فيه حتى لو شعر بالظلم، أو ظن أنه بخس حقه، لهذا قال ﷺ للأنصار: « **إنكم سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[(١)]، فالصبر قيمة اجتماعية - أيضا - تمنع من يشعر بالظلم أو الاستئثار بالحقوق أن يصب نكاله وغضبه فيما يؤدي إلى إلحاق الضرر بالمجتمع الذي يعيش فيه الناس، كما نرى الآن من الثورات والانقلابات والمظاهرات والاضطرابات التي سببها تعبير بعض الناس عن غضبهم مما يرونه أو يعانونه، لكنه أسلوب يؤدي إلى الفوضى والضرر البالغ الذي يفوق ما يريدون القضاء عليه.

- الاستقرار السياسي:

فطر الله العباد على المغالبة والمدافعة، وغرز في خلقتهم غرائز تحقق لهم مصالحهم في الدنيا، وهذا إنما يحصل فقط إذا سلك الخلق مسلك الوسط، والاعتدال.

أما إذا جنح الخلق بهذه الغرائز إلى الغلو أو الإجحاف فإنه يحدث فيهم الفساد والانحلال.

ومن هذه الغرائز غريزة الشح وحب التملك وحب السيطرة، والتي تكون عادة سبب في حدوث النزاع حول الملك والسلطة.

ولقد تحدثنا سابقا عن وسطية الإسلام في الجانب السياسي، في السمع والطاعة من جهة

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (ح٣٧٩٢-٣٧٩٤)، ومسلم في الإمارة (ح١٨٤٥) عن أنس رضي الله عنه.

الرعية، وفي العدل والأمانة من جهة الراعي.

وهذا المنهج الذي ذكرناه يؤدي بالتالي إلى استقرار سياسي، بمعنى أن النزاع إنما ينشب بين الراعي ورعيته إما بسبب جور الحاكم أو عدم أمانته، و إما بسبب طغيان وبغي طائفة من الرعية.

وقد عالج الإسلام كلتا الحالتين، فإذا التزم الناس منهج الإسلام في هذا الجانب استقر المجتمع سياسيا، واختفت منه النزاعات، وما كان فيه من اختلاف في وجهات النظر فيكون حله بالطريقة الشرعية، وهي التناصح، والتوجيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعل الشخص هذا فقد برئت ذمته وتحمل كل مسؤولية اختياره، وفي هذا ما جاء عن أبي سعيد الخدري قال:أخرج مروان المنبر في يوم عيد، فبدأ بالخطبة قبل الصلاة، فقام رجل فقال: يا مروان، خالفت السنة، أخرجت المنبر في يوم عيد ولم يكن يخرج فيه، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة، فقال أبو سعيد الخدري: من هذا ؟ قالوا: فلان ابن فلان، فقال: **أما هذا فقد قضى ما عليه** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكرا فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1]، فهذا الرجل فعل ما عليه، وبين وجهة نظره ولم يزد في هذا عن حدود الشرع باستعمال أسلوب آخر في الإنكار، وهذا تطبيق لفقه التعامل مع الحاكم.

كما أن هذا المجتمع المستقر سياسيا يسود فيه الأمن بلا شك ولا ريب، لأن منصب السلطان إذا قوي وتمكن هابه المخالفون من لصوص وقطاع طرق وغيرهم، كما أنه لا يشغل بمنازعيه على السلطان عن المعتدين على الناس في معايشهم، وتفرغ لهؤلاء، فأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يتحقق هذا إلا إذا سادت على نظام الحكم فيه تعاليم النبي الكريم ﷺ وشريعته التي جاء بها من عند الله.

- الاستقرار الاقتصادي:

المجتمع الذي يتحقق فيه الاستقرار النفسي والاجتماعي والسياسي، يمكن الناس من الالتفات إلى أمور أخرى ينتفع بها البلاد والعباد.

---

(١) تقدّم.

الإنتاج الاقتصادي سمة بارزة ومعلم واضح على ما يتمتع به المجتمع الوسطي من وجوه الاستقرار التي ذكرناها.

وحين تطبق في أي مجتمع تعاليم الشرع الإسلامي سواء في جانبها الاجتماعي أو النفسي أوالسلوكي أو السياسي فإن هذا المجتمع ستختفي منه أي حوافز تدعو إلى الاضطراب الاقتصادي الذي غالبا ما يكون سببه بشري، إما بالظلم والبخل ومنع الحقوق، وإما بالاعتداء على الناس وسلبهم ما في أيديهم.

ولا يتغير هذا في حال العسر واليسر، فقد مرت على الأمة فترات فقر مدقع، لم تظهر فيها حالات الاحتكار، أو الطمع والجشع، بل سادت روح المواساة والتكافل والصبر والمصابرة.

في عهد عمر - رضي الله عنه - مر على الناس عام مجاعة وجد فيه صور جميلة من التكافل والمساواة والصبر، فتصدق الأغنياء من مالهم وواسى الفقراء بعضهم بما في أيديهم، فعن أنس - رضي الله عنه - ق ال: تقرقر بطن عمر رضي الله - تعالى - عنه، وكان يأكل الزيت عام الرمادة، وكان قد حرم على نفسه السمن، قال: فنقر بطنه بأصبعه وقال: «تقرقر ما تقرقر، ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس»، وفي البداية والنهاية: « قال الشافعي: بلغني ان رجلا من العرب قال لعمر حين ترحلت الأحياء عن المدينة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة، أي واسيت الناس وانصفتهم واحسنت اليهم»[١].

وفيها: أن أبا عبيدة قدم المدينة ومعه أربعة آلاف راحله، تحمل طعاما فأمره عمر بتفريقها في الأحياء حول المدينة، فلما فرغ من ذلك أمر له بأربعة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها فألح عليه عمر حتى قبلها»[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٨٥-٨٦).

(٢) السابق.

ومن أجمل ما ذكر صورة ذكرها النبي ﷺ وأثنى بها على قسم من المجتمع تربطهم رابطة القرابة، قال ﷺ: «**إن الأشعريين**[١] **إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم**»[٢].

كما مرت على الأمة - أيضا - فترات غنى وشيوع للمال لم تظهر فيها حالات التكالب والاقتتال عليه، حتى الفقير لم يطمع به، ولا أدل على ذلك أشهر من فترة خلافة عمر بن عبدالعزيز، الذي جاء في التاريخ أنه شاع المال في عهده حتى أصبح الرعاة يبحثون عن فقير يعطونه الزكاة فلا يجدون، بل يقول لهم الفقير: لو أتيتني بالأمس لأخذته أما اليوم فلا حاجة لي به، انظر إلى هذا الاطمئنان الذي عاشه حتى الفقير، فلم يكن لديه حافز لأخذ المال والاحتفاظ به للقادم من الأيام!

٣ - القوة:

الوسطية صورة من صور القوة، والقوة أثر من آثارها، فللقوة بمعانيها الحسية والمعنوية ارتباط وثيق بالوسط.

وقد سبق أن ذكرنا أن الوسط هو أكثر الأماكن قوة ومنعة وبعدا عن التناول.

والمجتمع الوسطي - كما الفرد الوسطي - هو مجتمع القوة والتماسك، مجتمع الممانعة والمدافعة، مجتمع يستعصي على الدخلاء، سواء كانوا من شياطين الإنس أو من شياطين الجن.

فإن الدخلاء غالبا ما يستغلون حالات التطرف، وأعني بها البعد عن حال الوسط إلى الأطراف سواء كان تشددا أو تساهلا.

ولهذا كانت العواصم أكثر منعة من الأطراف، والعدو غالبا ما يتناوش مع عدوه بالاعتداء على الأطراف والثغور.

فإذا كان المجتمع قد ربي على الوسطية والاعتدال فإنه يصير بذلك أكثر ثباتا، وبالتالي أكثر قوة وأبعد منالا من طمع الأعداء.

---

(١) هم قوم أبي موسى الأشعري وأصلهم من اليمن.

(٢) أخرجه البخاري في الشركة، (ح٢٤٨٦)، ومسلم في الفضائل (ح٢٥٠٠).

وقد مر بنا قصة كعب بن مالك لما تخلف عن غزوة تبوك فأمر النبي ﷺ بهجره، وكيف حاول العدو أن يستميله ويستغل نقطة ضعفه، لكن كعب بن مالك وهو الذي تربى في مدرسة محمد ﷺ قاوم ذلك بكل صلابة بل زاده ذلك إيمانا(١).

وقد قال الله – تعالى – مبينا قيمة الوسط كقوة وضعف حال أصحاب الأطراف: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[الحج:١١].

إن المجتمع الذي يعيش أفراده في ظل منهج معتدل متوازن يتأسس على بناء صلب قوي، فالبدن والجسم إذا غذي بالطيب من الغذاء، وعاش في أجواء معتدلة نشأ صحيحا قويا، وكذلك الروح والفكر، فإذا نشأ المرء في بيئة معتدلة متوازنة وغذي بالطيب من العلم والثقافة والفكر نشأ صحيح التصور، سليم المعتقد، قويا بسلوكه وفكره وأخلاقه وأدبياته، وهذا يلمحه من يقرأ سيرة النبي ﷺ في أصحابه، وكيف تهيأ لذلك الجيل مجتمع التوازنات النادرة، فخرج من تحت قبته قادة الفتوحات الإسلامية في كل الأصعدة، الفتوحات العسكرية، ولا يقل عنها الفتوحات العلمية والفكرية.

٤ – الثبات:

من الآثار الحميدة للوسطية على الفرد والمجتمع أيضا سمة الثبات، ونقصد به الثبات على القيم والمبادئ والمعتقدات، وما ينشأ عنها من السلوك والأفعال.

وعلاقة الثبات بالوسطية سببها الانسجام والتناغم الفطري، فإن الغلو أو التفريط كلاهما غير ملائمين للفطرة السوية، المتصفة بالوسطية أصلا: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الروم:٣٠].

---

(١) انظر ص (١٩٦).

وهذا معناه حياة مضطربة مترددة متنقلة، ولهذا جاء عن السلف في وصف أهل الأهواء أنهم يكثرون تغيير القناعات، قال الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله –: « من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل »[١].

ولهذا أيضا لا تكاد تجد صاحب غلو أو تفريط إلا وقد جرب أكثر من طريقة وتغيرت قناعاته أكثر من مرة.

أما صاحب المنهج الوسطي فإنه اختار المنهج الذي ينسجم مع الفطرة فيزول الاضطراب النفس والعقل، وتسكن الروح ويحصل لصاحبه الثبات.

ولهذا الثبات وجهان:

الأول: المداومة، وعدم الانقطاع، وقد امتدح الله تعالى أصحاب المداومة فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[المعارج:٢٣]، ومر معنا قول عائشة رضي الله عنها في حق النبي ﷺ:« **وكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه** »[٢].

وهذا لايحصل إلا بالوسطية والاعتدال في العمل، فإن المغالي يوشك أن ينقطع ولو بعد حين، فالوسطية حزام أمان من الانقطاع، والمعتمد شرعا في الأعمال ليس طلب الكثرة، بقدر الدوام والاستمرار وعدم الانقطاع.

الثاني: عدم التأثر بالعامل الخارجي في تشكل القناعات، والاعتقادات، ومن ثم التفاعل مع الحدث بموجب ذلك.

فإن أهل الغلو أو التفريط أسرع الناس تقلبا وتغييرا للفكر والمعتقد، بل والولاءات أيضا، بحسب ضغط الواقع عليهم، وهذا ملاحظ جدا في سير من وصلتنا أخبارهم من أهل البدع، خصوصا الخوارج، فكان يكفي أهون الحوادث أو الاختلافات ليؤدي إلى تفرق أكثر وتبديل في المواقف[٣].

---

(١) الإبانة الصغرى لابن بطة (ص ١٤٣).
(٢) تقدّم .
(٣) انظر: (دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين: الخوارج واشيعة) للدكتور أحمد جلي ص (٦٤-٦٥).

ولو سبرت عقائد الفرق المخالفة لأهل السنة لوجدت أن أصولها تتغير حسب الزمان والمكان والظروف، بل كل فرقة منهم تنحى منحى آخر بزيادة أصل أو حذفه، فالمعتزلة فرق كثيرة والرافضة فرق كثيرة والخوارج فرق كثيرة والجهمية فرق كثيرة والقدرية فرق كثيرة والصوفية فرق كثيرة ولكل فرقة منها طرقها الخاصة ومراسمها التي تخالفها فيه الفرقة الأخرى.

أما أهل الوسطية والاعتدال في الاعتقاد والقول والعمل، فهم عماد الأمة في النوائب، وهم الثابتون السالمون عند نزول الفتن، ينطلقون من تصوراتهم ومعتقداتهم التي وصلوا لها بنظر صحيح في النصوص الشرعية ليتخذوها دينا لا يغيرونه عند أول فتنة.

ومن الصور الجميلة موقف الإمام أحمد في الفتنة، فقد فعل المأمون[١] ومن بعده ما فعل من تغيير السنة ونشر البدعة وإعلاء أهل البدع والتمكين لهم وقمع أهل السنة، وعاش الناس في محنة عظيمة، وفي عصر الواثق[٢] جاءه المتسرعون فقالوا: « إن هذا الأمر قد فشا وتفاقم ونحن نخافه على أكثر من هذا، وذكروا ابن أبي دواد وأنه على أن يأمر المعلمين بتعليم الصبيان في المكاتب القرآن كذا وكذا[٣]، فنحن لا نرضى بإمارته، فمنعهم من ذلك وناظرهم »[٤]، أراد هؤلاء أن يتخذوا من الفتنة حجة وذريعة للخروج على السلطان فمنعهم الإمام أحمد لأن الأمر واضح من

(١) المأمون الخليفة أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن أبي جعفر المنصور العباسي ولد سنة سبعين ومئة وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل وأمر بتعريب كتبهم وبالغ وعمل الرصد فوق جبل دمشق ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ نسأل الله السلامة أتته وفاة أبيه وهو بمرو سائرا لغزو ما وراء النهر فبايع من قبله لأخيه الأمين ثم جرت بينهما أمور وخطوب وبلاء وحروب تشيب النواصي إلى أن قتل الأمين وبايع الناس المأمون في أول سنة ثمان وتسعين ومئة، توفي سنة (٢١٨هـ)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٧٢).

(٢) الواثق بالله الخليفة أبو جعفر وأبو القاسم هارون بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي محمد ابن المنصور العباسي البغداي وأمه رومية اسمها قراطيس أدركت خلافته، قال الخطيب: استولى أحمد بن أبي داود على الواثق وحمله على التشدد في المحنة والدعاء إلى خلق القرآن وقيل إنه رجع عن ذلك قبيل موته، توفي سنة (٢٣٢هـ) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٠٦).

(٣) أي يعلمهم أن القرآن مخلوق.

(٤) السير (١١ / ٢٦٣).

الشريعة: « **إلا أن تروا كفرا بواحا** »[١]، مع أن الواثق نفاه عن مدينته[٢]، ومنعه من التعليم، فاستجاب وأطاع ولم يكابر حتى إنه لم يخرج للصلاة[٣].

بل وأشد من ذلك أنه وشي به أنه يأوي عدوا للخليفة، قال حنبل: « فبينا نحن ذات ليلة نيام في الصيف سمعنا الجلبة ورأينا النيران في دار أبي عبدالله... ثم فتشوا منزل أبي عبدالله والسرب والغرف والسطوح وفتشوا تابوت الكتب وفتشوا النساء والمنازل فلم يروا شيئا»[٤]، ما أشده على النفس، إمام المسلمين في عصره، يفتش منزله وحريمه في منتصف الليل ؟! ومع هذا فلم يتبدل موقفه ولا اعتقاده ولا سلوكه بما هو فيه من محنة وبلاء.

والجزاء من جنس العمل،فالوسطية من أعظم أسباب الثبات على الصراط المستقيم يوم القيامة، فإن من زلت قدمه عن الصراط المستقيم هنا زلت هناك، ومن ثبتت قدمه هنا ثبتت هناك، ومن أبطأت قدمه عن السير هنا أبطأت هناك، ومن أسرعت في السير هنا أسرعت هناك، والوسطية والاعتدال هي الصراط المستقيم هنا، فمن سار عليها وثبتت قدمه عليها فليبشر بالخير العظيم هناك يوم تزل أقدام أهل النفاق وأهل البدع والمعصية عن الصراط وتخطفهم الكلاليب، ويثبت الله تعالى أهل الإيمان والوسطية والاعتدال وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم، لايمسهم السوء ولا هم يحزنون.

والثبات في هذا المقام له صلة قوية بخاصية التوازن الفكري التي سبق الحديث عنها، وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك. هذه الآفات التي لم يسلم منها أي تصور آخر، سواء التصورات الفلسفية، أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية، بما أضافته إليها، أو نقصته منها، أو أولته تأويلا خاطئا، وأضافت هذا التأويل الخاطئ إلى صلب العقيدة.

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (ح ٧٠٥٦)، ومسلم في الإمارة (ح ١٨٤٠) عن عبادة- رضي الله عنه -.
(٢) السير (١١ / ٢٦٤).
(٣) السير (١١ / ٢٦٤).
(٤) السير (١١ / ٢٦٧).

٥ - كمال التصور ووضوح الرؤية:

ذكرنا سابقا عندما تكلمنا عن الصراط المستقيم كونه أحد المعاني التي تتضمنها الوسطية أن من آثار الاستقامة على الفرد وضوح الرؤية، فإن الذي يسير على طريق مستقيم يرى ما بين يديه، ولديه تصور واضح عن الطريق التي يسير عليها وعما يستقبله.

إن هذا الوضوح في الرؤية وهذا الكمال في التصور الذين يحظى بهما صاحب المنهج الوسطي صمام أمان من الوقوع في البدعة، فإن أهل الوسطية لايقعون في البدع، أيا كان نوعها، سواء أكانت من بدع الاعتقاد أو كانت من بدع العمل، وسبب ذلك أن البدعة غالبا ما تنشأ عن رغبة المبتدع في الزيادة من شيء يحس أنه مفتقر إليه ويجهل، أو يتجاهل أنه موجود في السنة، وبشكل أتم وأكمل، فيتكلف الأمر من ذات نفسه فيقع في البدعة.

أما من رزقه الله الوسطية ولديه تصور صحيح يرى به محاسن السنة وفضيلتها وكمال الشريعة وتضمنها كل ما يحتاجه البشر فإنه لا يشعر بالافتقار إلى التكلف والابتداع.

بل إنه يعيش دهره شاعرا بالتقصير فيما هو مشروع من الفرائض، والسنن تشغله عن التفكير في الابتكار والاختراع، فضلا عما يعلمه من النهي عن الابتداع والإحداث.

ولذلك فإننا لو تتبعنا أحوال أهل البدع فرقا وأفرادا لوجدنا أنهم في بدايتهم قد خالفوا منهج الوسطية، ووقعوا إما في غلو وإما في جفاء، وهذا الغلو أو هذا الجفاء سبب لفساد التصور، وانقلاب المفاهيم، ويصبح ما تقبله عقول الناس من محالات العقول عندهم، كما يصير ما ينكره العقل البشري عند كافة الناس ممكنا عندهم إن لم يكن واجبا.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك موقف الجهمية والمعتزلة من الأسماء والصفات، فإن غلوهم في التنزيه خلط عليهم الأمور وأفسد تصوراتهم، فقالوا من الأقوال ما أضحك عليهم العقلاء، ومن أعظم ذلك نفيهم عن الباري تعالى كل اسم ووصف ثبوتي أو سلبي، لأنهم يعدون الاشتراك في الاسم مستلزما للاشتراك في المسمى والحقيقة.

فأصبح إثبات ما جاء به القرآن كفرا عندهم، وأصبح الكفر الذي قالوه حقيقة الإيمان

عندهم، ولهذا قال بعض السلف: «إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ونستحي أن نحكي كلام الجهمية »[١].

كمال التصور ووضوح الرؤية لدى أصحاب المنهج الوسطي عززه وقواه موافقتهم الكتاب والسنة الموافقة المطلقة، فهم يأخذون بأطراف الأدلةكلها، و لايدعون شيئا من دلالة الأدلة أبدا، بل هم يأخذون بكل أطراف الأدلة، بينما سائر الفرق لاتوافق الأدلة إلا من جانب واحد فقط، وتخالفه من جوانب كثيرة، وهذا من نتائج مخالفتهم لمنهج الوسطية.

٦ -الأمان والاطمئنان.

ومن آثار الوسطية أنها سبب من أسباب الحياة السعيدة، فالسعداء في حياتهم هم أهل الوسطية، فهم سعداء باطنا وظاهرا، وسبب ذلك هو ما يجدونه من الاستقرار والسكينة النابعة من سلامة المنهج والتصور ووضوح الرؤية.

إن الحيدة عن منهج الوسطية لا يعني الدمار والانحراف على مستوى الفرد والمجتمع فقط، بل يعني تحول النفس البشرية إلى ساحة صراع فكري عنيف، ويكون سلوك الشخص تابعا لهذا الصراع وحدته ونتائجه، وهذا سبب كثرة تنقل أهل الغلو والتفريط بين الآراء المختلفة والمتناقضة أحيانا.

ويظهر أثر ذلك كثيرا في نهاية المطاف، فكم من أهل المخالفة للمنهج الوسطي من اعترف في نهاية المطاف بفشله وخسارته عمره فيما لم يستفد منه شيئا، إلا الحيرة والاضطراب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا يوجد الحاذق منهم المنصف الذي غرضه الحق في آخر عمره يصرح بالحيرة والشك، إذ لم يجد في الاختلافات التي نظر فيها وناظر ما هو حق محض، وكثير منهم يترك الجميع ويرجع إلي دين العامة الذي عليه العجائز والأعراب، كما قال أبو المعالي[٢]وقت السياق: « لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهونى عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي ».

---

(١) الآجري في الشريعة، رقم (٥٧٩).

(٢) أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني فقيه شافعي من أئمة المتكلمين المتأخّرين توفي سنة (٤٧٨ هـ) سير أعلام النبلاء (١١ / ٥٠٦).

وكذلك أبو حامد[١] في آخر عمره استقر أمره على الوقف والحيرة، بعد أن نظر فيما كان عنده من طرق النظار أهل الكلام والفلسفة، وسلك ما تبين له من طرق العبادة والرياضة والزهد، وفي آخر عمره اشتغل بالحديث بالبخاري ومسلم.

وكذلك الشهرستاني[٢] مع أنه كان من أخبر هؤلاء المتكلمين بالمقالات والاختلاف، وصنف فيها كتابه المعروف بـ(نهاية الإقدام في علم الكلام) وقال: «قد أشار علي من إشارته غنم وطاعته حتم، أن أذكر له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي العقول ولعله استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

فأخبر أنه لم يجد إلا حائرا شاكا ومرتابا أو من اعتقد ثم ندم لما تبين له خطؤه.

وكذلك الآمدي[٣] الغالب عليه الوقف والحيرة، وأما الرازي[٤] فهو في الكتاب الواحد، بل في الموضع الواحد منه ينصر قولا، وفي موضع آخر منه أو من كتاب آخر ينصر نقيضه، ولهذا

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي بالتشديد، الملقب بحجة الإسلام، مصنف مشهور تنقل بين أكثر من اتجاه فمن الفلسفة والكلام إلى التصوف ثم أخيرا إلى السنة وقيل إنه مات وصحيح البخاري على صدره، لكن ذلك بطبيعة الحال ليس هو الواقع في كتبه ومصنفاته، من أشهر كتبه إحياء علوم الدين، توفي سنة (٥٠٥هـ)، السير (١٩ / ٣٢٢).

(٢) أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني، شيخ أهل الكلام والحكمة، وصاحب التصانيف، برع في الفقه وصنف الكتب ومنها (الملل والنحل)، كان كثير المحفوظ قوي الفهم، مليح الوعظ، اتهم بالتشيع، بل بما هو أشد، توفي سنة (٥٤٩هـ)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٨٦).

(٣) أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، سيف الدّين، المتكلم صاحب المصنفات ومنها أحكام الأحكام وأبكار الأفكار في الكلام وغيرها،،توفي سنة (٦٣١هـ)، السير (٢٣ / ٣٦٤).

(٤) أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين القرشي التيمي البكري الطبرستاني الرازي، المعروف بالفخر الرازي،

استقر أمره على الحيرة والشك، ولهذا لما ذكر أن أكمل العلوم العلم بالله وبصفاته وأفعاله، ذكر أن على كل منها إشكال.. قال: «ومن الذي وصل إلى هذا الباب، ومن الذي ذاق هذا الشراب :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروى غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر:١٠]، واقرأ في النفي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي »، وهو صادق فيما أخبر به أنه لم يستفد من بحوثه في الطرق الكلامية والفلسفية سوى أن جمع قيل وقالوا، وأنه لم يجد فيها ما يشفي عليلا ولا يروى غليلا، فإن من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها مسألة واحدة من مسائل أصول الدين موافقة للحق، الذي يدل عليه المنقول والمعقول، بل يذكر في المسألة عدة أقوال، والقول الحق لا يعرفه فلا يذكره، وهكذا غيره من أهل الكلام والفلسفة، ليس هذا من خصائصه فإن الحق واحد، ولا يخرج عما جاءت به الرسل، وهو الموافق لصريح العقل فطرة الله التي فطر الناس عليها»[(١)].

٧ - النصر والتمكين:

ومن آثار الوسطية أن بها يتحقق نصر الله لعباده،كما في الحديث: « **لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**»[(٢)]،

أو ابن خطيب الري الأشعري المتكلم المفسر، من أشهر مؤلفاته تفسيره وكتاب المطالب العالية وغيرها، توفي (٦٠٦ هـ)، السير (٢١ / ٥٠٠).

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٦٨-٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (ح٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة، (ح١٠٣٧)، وهذا لفظه، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

وهذا لأنهم أهل الوسطية، فنصر الله تعالى له أسباب كثيرة، ومن جملة أسبابه الوسطية والاعتدال في الاعتقادات والأقوال والأعمال.

والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[محمد:٧].

فهذا الوعد بالنصر والتمكين لمن نصر الله لا يكون لمن حرف الشريعة وأفسد الديانة بسلوك مسالك المغضوب عليهم من أهل الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط، وإنما وعد به من نصر الله بنصر دينه وإعلاء كلمته وسنة نبيه ﷺ، سواء كان ذلك بالسنان أم باللسان.

فكلما كانت الأمة أقرب إلى منهج النبي ﷺ وأصحابه، وكانت أكمل أخذا للشريعة وتمسكا بها، كلما كانت أقرب للنصر الذي وعد الله به أولياءه.

وكلما كانت أبعد عن التمسك بشريعة الله تعالى معرضة عنها إفراطا أو تفريطا، كلما كانت أبعد عن النصر، والله تعالى إنما نصر هذه الأمة بدينها ثم بأخذها أسباب النصر الممكنة لها، فإذا تخلت عن دينها واعتمدت على الأسباب تفوق عليها أعداؤها بكثرتهم وعتادهم.

٨ – درء المفاسد عن الأمة:

أخيرا فإن الوسطية سبب لحقن الدماء، وصيانة الأعراض والأموال، وهذا محسوس مشاهد، فإن حفظ الدماء من جملة مقاصد الشريعة وضروراتها، ويحققه أسباب كثيرة، ومنها الوسطية والاعتدال.

وإذا كانت الأشياء تتبين بضدها، فإن الحالة التي عاشتها الأمة منذ فجر التاريخ إلى عصرنا الحاضر من الفتن وسفك الدماء وهتك الأعراض والأموال من قبل أهل الغلو من جهة، وأهل التفريط والجفاء من جهة أخرى، هو خير شاهد على أثر الوسطية في درء المفاسد عن الأمة ومن أعظمها فتنة الاقتتال واستباحة المسلمين بعضهم بعض.

فالوسطية عصمة لصاحبها من الانزلاق في مهالك الفتن، وهذا يسري أثره إلى المجتمع كله فتندفع عنه أو تخف وطأة المحن والفتن، وناهيك بالخوارج مثلا يصدق ذلك، فإن هذه الطائفة الضالة قد تسلطت على النفوس الطاهرة الزكية بالقتل والإتلاف، فقتلوا بسيوفهم الآثمة كثيرا

من الصحابة، وأداروا معهم المعارك الطاحنة، وتجرؤا على سفك الدماء وقتل الأبرياء وترويع الآمنين وإتلاف الأموال، وماذلك إلا بسبب تركهم لمنهج الوسطية وجنوحهم إلى جانب الغلو في المؤاخذة والأحكام.

وأما أهل الوسطية فإن الدماء عندهم معصومة، إلا بالسبب والمسوغ الشرعي المرعي، فالدعوة إلى الوسطية هو في حقيقته دعوة إلى حقن الدماء .

وكذلك المعتزلة الذين جعلوا الخروج على الحكام أصلا من أصولهم الخمسة[1]، وتستروا وراء اسم شرعي أطلقوه عليه مخادعة للأمة، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندهم يعنون به الخروج على الحكام، فبسبب هذه البدعة والغلو عندهم ذهبت أرواح كثيرة، وسلبت أموال محترمة معصومة.

وكذلك مايفعله أهل الغلو في التكفير في زماننا من إتلاف الأموال وإزهاق الأرواح بلا حق ولا حجة، وإنما هو الهوى الذي أعمى البصائر، والغلو الذي أطفأ نور الرحمة من القلوب.

وأما أهل الوسطية فإنهم سلموا من ذلك وسلموا، ولله الحمد والمنة، وهذه ثمرة من ثمرات هذه الوسطية المباركة، جعلنا الله من أهلها في الدارين بمنه وكرمه.

٩- رفع الحرج:

قلنا سابقا أن الله تعالى شرع لهذه الأمة الحنيفية السمحة، والوصول إلى حقيقة السماحة في الدين لا يكون بحسب الأهواء والأمزجة، وإنما بحسب النصوص الشرعية الثابتة، فإن تحقق المرء من الحكم الشرعي في مسألة ما يصل به إلى القناعة باليسر والسماحة الحقيقيين.

وقد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فقد أوضحت الآية القرآنية أن الدين جاء بوضع الآصار والأغلال.

---

(١) انظر شرح ألأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (١٤٤) ومقالات الإسلاميين (١/ ١٥١-١٦٦).

والدين الحقيقي النقي الصافي المتحقق بالنص الشرعي والتطبيق والامتثال السلفي متحقق بالوسطية حقا وصدقا، وبهذا فإنه على تيقن أنه يمارس شريعة لا قيد فيها ولا آصار ولا أغلال ولا عنت ولا مشقة، وما كان من مشقة وضيق وشدة عارضة جاء معها في الشريعة التخفيف والتكييف الذي يرفع عنه هذا العنت الطارئ، ولهذا قال الفقهاء: (المشقة تجلب التيسير).

والمعنى الذي أريد الوصول إليه أن أهل الامتثال الحقيقي هم أهل المنهج الوسطي وهم الآخذون بأطراف التيسير الذي جاءت به الشريعة السمحة دون أن يكون عليهم في ذلك حرج ولا مأثمة، وصدق الإمام الثوري[١] حين قال: « إنما العلم عندنا أن تسمع بالرخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد »[٢].

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

تمّ بحمد الله

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله الكوفي، الإمام الحجة العلم، توفي سنة (١٦١ هـ)، السير (٧/ ٢٢٩).

(٢) جامع بيان العلم ص (٣٢٩).

فهرس المصادر والمراجع

. أ .

القرآن الكريم

الإبانة الصّغرى لابن بطة ، مكتبة الفيصلية ، ط ١٤٠٤هـ ، ت : رضا بن نعسان معطي .

الإبانة الكبرى لابن بطة ، دار الراية ، ط٢ ، ت : مجموعة من الباحثين .

إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري، ط١ ، ت : عادل بن سعد ورفيقه ، مكتبة الرشد .

الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان ، لابن بلبان ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ،١٤٠٨هـ، ت : شعيب الأرناؤوط .

الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام .

أخبار القضاة ،

أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح ،ط١ ، ت : موفق عبدالقادر ، مكتبة العلوم والحكم .

أديان الهند الكبر ، أحمد شلبي ، ط١٠ ، مكتبة النهضة .

إرشاد الساري شرح صحيح البخاري ، للقسطلاني ، دار إحياء التراث .

إرواء الغليل للألباني ، ط٢ المكتب الإسلامي .

الاستصلاح والمصالح المرسلة للزرقا ،ط١ ، دار القلم .

الاستقامة لشيخ الإسلام ، ط١ ، ت : محمد رشاد سالم ، دار الهدي النبوي .

الإصابة في معرفة الصحابة ، أحمد بن علي بن حجر ، ط١ / علي البجاوي ، دار الجيل .

أضواء البيان ، محمد الأمين الشنقيطي ، ط١ ، دار عالم الفوائد .

الاعتصام للشاطبي ، ط١ ، ت : محمود حلبي ، دار المعرفة .

الأعلام للزركلي ، دار العلم للملايين ، ط٨ .

أعلام الموقّعين لابن القيم ، مكتبة ابن تيمية ، ت : عبدالرحمن الوكيل .

الافتراق أسبابه وسبل الوقاية منه ، ناصر العقل ، نسخة إلكترونية .

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ، ت : ناصر العقل ، ط٦ ، دار العاصمة .

. ب .

البداية والنهاية لابن كثير ، ط :١٤١٤هـ ، ت : أحمد فتيح ، دار الحديث .

البدع والنهي عنها لابن وضاح ، ط٢ ، ت : عمرو عبدالمنعم سليم، مكتبة ابن تيمية .

البدر الطالع للشوكاني ، دار الفكر ، ط١ ، ت : حسين العمري .

البدر المنير لابن الملقّن ، ت : مجدي بن السيد ورفيقه ، ط١ ، دار الهجرة .

بغية المرتاد لشيخ الإسلام ابن تيمية ، مكتبة العلوم والحكم ، ط٣ ، ١٤٢٢هـ ، ت : موسى الدويش
البيان والتبيين ، لأبي عثمان الجاحظ ، دار الكتب العلمية .

- ت -

تاج العروس .
تاريخ دمشق لابن عساكر ، ط١ ، ت : عمر بن غرامة العمروي ، دار الفكر .
تغليق التعليق لابن حجر ، ط٢ ، ت : سعيد القزقي ، المكتب الإسلامي .
تلبيس إبليس لابن الجوزي ، ط٢ ، دار الكتب العلمية .
تحريم آلات الطرب للشيخ الألباني ، ط١ ، مكتبة الدليل .
تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، دار طيبة ، ط١ ، ١٤٠٨هـ، ت : سامي السلامة .
التقييد والإيضاح على مقدمة ابن الصلاح ، الحافظ العراقي ، ط٢ ، دار الحديث .
تهافت الفلاسفة للغزالي أبي حامد ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٢١ ، ت : أحمد شمس الدين .
تهذيب الأسماء واللغات للنووي ، دار الكتب العلمية .
تهذيب اللّغة للأزهري .
ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ، السيد الجليند .

- ج -

جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري : دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٢هـ .
جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ، مكتبة الضياء ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ .
جامع الترمذي دار الكتب العلمية ، ترقيم أحمد شاكر .
الجامع لآداب الراوي ، للخطيب ، ت : محمد عجاج الخطيب ط٣ ، مؤسسة الرسالة.
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، دار الكتب العلمية ، ط ١٤٠٨هـ .

- ح -

الحركات الباطنيّة في العالم الإسلامي للدكتور عبدالكريم الخطيب ، مكتبة الأقصى ، ط٢ .
حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ، دار الفكر .
حياة الألباني وآثاره ، محمد الشيباني ، ط١ ، الدار السلفية .

- د -

دراسات في الأهواء والافتراق ، ناصر العقل ، ط٢ ، دار الوطن .
دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين د . أحمد جلي ، مركز الملك فيصل ، ط٢ ،١٤٠٨ .

الدرر الكامنة لابن حجر ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٨هـ .

- ذ -

ذم الكلام للهروي ، ط١ ، ت : عبدالله الأنصاري ، مكتبة الغرباء .

- ر -

الرسالة التبوكية ، ابن قيم الجوزية ، ت : سيد إبراهيم ، دار الحديث بالقاهرة .

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ، صالح بن حميد .

روح المعاني للآلوسي ،دار الفكر ، ط١ ، ١٤١٧هـ ، ت : محمد حسين العرب .

الروح لابن القيم ، دار الكتاب العربي ، ط٣ ، ١٤٠٨هـ .

روضة العقلاء لابن حبان ط١.

روضة الناظر لابن قدامة ، مع شرحها لابن بدران ، دار الكتب العلمية .

رياض الصالحين للنووي .

- س -

سلسلة الأحاديث الصّحيحة ، ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، مكتبة المعارف .

سلسلة الأحاديث الضّعيفة ، ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، مكتبة المعارف .

السنة لابن أبي عاصم ، المكتب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، تخريج : محمد ناصر الدين الألباني .

سنن الدارقطني ، ط عالم الكتب.

سنن أبي داود ، دار الحديث ، ط ١ ، ترتيب عزت عبيد الدعاس .

السنن الكبرى للبيهقي ،ط١ دار الكتب العلمية ت : محمد عطا.

سنن ابن ماجة ، دار إحياء التراث العربي ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي .

سنن النسائي ، ط ٢ ، ترقيم عبدالفتاح أبو غدة .

سير أعلام النّبلاء للذهبي ، مؤسسة الرسالة ، ط ٨ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ورفقائه .

- ش -

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للاّلكائي ، دار طيبة ، ط ١ ، ت : أحمد سعد حمدان .

شذرات الذهب لابن العماد ، دار إحياء التراث العربي .

شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ، ت : عبدالكريم عثمان ، مكتبة وهبة .

شرح السّنّة للبغوي ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، ت : شعيب الأرناؤوط .

شرح السنن

شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، مكتبة الرشد ، ط ١٤١٥هـ .

الشريعة للآجرّي ، دار الوطن ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ ، ت : عبدالله الدميجي .

شفاء العليل لابن القيم ، دار التراث .

. ص .

الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ، ط١ ، ت : محمد الحلواني ورفيقه ، مكتبة رمادي .

الصحاح . للجوهري ، ت : أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين .

صحيح الأدب المفرد للشيخ الألباني ، ط١ ، دار الصديق .

صحيح البخاري ، مع شرحه فتح الباري لابن حجر ، دار المعرفة ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

صحيح الترغيب والترهيب للشيخ الألباني .

صحيح الجامع ، ط المكتب الإسلامي .

صحيح أبي داود للشيخ الألباني ، ط١ ، دار غراس .

صحيح الفقيه والمتفقه ، عادل العزازي ، ط١ ، دار الوطن .

صحيح مسلم ، دار إحياء التراث ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي .

صحيفة الشرق الأوسط ، عدد (٩٢٨٨) .

الصواعق المرسلة لابن القيم ، دار العاصمة ، ط١ ، ت : علي الدخيل الله .

. ط .

طبقات الحنابلة ، دار المعرفة .

طبقات الشافعيّة الكبرى للسبكي ، ط٢ ، دار هجر ، ت : عبدالفتاح الحلو ورفيقه .

الطرق الحكمية لابن القيم ، ت : محمد جميل غازي ، دار المدني .

. ف .

فتح الباري دار المعرفة ، تعليق الشيخ عبدالعزيز بن باز .

فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني ، ت : عبدالرحمن عميرة ، ط٢ ، دار الوفاء .

الفرق بين الفرق للبغدادي ، دار الآفاق الجديدة ، ط٥ ، ١٤٠٢هـ .

فرق المسلمين والمشركين للرازي ،ط١ ، محمد المعتصم ، دار الكتاب العربي .

الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، دار الجيل ، ط ١٤٠٥هـ ، محمد نصر ورفيقه .

الفوائد لابن القيم ، ت : بشير عيون ، ط٢ ، مكتبة المؤيد .

. ق .

القضاء والقدر ، عبدالرحمن المحمود ، ط٢ ، دار الوطن .

. ك .

الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي : دار الكتب العلمية ، ط١، ١٤١٨هـ ،ت : عادل عبدالموجود ورفيقه .

الكشاف للزمخشري ، دار الكتب العلمية ،ط ١٤١٥هـ ،ت : محمد عبدالسلام شاهين .

الكفاية للخطيب ، ط المكتبة العلمية بالمدينة .

٥ . ل .

لسان العرب ، لابن منظور ، ت : هاشم الشاذلي ورفيقيه ، دار المعارف .

. م .

مجلة حراء الإلكترونية ، عدد : ٢(يناير –مارس)٢٠٠٦م .

مجمل اللغة ، أحمد ابن فارس ، ط ٢ ، ت : زهير سلطان ، مؤسسة الرسالة .

١٠ المجموع شرح المهذب للنّووي ، دار الفكر .

مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، ترتيب عبدالرحمن القاسم وولده محمد ، طبعة مجمع المصحف الشريف .

محاسن التأويل للقاسمي ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، ت : محمد فؤاد عبدالباقي .

مدارج السّالكين لابن القيم ، دار الكتب العلمية .

١٥ المدخل الفقهي العام ، مصطفى الزرقا ، ط١٠ ، دار الفكر.

مسائل ابن هانىء

المستدرك على الصحيحين للحاكم أبي عبدالله ، دار الكتب العلمية .

مسند الإمام أحمد ، ط٢ دار إحياء التراث العربي .

مسند البزار ، ط١ ، ت : محفوظ الرحمن زين الله ، مكتبة العلوم والحكم .

٢٠ المشكاة للتبريزي ، المكتب الإسلامي ، تخريج : محمد ناصر الدين الألباني .

المصنف لابن أبي شيبة ، ت : حمد الجمعة ورفيقه ، ط١ ، مكتبة الرشد .

معرفة السنن والآثار للبيهقي ، ط١ دار الكتب العلمية ، ت : سيد كسروي حسن .

المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق ، دار العاصمة ، ط١ ، ١٤٠٩هـ .

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ، ط :١٤٠٦هـ ،مؤسسة المعارف .

٢٥ معجم البلدان لياقوت الحموي ، دار إحياء التراث ، ط ١٣٩٩هـ .

معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربي .

المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، بعناية : إبراهيم مصطفى ورفقائه .

المعجم الكبير ، أبو القاسم الطبراني ، ط٢ ، ت : حمدي السلفي ، دار إحياء التراث العربي .

المعجم الأوسط ، أبو القاسم الطبراني ، ط ١٤١٥هـ، ت : طارق عوض الله ورفيقه ، دار الحرمين .

معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ، ط١ ، ت : عادل العزازي ، دار الوطن .

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، ت : صفوان عدنان ، ط٣ ، دار القلم بدمشق .

المقاصد الحسنة للسخاوي ، ط٤ ، ت : محمد عثمان الخشت ، دار الكتاب العربي .

مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٢ ، ت : محمد محيي الدين .

مقدمة ابن خلدون ، ط٥ ، دار القلم .

الملل والنحل للشهرستاني :دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٠هـ .

منهاج السنة لابن تيمية : مكتبة ابن تيمية ، ط٢ ، ت :محمد رشاد سالم .

المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي ، دار الريان ، ط ١٤٠٧هـ .

الموافقات للشاطبي ، ط٣ ، ت : إبراهيم رمضان ، دار المعرفة .

. ن .

النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، المكتبة الإسلامية ، ت : محمود الطناحي .

. هـ .

هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لان القيم ، ط١ ت : مصطفى أبو النصر ، مكتبة السوادي .

الوسطية في القرآن الكريم ، ناصر العمر ، (نسخة إلكترونية).

. ي .

اليهوديّة لأحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٨ .

****

المحتويات

* اضغط على الرقم للانتقال إلى الموضوع مباشرة

	الموضوع	الصّفحة
٥	مستخلص البحث	٣
	مقدمة	٥
	لم يختلف السلف في وسطية الإسلام	٦
	المصطلح من وسائل الغزو الفكري	٦
	كلام نفيس لابن القيم حول التلاعب بالمصطلحات	٦
١٠	أسباب قبول الناس للباطل وإعراضهم عن الحق	٧
	شرائح من يتكلم عن الوسطيّة	٩
	مفكر يهودي يشرح كيفية تطويع المثقفين	٩
	سبب الكتابة في هذا الموضوع	١١
	الباب الأوّل: الوسطيّة في اللّغة والشّرع	
١٥	تمهيد : الوسطية في اللغة	١٦
	الفرق بين الوسط بتحريك السين وبين الوسط بتسكينها	١٦
	خطأ بعض اللغويين في معنى الوسط	١٩
	إذا استعمل الوسط للثناء ضعف فيه معنى البينية	٢٠
	ليس الوسط هو الأفضل دائماً	٢٠
٢٠	للوسط دلالتان	٢١
	وقفة مع كلام للدكتور ناصر العمر	٢٢
	وصف الفردوس بالوسط	٢٣
	الدلالة البلاغية للفظ الوسط	٢٥
	الفصل الأوّل :الوسطيّة في النّصوص الشّرعيّة وكلام أئمّة السّلف	
٢٥	جاءت الوسطية والوصف بها في الكتاب والسنة على ضربين	٢٧
	أوّلا : النصوص الّتي جاءت بالتصريح بلفظ الوسط والثناء عليه وبه	٢٧
	المراد بالوسط في قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾	٢٨
	الكلام على قوله تعالى : ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾	٢٩

الوسط في قوله تعالى : ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ٣٠
أخذ الوسط من المال في الزكاة ٣٢
ثانيا : النصوص الّتي جاءت بالثناء على حال التوسط والأمر به دون ذكر لفظ (الوسط) ... ٣٢
قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ٣٢
قصة أبي بكر وعمر في رفع الصوت بالقرآن ٣٣
قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ٣٤
السنة تؤكد المعنى الّذي اشار له القرآن ٣٥
اجتماع الخوف والرجاء في حال الموت ٣٦
أعمال القلوب أدوية تحتاج إلى طبيب ٣٦
حديث حنظلة : (ساعة وساعة) ٣٩
الموازنة بين حاجة الروح والجسد ٣٩
السنة في الصلاة بين التطويل والتخفيف ٤٠
النهي عن الغلوّ في الدين حماية لجانب التوسط فيه ٤٢
للغلوّ صور ومظاهر كثيرة ٤٣
الاعتدال في هيئات الصلاة ٤٤
الوسطية في كلام السلف وأفعالهم ٤٥
فعل عمر في الاستخلاف ٤٥
الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة ٤٦
الاقتصاد في الموعظة ٤٦
كلام نفيس لعمر بن عبدالعزيز ٤٧
خير الأمور أوساطها ٤٨
الفرق بين الاقتصاد والتقصير ٤٨
قول الشاطبي : الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل ٤٩
الوسطية المصطلح ٥١
لم يأت نص يأمر بالوسطية لفظا ٥١
نسبيّة الوسطيّة ٥٣

ليست الوسطية ممكنة دائماً ٥٣

الفصل الثاني : استخلاص المعاني الشرعية الّتي يتضمّنها مصطلح الوسطيّة

طريق الوسطيّة ٥٥

أي مشروع يفتقد العلم والبصيرة فعاقبته إلى الانحراف..... ٥٥

٥ لا ينبغي أن يتصدر الدعوة إلى الله ، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا العلماء.. ٥٦

كلام نفيس للشيخ الألباني رحمه الله..... ٥٧

تنكّر بعض الكتّاب المعاصرين للوسطية ، وعدّهم الكلام فيها نظرياً لا حقيقةً له ٥٩

وسطية الإسلام ثبتت بوصف الله – تعالى – له بذلك ، لا بنظر بشري ٦٠

الوسطية بين الأمر الشرعي والوصف والثناء ٦٠

١٠ الوسطية في الإسلام صفة لثلاثة أشياء..... ٦٣

الوصف بالوسطية يتضمّن كثيراً من معاني الثناء والفضل ٦٥

العدل..... ٦٥

العدل معنى عام ، يشتمل على عدة مقاصد ، كلّها مطلوب شرعاً..... ٦٦

العدل مع الناس..... ٦٧

١٥ العدل قيمة مقدّسة لا يتخلى عنها المسلم مع أي شخص ٦٨

العدل مع النفس..... ٦٨

العدل مع الحقائق والقيم ٦٩

اليسر والسماحة من أبرز سمات الوسطيَّة..... ٦٩

التيسير بين الحقيقة والدعوى..... ٧٤

٢٠ طرق أصحاب منهج التيسير ٧٥

التوازن من أهمّ المعاني الّتي ينتظمها منهج الوسطيّة ٧٧

للتوازن وجوه عدة ٧٨

الأحكام الّتي جاءت في الشريعة حققت هذا التوازن من خلال النظر الشّمولي ٧٩

شمول الحكم الشرعي في مسألة الزكاة ٧٩

٢٥ ومن المعاني الّتي ينتظمها لفظ الوسطية : الاستقامة ٨٠

صلة الاستقامة والصراط المستقيم بالوسطيّة..... ٨١

السّلف يذكرون كثيرًا الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنَّة..... ٨٣

علاقة الحكمة بالوسطيّة..... ٨٣

أثر الحكمة في الملك والعلم..... ٨٥
نقائض الوسطية..... ٨٧
نقائض الوسطيّة ليست معاني منقطعة الصّلة عن الوسطيّة في وضعها الخاص..... ٨٧
هناك صور تكون فيها الوسطيّة الإسلاميّة موقفاً جديداً منفصلاً تماماً عن القطبين..... ٨٧
الغلو والإفراط ٨٨
جاءت الشّريعة بالنّهي عن الغلوّ نهياً شديداً..... ٨٩
النصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال ٩٠
الغلوّ نوعان ٩١
صور ومظاهر للغلو..... ٩٢
نماذج من الغلاة..... ٩٣
الحكم على العمل بأنه غلو باب خطير لا يقدر عليه إلا العلماء..... ٩٥
يجب علينا التفريق بين الغلوّ البدعي ، وبين الورع المشروع..... ٩٦
التفريط والجفاء..... ٩٦
كم من الغلاة دفعهم للغلوّ هربهم من التفريط..... ٩٦
التفريط محصور في التعمّد ٩٧
يدخل في التّفريط ما كان عن جهل..... ٩٨
التفريط نوعان ٩٨
الباب الثّاني: مجالات الوسطيّة ومظاهرها وآثارها على الفرد والمجتمع
مجالات الوسطية ومظاهرها..... ١٠٢
التديّن ١٠٢
الإسلام جاء بمنهج وسطي معتدل في جانب التديّن ١٠٢
مظاهر وسطيّة الإسلام في مجال التديّن ١٠٣
أعمال القلوب..... ١٠٣
الأمر الشرعي جاء بالموازنة بين أعمال القلوب بحيث لا يطغى جانب على جانب... ١٠٤
وسطية السنة في مسألة التوكل على الله والاعتماد على السبب ١٠٧
بين الدنيا والآخرة..... ١٠٧
التديّن الصحيح الّذي جاء الإسلام بمنهجيته الوسطية لا يعادي الدّنيا ١٠٩

في الطاعات والعبادات العملية ١٠٩
عناية الإسلام بالكيف أكثر من الكم ١١١
وسطية الإسلام في الطهارة ١١٢
في الدعاء ١١٢
٥ وسطية الإسلام في تشريعاته ١١٤
التدرج في تطبيق ونزول الأحكام الشرعية ١١٤
بين الروحية والماديّة ١١٥
بين الواقعية والمثالية ١١٦
المقاصد والوسائل ١١٩
١٠ لغة الخطاب ١٢٠
الثّبات والتغيّر ١٢٥
الأحكام الشرعية لا تتغيّر ١٢٩
الذي يتغيّر هو الفتوى ١٢٩
موضوع المصالح يحتاج إلى فقه دقيق ١٣٢
١٥ وسطية الإسلام في الأخلاق والسلوك ١٣٣
منشأ جميع الأخلاق السّافلة وبناؤها على أربعة أركان ١٣٣
هناك سببان لظهور خلق معيّن على الإنسان ١٣٤
كيف هذّبت الشريعة الأخلاق ١٣٥
في العلاقات الإنسانية ١٣٧
٢٠ الإنسان لم يُخلق ليعيش وحده ١٣٧
العزلة والخلطة ١٣٨
الحب والبغض والولاء والبراء ١٤١
بين الثقة والشك (سوء الظن) ١٤٣
الفرق بين الاحتراز وسوء الظن ١٤٦
٢٥ الفرد والمجتمع ١٤٧
دور المرأة في الحياة الاجتماعية ١٤٨
وسطية الإسلام في باب العلم والتعليم ١٤٩
بين الاجتهاد والتقليد ١٥١

منزلة العقل والتدبر ١٥٢
من مظاهر وسطية الإسلام في العقل ١٥٣
العقل شرط في معرفة العلوم ١٥٤
ليس كل ما يُعلَم يعلّم..... ١٥٦
بين النصّ والتأويل والتدبّر..... ١٥٧
وسطية الإسلام في الاعتقاد والتصور والتفكير ١٥٩
التصوّر للوجود والكون..... ١٦٠
التصور في حق الخالق جل وعلا ١٦٤
في التوحيد..... ١٦٥
في باب القدر ١٦٧
سبب إشكال المخالفين في القدر ١٦٨
القرآن الكريم أبطل قول الجبرية والقدرية..... ١٧٠
في الإيمان بالرسل..... ١٧١
الملائكة ١٧٥
في الإيمان باليوم الآخر..... ١٧٦
وسطية الإسلام في السياسة الشّرعيّة..... ١٨١
الدين والدولة ١٨٣
الشّريعة جعلت للولاة حدوداً ينتهون إليها..... ١٨٣
بين الديكتاتورية والديموقراطية ١٨٥
الفصل بين السلطات واستقلالية القضاء..... ١٨٧
ليس للحاكم أن يحكم بعلمه ١٨٧
بين الأخذ والعقوبة والعفو والإعراض ١٨٩
في القتل والدية..... ١٩١
في السعي للسُّلطة..... ١٩١
بين الطاعة والتمرّد..... ١٩٢
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ١٩٤
معالم وسطيّة السنة في هذه الشعيرة..... ١٩٥

لكلّ شخص حدٌّ ينتهي إليه في الأمر والنّهي ١٩٧
في الجهاد..... ١٩٧
ليس بين الآيات المكية والآيات المدنية تعارض ١٩٨
وسطية الإسلام في السياسة الاقتصاديّة ١٩٩
الإسلام وسط بين الرأسمالية والاشتراكية..... ٢٠١
مظاهر هذه الوسطية الاقتصادية ٢٠١
آثار الوسطية
التّوازن في المجتمع يعني ثبات العناصر المكوّنة له..... ٢٠٣
الطغيان ٢٠٥
أمثلة لأثر التوازن الناتج عن الوسطية
في جانب السياسة الاقتصادية ٢٠٦
في الجانب الأخلاقي..... ٢٠٧
الجمع بين العمل الدنيوي وعمارة الأرض ٢٠٨
العلاقة بين الحاكم والمحكوم..... ٢٠٨
الاستقرار أثر من آثار الوسطية..... ٢١٠
وجوه الاستقرار : الاستقرار النفسي ٢١٢
الاستقرار الاجتماعي ٢١٤
الأصول الّتي يقوم عليها قوام السّلام الاجتماعي ٢١٦
الاستقرار السياسي ٢٢٠
الاستقرار الاقتصادي ٢٢١
الوسطيّة صورة من صور القوّة ، والقوّة أثر من آثارها ٢٢٣
من الآثار الحميدة للوسطيّة على الفرد والمجتمع أيضاً سمة الثّبات ٢٢٤
أهل الغلوّ أو التّفريط أسرع النّاس تقلّباً وتغييراً للفكر والمعتقد..... ٢٢٥
من صّور الثبات موقف الإمام أحمد في الفتنة..... ٢٢٦
الثبات له صلة قوية بخاصية التوازن الفكري..... ٢٢٧
من آثار الوسطية كمال التصور ووضوح الرؤية ٢٢٨
الأمان والاطمئنان..... ٢٢٩
كثير من المخالفين اعترف في نهاية المطاف بفشله ٢٢٩

من آثار الوسطية أنّ بها يتحقق نصر الله لعباده ٢٣١
درء المفاسد عن الأمّة ٢٣٢
الوسطيّة عصمة لصاحبها من الانزلاق في مهالك الفتن ٢٣٣
من آثار الوسطية رفع الحرج..... ٢٣٣
قائمة المصادر والمراجع..... ٢٣٥
المحتويات..... ٢٤١

****